PJ
7846
A28
B5

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY

BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

DATE DUE

SEP 17 1971 M P			
JUN 27 1973 P			
APR - 5 1999			

Cornell University Library
PJ 7846.A28B5

Bidayah wa-nihayah /

3 1924 026 936 728

olin

مطبوعات

مكتبة مصر

نجيب محفوظ

بداية ونهاية

مطبوعات
مكتبة مصر

بداية ونهاية

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

PJ
7846
A28
B5

B694886
55
S DG

١

ألقى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التى تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة ، وقد شمل المدرسة ـ التوفيقية ـ سكون عميق ، ثم مضى الى فصل من فصول السنة الثالثة ، ونقر على الباب مستأذنا ، ودخل متجها صوب المدرس وأسر فى أذنه بضع كلمات ، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس فى الصف الثانى وناداه قائلا :

ـ حسنين كامل على .

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق ، وغمغم :

ـ افندم ؟

فقال المدرس :

ـ اذهب مع حضرة الضابط .

فخرج التلميذ عن قمطره ، وتبع الضابط الذى غادر الفصل فى خطوات بطيئة . ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة ، وراح يسائل نفسه : ترى أجاءت بسبب المظاهرات الأخيرة ؟. وكان قد اشترك فى المظاهرات ، وهتف مع الهاتفين : « ليسقط تصريح هور » و « ليسقط هور ابن الثور » ، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا ، فهل كان مغاليا فى ظنه ؟ . وسار وراء الضابط فى الردهة الطويلة متفكرا ، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم . ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنا ، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادى قائلا :

ـ حسين كامل على .

شقيقه أيضا ؟! ولكن كيف يمكن أن توجه اليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك فى المظاهرات بتاتا ؟ ! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجما ، وما أن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم فى دهشة :

ـ وأنت ؟ ! . . ماذا حدث ؟ !

وتبادلا نظرة حائرة ، ثم تبعا الضابط الذى مضى متسمتا حجرة الناظر . وسأله حسين فى لهجة رقيقة مؤدبة :

ـ ما الذى أوجب استدعاءنا من الفصل ؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :

ـ ستقابلان حضرة الناظر . .

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة ، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل ، وعينان عسليتان واسعتان ، وبشرة سمراء ضاربة الى العمق ، الا أن حسين فى التاسعة عشرة ، يكبر أخاه بعامين ودونه طولا ، على حين يمتاز حسنين بدقة فى قسمات وجهه أكسبته وضاءة ووسامة. ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر ، وتخايل لعينيهما منظره الصارم فى رهبة وخوف . وزرر الضابط سترته ، ونقر على الباب ، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومىء اليهما أن يتبعاه . ودخلا وهما ينظران الى الرجل وقد انكب على مكتبه فى صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم . وحياه الضابط بأدب جم وقال :

ـ التلميذان حسين كامل على وحسنين كامل على .

فرفع الناظر رأسه وهو يطوى الرسالة بيديه ، وأطفأ عقب سيجارة فى النافضة ، وجعل يردد بصره بينهما ، ثم تساءل :

ـ فى أى سنة أنتما ؟

فقال حسين بصوت متهدج :

ـ رابعة رابع .

وقال حسنين :

ـ ثالثة ثالث .

فنظر الرجل اليهما مليا ثم قال :

ـ أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغى . لقد توفى والدكما كما أبلغنى أخوكما الأكبر ، والبقية فى حياتكما . . .

ووجما فى ذهول وانزعاج ، وهتف حسنين وهو لا يدرى قائلا:

ـ توفى أبى !! . . مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف ؟ ! لقد تركناه منذ ســـاعتين فى صحة جيدة وهو يتأهب للخروج الى الوزارة . .

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

ـ ماذا يعمل أخوكما الأكبر ؟

فقال حسين بعقل غائب :

ـ لا شىء . . .

فتساءل الرجل :

ـ أليس لكما أخ آخر موظف أو شىء من هذا القبيل ؟

فهز حسين رأسه قائلا :

ـ كلا . . .

فقال الرجل :

ـ أرجو أن تتحملا الصـدمة بقلوب الرجال ، واذهبا الآن الى البيت كان الله فى عونكما . . .

٢

وغادرا المدرسة الى شارع شـــبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع . وكان حسنين أسرعهما الى البكاء فأراد حسين أن ينهره فى حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صـــوته فلم ينبس

بكلمة . وعبرا الطريق الى الجانب الآخر ، وحثا خطواتهما قاصدين عطفة نصر الله على مسير دقائق من المدرسة . وتساءل حسنين وهو ينظر الى شقيقه كالمستغيث :

ـ كيف مات ؟

فهز حسين رأسه واجما وتمتم :

ـ لا أدرى . لا أستطيع أن أتصور . لقد تناول فطوره معنا ، وتركناه فى صحة جيدة . لا أدرى كيف وقع هذا ..

وحاول حسنين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه كعادته قائلا : « صباح الخير يا بابا » فأجابه مبتسما : « صباح الخير ، ألم يستيقظ أخوك ؟ » واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة ، فدعا الرجل الأم الى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة ، فتذمر الرجل قائلا : « اذا جلست معنا انفتحت نفسك » ولكنها أصرت على الاعتذار . فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة : « على كيفك » . لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك ، اللهم الا نحنحة مقتضبة . وكان آخر ما رآه منه ظهـــره وهو يدخل حجرته مجففا يديه فى منشفته . ثم انتهى ، انتهى ، أبشع بها من كلمة . واسترق الى حسين نظرة مروعة فوجده محزونا واجما كأنما كبر وشاخ ، وعاد الى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة ، « لا أصدق أنه مات » ، لا أستطيع لن أصدق . ما هذا الموت ؟. لا أستطيع أن أصدقه . انتهى ؟ ! لو كنت أعلم أن هذا آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت . من أين لى أن أعلم ؟. أيموت الانسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق . لا أستطيع أن أصـــدق » . وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه الى عطفة نصر الله التى كاد يفوتها فى ذهوله . وسارا فى طريقها الضـــيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة الى ما يعترضـــها من عربات الغاز والخضر

والفاكهة . وسبقهما البصر الى عمـــارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب ، ثم ترامى الى أذنيهما الصوات فتبينا صوتى أمهما وأختهما الكبرى وهزهما حتى الأعمـــاق فأجهشا فى البكاء ، وجريا لا يلويان على شىء ، وارتقيا السلم مهرولين الى الدور الثانى فوجدا باب الشقة مفتوحا فتدافعا الى الداخل ، وقطعا الصالة الى حجرة الأب فى نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان . وثبتت عيناهما على الفـــراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدد تحته ، ثم اقتربا من حافته وارتميا عليها وأغرقا فى نشيج حار . وكفت الأم والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتـــان . وأرادت الأم أن تتركهما ينفسان عن صـــدرهما فتماسكت واقفة فى جلبابها الأسود وقد احمرت عيناها وانتفخ خداها وأنفها ، أما الأخت فقد ارتمت على كنبة وأخفت وجهها فى مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء . وكان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة . وكان حسنين يبكى فى جو من الخوف والذهول والانكار . وقف حيال الموت محتجا ثائرا ولكن فى نفس الوقت خائفـــا يائســا . « ليس هذا بأبى . لا يمكن أن يسمع أبى هذا البكاء كله دون أن يتحرك . رباه لماذا يجمد هكذا ؟ أنهم يبكون ولكن فى تسليم من لا حيلة له . لم أكن لأتصور هذا ، ولا أتصوره . ألم أره يمشى فى هـــذه الحجرة منذ ساعتين ؟ ليس هذا أبى . وليست هـــذه حياة » وبدأ الانتظار وكأن لا نهاية له فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة :

ــ حسبكما . قم يا حسين وخذ أخاك خارجا .

وأعادت القـــول حتى قام حسين وأنهض أخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة . وقفا يلقيان على الجدث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع . ولم يستطع حســـين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة

التى بدرت من أمه ، فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء ، تشوبه زرقة مروعة ، ويرين على صفحته سكون غير دنيوى ، فى عمق العدم ولا نهائيته ، فسرت رجفة فى أوصاله . لم يكن أحد منهما قد رأى ميتا قبل هذه المرة فركبهما الخوف والأسى . ونفذ الى أعماقهما حزن قهار الى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل . ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعاودته الرجفة . ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه فى شبه غيبوبة . وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفانى ، وحالت بينهما وبين الفراش ، ثم قالت لهما بلهجة حازمة :

ـ اخرجا ..

فتراجعا خطوتين ، وتولى حسنين عناد طارىء فتوقف ، وتشجع به حسين فتوقف كذلك . وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الذهول ، وكأنهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدريانه ، ولكنهما وجداها كالعهد بها لم يتغير منها شىء . هذا الفراش على يمين الداخل ، والصوان فى الصدر يليه المشجب ، والى اليسار الكنبة التى ارتمت عليها الأخت وقد أسند الى حافتها عود انغرست ريشته بين أوتاره ، وثبتت عيناهما على العود فى دهشة ممزوجة بالحزن . طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار ، وطالما التف حولها الأصدقاء مطرين يستعيدون ويعيد ، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق ، أرق من هذا الوتر . ثم مر بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش ، لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة ، ولعل الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له فى الدنيا وأول عهدهما باليتم . وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته ، فرنوا اليها بحنان عميق ، وقد بدا لهما فى تلك اللحظة أن عرق الانسان أشد ثباتا من حياته العظيمة . ولبثت الأم تنظر اليهما فى صمت . لم تجر لها خواطرهما على بال ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم

يدر لهما بخلد . وندت من حسنين تنهدة حارة لفتت اليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس فى أذنه :

ـ هلم بنا .

وألقى الشابان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان ـ بحكم العادة المتوارثة ـ ان عينى أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسىء اعراضهما الى شعوره ، وبعثا اليه بتحية قلبية وتقهقرا الى الباب ثم غادرا الحجرة . ولاحت من حسنين نظرة الى أخيه فطالع فى وجهه حزنا عميقـــا مؤثرا فخفق قلبه وأحس نحوه بعطف ، كما أحس بحاجته الشديدة الى عطفه ..

٣

وغادر الشقيقان الشقة الى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا أخاهمـــا الأكبر ـ حسن ـ جالسا فى صمت وكآبة . وجلسا الى جانبه يشاركانه صمته وكآبته . لم يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله ، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة . وكان يشبه أخويه الى حد كبير بيد أنه اختلف عنهما فى نظرة عينيه التى تنم عن جرأة واستهتار ، فضلا عن أن طريقته فى ترجيل شعره الكثيف المنفوخ ، ولبس البدلة ، دلت على عنايته بنفسه من ناحية ، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية أخرى . كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام . وقد سأله حسين بتأثر :

ـ كيف مات والدنا ؟

فأجاب قائلا وهو يقطب :

ـ مات فجأة فأذهلنا جميعا . كان يرتدى ملابســه وكنت جالسا فى الصالة فما أدرى الا ووالدتنا تنادينى بفزع ، فهرعت

الى الحجرة ، فوجدته ملقى على الكنبة وصدره يعلو وينخفض . وجعل يومىء فى ألم الى صـــدره وقلبه فحملناه الى الفراش ، وقدمنا له كوب ماء ولكنه لم يســـتطع أن يشرب . ثم غادرت الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب ، ولكنى لم أكد أبلغ الفنـــاء حتى صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا ، ووجدت أن كل شىء انتهى ...

ورأى وجهى شقيقيه يتقلصان من الألم فازداد وجهه كآبة . كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقيه أن يظنا بحزنه الظنون . كانا يعلمان بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شـــقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهترة ، فخاف أن يحسباه دونهما حزنا وأســـفا . والحق انه يجد لوعة الحزن والأسى . والحق أنه لم يبغض أباه قط على رغم ما كان . واذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هذا الى تقدمه عنهما فى السن — كان فى الخامسة والعشرين — والى تمرسه بالحياة حلوها ومرها ، ومرها على الأكثر ، الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت . حقا كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ فى وجهه قائلا : « لا أستطيع أن أعول رجلا خائبا مثلك الى الأبد ، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشق ســبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك على » . حقا لن يجد من يقول له هذا بعد اليوم ، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه اذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى لا يوجد بها منفذ لأمل . انه أعظم ادراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف ؟!. واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين ثم عض شفته . كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه الى الحقد عليهما وفى مقدمتها جميعا نجاح حياتهما المدرسية وتمتعهما بعطف أبيه . ولكنه لم يكن يرى فى المدرســـة ميزة يحسد عليها أحد ، ومن ناحية أخرى كان مقتنعا بأن أباه يحبه كشقيقيه وان

ران على حبه السخط والغضب ، وأهم من هذا كله أن الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا فى آل كامل بفضل الأم قبل كل شىء .

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة فى ثياب ريفية فعرفوا فيهما خالتهم وزوجها عم فـــرج سليمان ، وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم ، على حين هرولت الخالة الى الداخل وهى تصرخ « يا خراب بيتك يا أختى » فدوت العبارة فى آذانهم دويا مفجعا وعاود الشابين البكاء . وراح عم فــرج سليمان يحادث حسن بينا خلا الشقيقان الى نفسيهما فى صمت طويل . والتقت أفكارهما وهما لا يدريان فى مصير أبيهما بعد الموت . وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية ، وسأل الله بقلبه أن يلقى أباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله . وأما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكر . وكان يسلم بالايمان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر ، وقد حملته أمه يوما على أداء الفرائض فأداها دون وعى ، ثم هجرها فى شىء من التردد دون تكذيب أو زيغ . ولم تتسلط العقيدة على فكره . ولم تشغل باله كثيرا ، ولكنه لم يجد نفسه خارجا على حقائقها قط . وقد دفعه الموت الى التفكير ولكنه لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة : « هل الموت هو النهاية ؟ . ألا يبقى من أبى الا التراب ولا شىء وراء هذا ؟ . معاذ الله . لن يكون هذا . ان كلام الله لا يكذب » . ولبث حسن وحده لا يشغله شىء من هذه الأفكار ، ولم يستطع الموت نفسه أن يدعوها الى رأسه . كأنه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقة انه لم يتأثر بأى نوع من التربية أو التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه فى ســاعات الغضب . وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة ، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته ، وحتى الأثر

الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها . لذلك تاه به ألفكر فى وديان بعيـدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ أسرته منها . بيد أنه لم يطل به المكث مع شقيقيه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما أن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتيـاح كأنه كان ينتظره :

ـ فريد افندى محمد !

وكان القادم يجفف جبينه بمنديل على رغم لطافة الجو الخريفى ، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البـدانة ، ذا كرش عظيمة ، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة ، على أن بدانته وكهولته وأناقته أيضا أضـفت عليه وقارا مما يعتز به موظفو الحكومة والكتبة منهم خاصـة . وعلقت به أعين الاخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لأبيهم . وأقبل الرجل عليهم معزيا . ثم خاطب حسن قائلا :

ـ طلبت اجازة اليوم من الوزارة . هلم بنا الى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لابتياع اللوازم الضرورية .

وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه الى الوزارة من اجراءات تستدعيها الوفاة ، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا ..

٤

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه ، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه . كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يحب أن يظهر بها أمام الناس . لم يكن أخواه ليكترثا كثيرا لهذا الأمر ، أما هو فكان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه ، غضبا لأبيه الذى يحبه ،

ولنفسه هو . وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير أحدا يملأ العين الا جارهم الكريم فريد أفندى محمد ، أما زوج خالته فكان فى حكم العمال ، وليس عم جابر سليمان البقال بخير منه ، والحلاق أدهى وأمر ، ونفر غيرهم غيابهم أشرف من حضورهم . وانقبض صدره وغشيه كدر عميق . ولكنه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا . وردت اليه الروح فعاد الى حزنه خالصا من القلق . ثم حدث ما لم يدر له فى حسبان ، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادرها ساع ،ففتح بابها ثم نزل منها رجل ينم مظهره على الألقاب والرتب . وتقدم بجسمه الطويل العريض الذى عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع اليه الاخوة بأدب ، واندس بينهم فريد أفندى محمد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التى ينبغى أن يقدرها ـ كموظف ـ أكثر من سواه . وتساءل القادم فى صوت منخفض :

ـ أليس هذا بيت المرحوم كامل افندى على ؟

فبادره فريد افندى قائلا باحترام :

ـ بلى يا سعادة البك . .

ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيا خيزرانا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل . وكان حسنين قد امتلأ ارتياحا لمقدمه ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على أنه لم يكن يعرف البيت ، واقترب من أخيه حسن وسأله :

ـ من يكون هذا الرجل ؟

فقال حسن :

ـ أحمد بك يسرى ، مفتش عظيم بالداخلية ، وصديق حميم للمرحوم . .

فسأله بغرابة :

- لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه ؟

فحدجه حسن بنظرة غريبة وقال :

- كان والدنا كثير التردد على بيته ، أما هو .. انه رجل عظيم كما ترى .. !

وصمت الشاب لحظة ثم استدرك قائلا :

- كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وتناسى حسنين هذا ، ولم يشأ أن يفسد على نفسه زهوها ، وود لو يراه - ذلك المفتش - المشيعون جميعا . ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ . انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش . وعلقت أعين الشقيقين بالنعش فى ذهول وانكار ، وتساقط دمعهما طوال الطريق . وبلغوا المسجد فأخذوا فى توديع المشيعين وشكرهم . وأظهر البعض استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير ، ولكن حسنين همس فى أذن أخيه الأكبر قائلا :

- لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة . ووفقوا الى صرف المشيعين ، وركبوا سيارة الموتى وليس فى ركابهم الا عم فرج سليمان وفريد أفندى محمد الذى أبى الرجوع اباء لم ينفع فيه الرجاء . وانطلقت السيارة بهم الى باب النصر ، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور فى العراء ثم ووری جثمان كامل افندى على فى قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق المدافن كأنه من قبور الصدقة . ووقف حسنين غارقا فى الحزن والبكاء ، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات الى محمد افندى فريد فى خجل واستياء « لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءونى معزين ، ولرافقنى بعضهم حتما الى هذا القبر . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ ! » .

٥

انتصف الليل أو كاد ، وخلت الشقة الا من أهلها . وآوت الأسرة الى الصالة ومعهم الخالة وزوجها . وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين فى ذاك اليوم الحزين ، وأنصت اليها حسين وحسنين باهتمام ، على حين وجم حسن متفكرا .

وتحدث حسنين عن أحمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت ، لوجود خالته وزوجها من ناحية ، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية أخرى . وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو الى باب حجـرته المغلقة بطرف حزين ، ويتخيل فراشه الخالى بانكار وأسف . ثم نظرت الأم الى الأبناء وقالت :

- قوموا للنوم ...

وأذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاق أليم ، ومضوا الى حجرتهم . وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة فأخلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر ، وشارك حسنين حسين فى فراشه . ولكنهم لم يستسلموا للنوم ، أو تأبى النوم عليهم ، فراحوا يتحـدثون عن أبيهم بحزن وحنـان ، ويذكرون أيامه الأخيرة ، وميتته المفاجئة . ثم قال حسن :

- كانت جنازته تليق بمقامه حقا ..

فقال عم فرج سليمان مؤمنا على قوله :

- كان رحمه الله رحمة واسعة رجلا عظيما ، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله . ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت الى شارع شبرا ..

ولم يرتح حسنين لصـــوت الرجل ، وكان يشعر لوجوده بضيق ، ثم ذكر حانقا أنه رأى القبر العارى ، فقال :

ــ العجيب ان والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر فى بنـــاء مقبرة تليق بالأسرة .

فعاد الصوت الذى لم يرتح اليه يقول :

ــ وهل كان يظن أنه سيهلك فى مثل هذه السن ؟. ان والدك فى الخمسين . وعندنا فى الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة فى هذه السن .

وصمت الرجل مليا ثم استدرك قائلا :

ــ ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جدته من دمياط الى القاهرة وهو فى مثل سنك يا سى حسنين ، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل .

فقال حسنين بامتعاض :

ــ حقا لسنا من أهـــل القـــاهرة وان كانت أسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت .

وذكر فى حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه . وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة . وازداد ضيقا بوجود هـــذا الرجل الذى احتل فراشه ، فآثر الصمت حتى يقطع عليه ســـبيل الكلام . وساد الصمت حتى رنق النوم بأجفانهم . وفى الصـــالة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهن ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز . وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجـــرة الأخرى . وقد ارتسمت أماراته على وجـــه الأم النحيـــل البيضـــاوى وعينيها الملتهبتين . وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيها ، فلم يبق من حيويتها الا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم .

وكان التغير الطارىء عليها من العمق بحيث يتعذر تصورماكانت

عليه أيام شبابها ، الا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة . كان لها هذا الوجه البيضاوى النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب ، الى شحوب فى البشرة ، واحديداب قليل فى أعلى الظهر ، فلم تكن تختلف عن أمها الا فى طولها المماثل لطول شقيقها حسنين . كانت بعيدة عن الوسامة ، وأدنى الى الدمامة ، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها ، على حين ورث الاخوة خلقة أبيهم . وكان الحزن قد أتى عليها فبدت فى صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب . أما الأم فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى . كان بداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح . ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنغص عليها حياتها ، وأنها كان يحلو لها كثيرا أن تقارن بين حظيهما فتقول : ان أختها تزوجت من موظف أما زوجها هى فعامل فى محلج قطن ، وان أختها تقيم فى القاهرة وهى مقضى عليها بالحياة فى الريف ، وأن أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هى لا حظ لهم الا حظ العمال ، وان كرار أختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السعة الا فى المواسم . لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه . وامتلأت نفسها امتعاضا الى ما بها من حزن . انها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد . انتهى زوجها ، وانها لتتلفت يمنة ويسرة فلا تجد أحدا تعرفه الا هذه الأخت التى لا يعقد بها رجاء . لا قريب ولا نسيب . ولم يخلف الراحل شيئا . وهيهات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة . وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور ؟ . ورنا بصرها الى حجرة الأبناء فى سهوم . اثنان فى المدرسة ، معفيان من المصاريف حقا ، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئا . أما الثالث ففى حكم الصعاليك ! . وتنهدت من الأعماق . ثم حولت عينيها الى نفيسة فتقطع قلبها ألما . فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه

هى الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين . بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدموع . وأن حياتها الماضية وان أمست حلما سعيدا موليا الا أنها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات ، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح . كانت دائما قوية ، وكانت محور البيت الأول ، بل كانت على الأرجح تقـــوم بدور الأب ، على حين كان المرحوم أدنى الى حنان الأمهات وضعفهن . والأبناء أنفسهم مثال حى على هذا التباين بين الأب والأم ، فكان حسن شاهداً تعيسا على رخاوة الأب وتدليله ، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها . أجل كانت أرملة قوية ، ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل الا اجترار الحزن والقلق ..

٦

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار أحد غير أهلها . وقد كوم أثاث حجرة الراحل فى ركن منها وأغلق بابهـــا . واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوا لها . وكانت الأم تعلم بأنه ينبغى أن تتكلم . ولم يختلط عليهـــا الأمر فيما يجب قوله ، فقد كانت فكرت فأطالت التفكير ، ولعله لم يكن يحـــيرها شىء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقـــوة ، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة . وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت :

– مصيبتنا فادحة ، ليس لنا الا الله ، والله لا ينسى عباده ..

لم يكن بوسعها أن تتساءل « ما عسى أن نفعل ؟ » ، وهيهات أن تنتظر جوابا من أحد من المحيطين بها ، حتى كبيرهم حسن .

وليس فى الدنيـا أحـد تستطيع أن تلقى اليـه بهذه الاستغاثة فتشركه فى بعض همها .

شعرت بالخلاء يكتنفها ، ولكنها أبت أن تستسلم لليـأس . واستدركت تقول :

ــ ليس لنا من قريب نعتمد عليه . وقد رحل العزيز الغالى دون أن يترك شيئا الا معاشه ، ولا شك أنه دون المرتب الذى كان لا يكاد يكفينا . فالحياة تبدو كالحة الوجه ، ولكن الله لا ينسى عباده . وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها الى بر الأمان . . .

والختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول :

ــ لا أحد يموت جوعا فى هذه الدنيا ، وسيأخذ الله بيدنا ، أما المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو . أسفى عليك يا بابا .

ولم تحدث هذه الدموع أثرا عميقا لأن كلام الأم أنذر بأمور خطيرة استأثرت بجل اهتمامهم ، فثبتت أعينهم على أمهم التى عادت تقول :

ــ لا يجوز اذن أن نيـأس من رحمـة الله ، ولكن ينبغى أن نعرف رأسنا من قدمنا والا هلكنا ، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة ، وربنا معنا .

وأحست بأن معين الكلام العام قد نفد ، وانه ينبغى أن تخاطب الأبناء ، كل بما يعنيه . ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقل خطورة ، تمهـد به لمن هو أشد خطورة ، فنظرت صوب حسين وحسنين ، وقالت بصوت هادىء أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر :

ــ لن يـكون فى الامكان أعطاؤكما أى مصروف يومى ، ومن حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة . .

وجوه تافهة ! . اشتراك نادى الكرة ، السينما ، الروايات ، أهذه وجوه تافهة ؟!. وقد تلقى حسـين الحكم فى وجوم ، وتاه عقله متخيلا الحياة بلا مصروف ، ولكن دون أن ينبس بكلمة . أما

حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة ، وسرعان ما قال معترضا ، وبلا وعى تقريبا :

- كل المصروف ؟! .. ولا مليم ؟!

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم :

- ولا مليم ..

أحزنها اعتراضه ، ولكنها رحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلا الى الشك فيه ، ولكى يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقيه . وفتح حسنين شفتيه ، وهمهم دون أن يبين ، ثم قال بصوت منخفض :

- سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف ...

فقالت أمه بحدة :

- انك واهم ، المصائب كثيرة ، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم . ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعا لوجدت أكثرها فارغا . وهبكما الوحيدين الفقيرين فما فى هذا من عيب ، ولست المسئولة عما وقع ...

ولاذ حسنين بالصمت متذكرا أنه يخاطب أمه . كان دائما يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها ، وكان الرجل يحبه كثيرا فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة الا ابنته نفيسة . أما الأم فلم تكن تتخلى عن حزمها قط . ولما فرغت من الرد على اعتراضه استطردت قائلة :

- كذلك أحذركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسى كما تفعلان عادة .

وكان الشقيقان يقنعان من غذائهما المدرسى بلقمات معدودات كى يتناولا وجبتهما الرئيسية فى البيت . وكان التلاميذ الذين يأكلون فى المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة ، فتساءل حسنين برقة :

ـ لماذا لا نأكل فى بيتنا كعادتنا ؟

فقالت الأم بامتعاض :

ـ من يدرى فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذى تحب !

وارتسمت على شفتى حسن ـ الذى أصغى الى الحديث كله فى صمت عميق ـ شبه ابتسـامة ، أخفاها بتقطيبة مصطنعة ، ولكنها لم تخف على الأم ، فصممت على أن تواجهه بالحقيقة ـ ان كان حقا فى حاجة الى ذلك ـ بعد هذا التمهيد الطويل . فتساءلت بلهجة حزينة :

ـ وأنت يا حسن ؟ ! .

هذا أكبر الأبناء ، أول من أيقظ أمومتها ، الحبيب الأول !. ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفطرة بسبب . لا يعنى هذا بطبيعة الحال أنها كرهته . انها أبعد ما يكون عن هذا . ولكنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حسرة بالغة . انزوى فى ركن مظلم ، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها الا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات . وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة . كان فى البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله ، فلم يبعث به الى المدرسة الا فى سن متأخرة . وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية ، وتكرر هروبه من المدرسة ، وتوالى سقوطه عاما بعد عام ، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة . واستحال ما بينـه وبين أبيه الى نقار وشجار ثم الى ما يشبه العداوة الحقة ، فكان يطرده أحيانا من البيت فيقضى أياما متسكعا ثم يعـود الى البيت وقد اكتسب شرورا جديدة من مخادنة الأشقياء والغوص فى الاثم والادمان وهو دون العشرين . ولما بلغ اليأس من أبيه مداه ألحقه بحانوت بقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها . ثم عمل فى شركة سـيارات وطرد منها أثر عراك أيضا . ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه ففرض نفسه

على البيت فرضا ، يلقى سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل . وبدا وكأنه لا يعمل للمستقبل حسابا ، وظل سادرا مستهترا حتى فاجأه موت الأب . أنه يدرك خطورة الحال ، فهو الوحيد الذى عرف مرتب أبيه ، وقدر على وجه التقريب معاشه . وفهم ما تعنى الأم بتساؤلها « وأنت يا حسن ؟ » . « أنت تقولين ان الله لا ينسى عباده ، وأنا عبد من عباده . فلننظر كيف يذكرنا . لماذا أخذ والدنا ؟ لماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا ؟ » ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة ، وشعوره ممتلىء عطفا وتقديرا للمسئولية ، ثم قال :

— انى أدرك كل شىء ..

فقالت المرأة فى ضيق متسائلة :

— ما عسى أن يجدى الادراك وحده ؟

— لا بد من عمل شىء .

فقالت فى انفعال :

— هذا ما نسمعه كثيرا .

— الآن تغير الحال .

— أليس ثمة أمل أن تتغير أنت ؟ !

فقال حسن فى نبرات قوية :

— مثلى لا يضيع فى الحياة ، انى أستطيع أن أشق سبيلى . والفرص كثيرة والأسلحة فى يدى لا حصر لها . اصغ الى يا أماه لن أطالبك بغير المأوى واللقمة ! ..

هذا أسلوبه !. يبدأ وكأنه يسلم بكل شىء ، ثم ينتهى وكأنه يطالب بحقوق جديدة . المأوى واللقمة ، وماذا يبقى بعد ذلك ؟! ورمقته باستياء وقالت :

— ان حالنا لا يحتمل هذا الهذر ..

— الهذر ؟ !

ـ أجـــل . نحن فى حاجة الى من يطعمنا فكيف نهيىء لك اللقمة ؟ ! لماذا تضطرنى الى مصارحتك بهذا ؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ أعنى الى حين . حتى تفرج . لن يضيق البيت بى ، أم تريدين أن تطردينى ؟ ! . وسوف ألتقط رزقى ما وجدت اليه سبيلا . ولكن هبى أياما انقضت دون أن أجد عملا فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعا . وعلى أية حال سأقاسمك رغيفك حتى أجد عملا !

وتنهدت فى يأس . انها حيال مشكلة حقــا ولا تدرى ماذا تفعل . وأخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطالة والكسل والتسكع خاصة اذا فتر تأثره بموت أبيه فقالت برجاء :

ـ أرجو أن تبحث بجد واخلاص عن عمل ..

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

ـ أعدك بهذا ، وأقسم لك بقبر والدنا .

وثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعه الأليم .. وهزتهم « قبر والدنا » هزة عنيفة ، فأجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره ، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب . ولبثت الأم صامتة مليا تكابد جرحا عميقا ، ولكنها لم تنس ـ حتى فى هذه اللحظة ـ انها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ، فرددت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفارهما بين أبنائها ثم قالت :

ـ أما نفيسة فتحسن الخياطة ، وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست أرى بأسا فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة .

وهتف حسن بحماس :

ـ عين الصواب ..

ولكن حسنين صاح بغضب وقد أصفر وجهه غضبا :

ـ خياطة ؟ !

فأجابه حسن معترضا :

ــ ما عيب الا العيب ، فلتكن ..

فقال حسنين بحدة :

ــ لن تكون أختى خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة .

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

ــ أنت ثور ، تأكل وتنـــام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

ــ اخرس ..

فنفخ دون أن ينبس بكلمة . ورأت الأم أنهـــا فرغت من معارضته فالتفتت الى حسين ، فالتقت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

ــ اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله .. !

فقالت الأم بتأثر :

ــ ما عيب الا العيب كما يقول حسن . لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام ، ولا حيلة لى ..

وساد صمت مؤلم . وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه فى صبرها وعقلها واخلاصها للأسرة . وقد تألم كثيرا لمصير أخته ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح أوحت به الضرورة . وشعر فى ألمه بأنه تعلم فى هــذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته كلها . أما نفيسة فسكتت مغلوبة على أمرها . ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معا . وكانت الخياطة هويتها وملهاتها ، فلم يبق الا أن توطن النفس لقبول الأجر . لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد بعده شيئا . ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة :

ــ من المؤسف حقا أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها فى المدرسة . تصوروا لو كانت أختنا مدرسة الآن !

وحدجوه بغرابة فأدرك أنه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدرى . أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية ؟!. وقطب مغيظا وقال :

ــ التعليم ينفع أمثالها ممن لا حيلة لهم . . .

٧

وفى صباح اليوم التالى مضت الأم الى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء . ولما علم هنالك أنها أرملة المرحوم كامل على افندى أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا فى خدمتها . وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على اجراءات اثبات الوراثة . وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء الى ادارة المستخدمين . وتبين أن المرحوم خدم الحكومة حوالى الثلاثين عاما فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واستحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته . لم تكن المرأة تتصور هذا ، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة من معاش المتوفى ، ولكن الذى أفزعها حقا هو ما قيل عن الاجراءات الطويلة التى تسبق صرف المعاش ، والتى تستغرق أشهرا طوالا . هالها الأمر فلم تملك أن قالت :

ــ وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار ؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه :

ــ نحن لا نملك الا هذا المعاش المنتظر ؟

وندم حسن على قوله عقب القائه مباشرة لأنه بدا غريبا من شخص فى مثل طوله ورجولته ، ولكن الموظف قال دون أن يلقى بالا الى هذا :

- أعدك يا سـيدتى بألا نضيع دقيقة واحدة بلا عمل . أما اجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها ..

ما جدوى هذا الكلام الطيب ؟. ولكن أية فائدة تنتظرها من التذمر والشكوى ؟!. وغادرا الوزارة فى شـبه ظلام من القلق واليأس . وهتفت المرأة :

- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر ؟! .. وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك ؟!

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضـيق . ولاح لعينى المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت :

- سأزور أحمد بك يسرى . انه مفتش عظيم نافذ الكلمة ، وكان صديقا عزيزا لأبيك ..

فقال حسن بأمل :

- رأى حسن . أن كلمة منه تغير اجراءات الحكومة .

فنظرت اليه باهتمام وقالت :

- لا تضيع وقتك معى . لعلك تدرك حالنـا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر ..

وعادت الى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام ، تقوم على جانبه الفيللات الأنيقة والعمارات الحديثة . واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلت على فيللا البك . وكانت بناء جميلا مكونا من دورين تحيط به حديقة مونقة . وذكرت للبواب صفتها « حرم المرحوم كامل افندى على » فعاد اليها مسرعا وقادها الى بهو استقبال فاخر موصول بفراندة كبيرة ، ثم أخبرها أن البك قادم بعد ارتداء ملابسـه . وخيل اليها أن فترة الانتظار قد طالت ، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسـود عن وجهها . وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس

الذى يكتنفها . بيد أنها كانت كبيرة الرجاء فى هـــذا الصديق العظيم . طالما ذكره المرحوم أمامها بالحب والفخار . وطالما لمست بنفسها أنعم هذه الصداقة فى أقفاص العنب والمانجو تهدى اليهم فى المواسم ، وكان المرحوم يقضى أكثر سهراته فى هذه الفيللا ، وربما فى هـــذا الموضع منها حيث تجلس الآن — وقد ألقت على ما حولها نظرة حزينة — يلعب بأوتار عوده ، ويسمر هزيعا طويلا من الليل . فليس بعيدا أن تغادر هذه الفيللا مجبورة الخاطر . وانها لمغرقة فى أفكارها اذ فتح الباب الداخلى للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض ، وشاربه المفتول بعناية بالغة ، فقامت المرأة فى أدب ، وسلم عليها البك وهو يقول برقة :

— تفضــلى يا ست بالجلوس . شرفتنا . رحمــة الله على زوجك . كان صديقا عزيزا أحزننى فقده ، وسوف يحزننى طوال العمر ..

فاستبشرت المرأة خيرا بهذا اللقاء ، وشكرت له عطفه . وراح البك يحدثها عن الفقيد حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غــريزية فى استثارة عطفه . ثم ســـاد الصمت حينا فأدركت رغم حزنها واضطرابها أن شارب البك وسوالفه مصبوغة ، وأنه يغالى فى العناية بمظهره ، الى ما تطيب به من رائحة زكية عميقة الأثر . ولما تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت :

— جئت مستشفعة بســـعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم . قالوا لى يا ســعادة البك ان اجراءات صرفه تستنفد أشهرا .

فتفكر الرجل مليا . ثم قال :

— لن أدخر وسيلة فى سبيل ذلك ، وسأقابل وكيل المــالية بنفسى .

فأثلج صدرها ارتياحا ، وشكرته ، ثم ترددت لحظات وقالت :

ـ الحال يا بك تستدعى السرعة ، والله المطلع .

فقال الرجل باهتمام :

ـ طبعا ، طبعا . أنى فاهم كل شىء . هل أنت فى حاجة الى مساعدة ؟ !

يا له من سؤال !. انها لا تملك الا جنيهين هما ما تبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم ، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما استحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة . ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة ؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل ، وانه لموقف يستوجب أن يألفه المرء حتى يخرج منه بطائل . وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض :

ـ أحمد الله على الستر . بوسعى أن أنتظر قليلا ..

وارتاح البك للجواب . لقد انزلق الى السؤال متأثرا بالحياء والذوق . ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه ، ولا لأنه يكره أن يمد يد المساعدة الى أرملة صديقه ، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شىء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته . كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة . ولكنه كان على استعداد للبذل لو سألته المرأة اياه . وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة . ولعله كان صديقا من أصدقاء الدرجة الثالثة . كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له ، أو صديقا كسائر البكوات والباشوات . ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش ، اكراما لذكرى الراحل ، وتفاديا من التورط فى مساعدتها ، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام . ولما خلصت الى الطريق تنهدت فى أمل ، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم : « لو أوتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة أنا فى أمس حاجة اليها .. » .

٨

وخلا حسين وحسنين لنفسيهما أول مرة بعد الوفاة . كانت نفيسه فى المطبخ والأم فى وزارة المعـارف سعيا وراء همومها الجديدة ، وحسن لا يعلم بمكانه الا الله ، وكان حسين متربعا على فراشه ، والآخر جالسا الى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلما فى نرفزة ويقول :

ـ يبدو أن الحياة لم تعد تطاق . .

وانتظر أن يتكلم حسين ، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع اليه بصره فى حنق . كان حسنين آخر عنقود الأسرة فلم يكن غريبا أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين . وضاق صدره بصمت أخيه فسأل :

ـ ما رأيك ؟

فتساءل حسين متجاهلا :

ـ فيمه ؟

ـ فيما قالت ! أتحسب حقا أن حالنا بهذا السوء ؟

فهز منكبيه قائلا :

ـ ولماذا تكذبنا ؟

فتألقت عينا الفتى ببريق أمل وقال :

ـ كى تكسر من حدتنا . كى نخاف ونتئد . وليس هذا عجيبا فالشدة مركبة فى طبعها ، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح !

فقال حسين بحزن :

ـ ليتنا ما عرفناه قط !

ـ ماذا تقول ؟

- أقول ليتنا ما عرفنا التدلل أبدا ، اذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضى علينا بها !

فقال حسنين وقد ساوره الخوف :

- اذن فأنت تصدق ما قالت !. أحقا لم يترك والدنا شيئا ؟ ألا يسد المعاش نفقاتنا ؟

فتنهد حسين قائلا :

- انى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنين فى جزع :

- كيف نطيق هذه الحياة ؟

فارتسمت على شفتى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك أخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال :

- كما يطيقها الكثيرون . أم حسبت الناس جميعا يحظون بأب كريم ورزق موفور ؟!. ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلأ حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه أخيه وهتف به :

- لشد ما يحنقنى برودك ..

فقال حسين مبتسما :

- لو جاريتك فى عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

- ان من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها !

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعابة :

- هلم نثر عليها . دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط هور .

- ألم تفدنا ليسقط هور ؟!

- هيهات أن تفيدنا الأخرى !

وقطب حسنين فى كدر وتساءل :

- من لنا الآن ؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت أنفه الذى بدا فى تلك اللحظة شبيها بأنف أمه الغليظ ، وقال باقتضاب :

ـ الله .. !

وزاد الجواب من حنقه ! انه لا يشك فى هذا ولكنه لا يقنع به . الله للجميع حقا ولكن كم فى الدنيا من جائع ومصاب !. لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف فى خوفه على سبيل محسوس للطمأنينة . وتوهم أن أخاه يحرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال :

ـ لقد شاء أن يأخذ والدنا ويتركنا بلا معين !

فقال حسين وكأنه يمعن فى اثارته :

ـ هو المعين ...

فانفجر حسنين قائلا :

ـ ان هدوءك الكاذب لا يجوز على .. أأنت مطمئن حقا ؟!

فأصغى حسين اليـــه فى امتعاض وألم ، ثم قال ولعله كان يدارى عواطفه :

ـ المؤمن لا تخونه طمأنينته ...

ـ انى مؤمن وقلق معا !

فقال حسين فى غير ايمان حق بما يقول :

ـ هذا من ضعف الايمان .

فقال حسنين بحنق :

ـ أوه ، ليكن ! انى أعرف تلاميذ يجاهرون بالشك !

ـ أعلم هذا .

ـ هم أذكياء ومطلعون .

ـ أتحب أن تفعل مثلهم ؟

فقال فى خوف :

ـ كلا . لست من هواة الاطلاع . أنت نفسك تقرأ كثيرا !

فقال حسين مبتسما :

ـ هذا حق ولكنى لم أنتزع الله من قلبى . والحق اننا نغالى

فى تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة . ألا ترى أن الله اذا كان مسئولا عن موت والدنا فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه ...

وشعر حسنين أن تطور الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف ؟ أى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله أنى كنت شارعا فى تعلم الملاكمة !

فقطب حسين قائلا :

ـ تحام ما يؤلم أمنا . اذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدها فلا أقل من أن نريحها من منغصات لا داعى لها . واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أخوال !

ـ لا أعمام ولا أخوال ! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خياطة !. رباه ما عسى أن يقول الناس عنا ؟!

وضاق صدر حسنين ، وغلبه الحزن ، ووقعت لفظة «خياطة» من نفسه موقعا مؤلما ، فقال بغضب :

ـ نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائما وغادر الحجرة .

٩

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شىء ، وهيهات أن تخفى خافية عن أعين التلاميذ . وكانا يعانيان من هذا شعورا مؤلما وان تباينت درجة ألمهما . ولم يكن قد علم بالوفاة الا قليل

فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليهما معزين . وقال أحدهم محذرا :

— يجمل بذويكما أن يحسنا اختيار الوصى عليكما ، فاننى لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبى حتى ابتليت بوصاية عمى !

الوصى ! وتظاهر حسين بالاصغاء الى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعى المبذولة لضم الصفوف ، ولكنه سمع حسنين وهو يجيب صاحبه قائلا :

— نحن مطمئنون الى الوصى كل الاطمئنان . .

فقال محدثه :

— انى أغبطكما على حظكما ، بيد أن الأمر يتوقف على نوع التركة ، فاذا كانت أراضى زراعية تيسرت سبل الخداع ، واذا كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى بعض الشىء ، أو هذا ما تقول أمى . .

فقال حسنين بهدوء :

— من حسن الحظ أن تركتنا عقار !

وأصغى اليه حسين فى غيظ . لم يحنقه الكذب فحسب ولكنه أشفق من عواقبه . « كيف نواجه الحال الجديدة اذا ظن بنا الاخوان اليسار ؟ ماذا نفعل وماذا نقول ؟ . . انه يكذب بلا مبالاة . سحقا له ! » وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه الفتى فى تذمر . ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسنين فى تأثر قائلا :

— قيل لنا انه مات فجأة . ومن عجب أنه لما رآنى خارجا الى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه ، وقبل أن يتوفى بساعة واحدة ، وضع يده على منكبى ورنا الى فى حنان وقال لى بلا داع ظاهر « مع السلامة . . مع السلامة ! » . .

فمن كان يدرينى أنه يودعنى !؟

لم يكن شىء من هذا قد حصل ، ولا يدرى كيف قاله ،

والأعجب من هذا كله أنه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقا . وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة فى تبجيل والده . وعجب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام ، ونحى وجهه جانبا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى اليه وحياه ثم قال :

ـ أرجو أن تعفينى وأخى من الاشتراك فى نادى شبرا ..

ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس ، وأزعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسنين ـ جناح الفريق الأيمن ـ فقال معترضا :

ـ لعل أمرا ضايقكما !

فقال حسين بتأثر :

ـ توفى والدنا !

فوجم الرئيس مليا ، ثم عزاه برقة ، وصمت لحظات ثم قال :

ـ ألا ترى أن هذا لا يدعو الى حرمان النادى من عضوين بارعين مثلكما ؟

فقال حسين بلهجة خاطفة :

ـ ان الحداد يقضى بهذا !

فقال الفتى باشفاق :

ـ ان الحداد لا يتعارض مع الرياضة !

فقال حسين باشاً :

ـ ان ظروفنا تقضى بهذا . انى آسف !

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحامية النظر الى عينيه ، وانضم الى أصدقائه . ووجدهم يتحدثون فى السياسة ، وكان أحدهم يقول :

ـ رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم !

فقال آخر :

ـ لا بد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى يفهمها الانجليز ..

فقال ثالث :

ـ لم يضع الدم الطاهر عبثا ، ألم تسمعوا عن الدعوة الى الاتحاد ؟

ـ وهذه التيمس تلمح الى المفاوضة ..

ودق الجرس فاتجهوا الى الفصول وهم يتناقشون ...

١٠

قطعا فناء البيت فى صمت حاملين كتبهما ، ثم قال حسنين وهما يرتقيان السلم :

ـ عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا فى التمرين استعدادا للمباراة القادمة !

فلاذ حسين بالصمت . وجعل يتخيل الملعب واللاعبين ، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينبىء الآخرين بانفصالهما « لظروف الأسرة الجديدة ! » . لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة . وطرقا الباب ثم دخلا . وتسمرت أقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه . رأيا أثاث البيت مكوما فى الصالة فى اضطراب شامل وقد رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة وفكت الدواليب ، ولاحت الأم ونفيسة مشمرتين يعلوهما التراب ويتصببان عرقا على لطافة الجو . وهتف حسنين :

ـ ماذا حصل ؟

فقالت الأم :

ـ سنترك الشقة .

ـ الى أين ؟ !

ـ الى الدور التحتانى . سنتبادل السكن مع صاحبة البيت : شقة أرضية بمستوى الفناء الترب ، لا شرفة لها ، ونوافذها

مطلة على عطفة جانبية تكاد تبـدو منها رءوس المـارة ، وطبعا محرومة من الشمس والهواء ، وتساءل حسنين فى امتعاض ولو أنه كان يعرف الجواب مقدما :

ــ لمـاذا ؟ !

فقالت الأم بصوت واضح :

ــ لأن ايجارها ١٥٠ قرشا !

فقال الشاب متذمرا :

ــ فرق الايجار أقل من ٥٠ قرشا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين !

فسألته الأم ساخطة :

ــ هل تتعهد بدفع هذا الفرق التافه ؟

ــ لماذا رضينا اذن بأن تشتغل نفيسة خياطة ؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به :

ــ كى نأكل ، كيلا تموتوا جوعا !

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضه وسأل أمه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض :

ــ متى تم هذا يا أماه ؟

فقالت المرأة وهى تمسح جبينها بكم ثوبها الأسود :

ــ عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفيـة شيئا من حالنا ، فأظهرت روحا طيبا ووافقت بلا تردد .

فقال حسنين فى استياء :

ــ لو كانت ذات روح طيب حقا لنزلت لنا عن فرق الايجار مع ابقائنا فى شقتنا !

فقالت الأم فى حدة :

ــ للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك !

ــ وكيف ننام ليلتنا ؟

فقالت نفيسة بصوت كسير دل على أنها لم تفق بعد من صدمة الوفاة :

ـ سننام فى الشقة الجديدة .

وخرج فى تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهى آخر ما بقى من الأثاث فى الحجرات وقال بسرعة :

ـ كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث الى الدور التحتانى فليس بيننا وبين الليل الا ساعتان .. وأراد أن يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبة من جانب وخاطب حسين قائلا :

ـ ارفع ...

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل ، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط فى السلم بحذر : ترى هل يراهما أحد من أسرة فريد افندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث ؟ ! . « ليس الفراق شر ما فى الموت . ان الفراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير فى الحزن . لشد ما نتغير ونتدهور ، ولكن ينبغى أن نصبر أو فى الأقل أن نتظاهر بالصبر . أكبر جريمة فى نظرى أن نضاعف بجزعنا شقاء أمنا . سأخاطب حسنين بحزم أكثر ! » ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث . ولم يستطع حسنين أن يقف متفرجا فانضم للعاملين . وما زالت الأسرة فى نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت . وكانت صاحبة البيت قد أخلت الشقة وجمع أثاثها فى الفناء الى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم فى العمل . وكانت الأسرة جميعا ـ الصامت منهم والساخط ـ سواء فى الحزن والألم . ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته ، أما نفيسة فابتلت عيناها بالدموع . واشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهده أمه فلا تلحف فى تأنيبه على تعطله . وكان أقل الأخوة تأثرا للتغير الذى قلب الأسرة كما

ينبغى لرجل ذاق التشريد وألف التسكع . وهمس حسنين فى أذن حسين وهو يلهث من الجهد :

ـ ألا ترى أن خسارتنا بموت أبينا لا تعوض أبداً ؟ !

وانسابت من عينيه دمعتان .

١١

غادر حسن البيت مبكرا ، عقب خروج شقيقيه للمدرسة . لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر ، ولكنه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصبحها بنقار هى فى غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن وتجهم الحظ . انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا أمل . «ابحث لك عن عمل ! لا تفتأ تردد على مسمعى هذه الجملة . أين يوجد هذا العمل ؟ صبى بقال ؟ ! . هذا معناه الاسعاف ثم البوليس . » ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله . كان كبير الثقة بنفسه ، وكان فى طبعه تفاؤل لا يدرى من أين يأتيه . ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا « يا أبا على ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى اليه . حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار ، وتتحمل فى سبيله السب واللعن ، ولكنه كان على أى حال رزقا مضمونا . هذه البدلة التى تجعل منك أفنديا لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه . أجل أبى أن يبتاعها لك بادىء الأمر ولكنك هددته بأن تمشى فى الطرق باللبـاس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسرى شبه عار ، فأذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك . الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسـأل عن صحتك الا الشرطى ! » . كانت البدلة حسنة وان لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة . وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص

فى حال لا يحسد عليها . وكان شعره أعجب ما فيه فقد تركه حتىغزر واسترسل ، وتصاعد فى جعودة جعلت منه رأسا مستقلا فوق الرأس الأصلى . أما وجهه فكان حسنا كشقيقيه الى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام . سار متفكرا فيما خاطب به نفسه ، ثم واتته ثقته بنفسه فجأة فقال « يا سيدى لا تسمح للهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب الا البهائم من عباد الله . سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها . لم أسمع عن انسان مات جوعا . الأغذية تسد الطرق سدا . ولست طماعا فما تريد الا اللقمة والسترة وكم كأسا من الكونياك ، وكم نفسا من الحشيش ، وكم امرأة من النساء ، وكل أولئك متوفرة بكثرة ، أكثر من الهم على القلب . توكل على الله ولا تحمل هماً » ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه ، وخرج منها بأربعين قرشا لم يعلم بها أحد . وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته ؟ « كلا لو نزلت عنها ما أفادت أمى منها نفعا مذكورا ، ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه . لا أدرى متى يتاح لى الحصول على مثلها ! » وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادتين فحث خطاه حتى انتهى اليها . هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة الا وجودها على الطريق العام . ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة الا زبونان جلسا الى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة ، على حين قبع فى ركن بالداخل شبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس ، فلم يكن عجيبا أن يقصدهم الشاب وينضم الى مجلسهم . وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى . وكان كل منهم يمنى نفسه بأن يربح رزق يومه ــ خمسة قروش فوق الكفاية ــ من رفقائه . بيد أن حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينيه من ناحية أخرى . لهذا قال أحدهم قبل البدء فى اللعب :

ــ لا نريد غشا .

فقال حسن :

– طبعا .

فقال الشاب :

– فلنقرأ الفاتحة ..

وقرأوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دورا ، وربح حسن دورين . فكان صافى ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة . واقترح بعضهم أن يمدوا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما أن رآه حسن حتى نهض قائما ، وأقبل نحوه فى احترام وسرور وهو يقول :

– صباح الخير يا أستاذ على صبرى .

فمد له القادم يده فى حركة تشى بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

– صباح الخير ...

وجلسا الى مائدة متقابلين . واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب :

– ونارجيلة ...

وغاص قلب حسن فى صدره أن يلزم بدفع ثمن النارجيلة أيضا فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ الى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى فى منتصف عقده الثالث ، متوسط القامة نحيل العود ، صغير القسمات ، أما شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن ، الى سوالف تزحف حتى منتصف خده . وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بنفخة كاذبة وغرور غير محدود .

قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه :

– لم نسمع صوتك من زمان !

وكان أذاع مرات من المحطات الأهلية وبدا وكأن الحظ يبتسم

له ، فلما ألغيت المحطات الأهلية وأنشئت محطة الاذاعة الرسمية حيل بينه وبين احياء الحفلات ، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء . وكان حسن أحد أفراد تخته المعطل ، وطبيعى أن العمل لم يكن يدر عليه أكثر من قروش فى الحفلة ، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و « حقارته » ! وقال الأستاذ :

ـ سأبدأ نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

ـ نحن رجالك ، وفى الخدمة دائما ..

فهز الأستاذ رأسه فى رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة الا اذا خاطبه أحد أفرادتخته المتسكعين ، خصوصا حسن ، ذلك الشرس الجبار ، الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا ، ثم قال :

ـ طبعا . انك تردد ترديدا حسنا ، وصوتك لا بأس به ..

فانطلقت أسارير حسن فى بشر وقال :

ـ ولقد حفظت كثيرا من الطقاطيق ...

ـ مثل ماذا ؟ !

ـ اللى حبك ، ظالمانى ليه ، لما انكويت بالنار .

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال :

ـ ان محك الفن الدور والليالى . ماذا يسمع الآن فى الراديو ؟ . لا شىء . هذا زعيق فارغ وليس بغناء . ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب . وعبد الوهاب نفسه ، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل ، ويشطره أجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد ، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات . اليك كيف غنى « يا ليل » فى الحفلة الأخيرة ...

وتنحنح ثم راح يغنى يا ليل مقلدا عبد الوهاب . وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن يمسك عن

الغناء حتى انتهى ، وحينذاك هتف رفاق حسن « الله . الله .. » ، فأخذ نفسا من النارجيلة دون أن يلتفت اليهم ، ثم قال لحسن همسا :

- هذا اعجاب بالصوت لا بالفن . اسمع هذه الليالى فى نفس واحد كما كان ينبغى أن تغنى ..

وأنشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض . وانتهى الأستاذ على صبرى ، وعاد الى النارجيلة وفى نيته أن يشكر فى هذه المرة للرفاق استحسانهم اذا أبدوه ، ولكن ساد الصمت فلم يسمع الا قرقرة الماء فى قنينة النارجيلة ، وقطب الأستاذ وقال فى ثقة :

- هذه أصول الفن ..

فقال حسن بحماس :

- لا شك فى هذا ..

فقال بلهجة الناصح :

- مرن صوتك . لا تكف عن التمرين . أكثر من الليالى . ولا تن عن مص السكر النبات ..

- يا سلام !

- مفيد جدا . ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة ، وهو ما كان يفعله سلامة حجازى ..

فضحك حسن وقال :

- ولكنى أنام عادة قبيل الفجر ..

- أذن قبل النوم .

- فى مسجد ؟ !

- المهم الأذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد ، فى حانة ، كيفما اتفق !

ـ واذا كان الانسان من غير مؤاخذة سكران أو مسطولا ؟

ـ يكون أفضل . فما تستطيعه وأنت غائب عن وعيك تستطيع أضعافه وأنت صاح ..

ـ عظيم ..

ـ ينبغى أن نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا ..

ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسأله :

ـ ماذا كنتم تفعلون ؟

ـ كنا نلعب الكومى ..

فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :

ـ هلم نجرب حظنا ..

ونهض الرفاق وأقبلوا نحوهما بلا تردد ، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا ، بيد أن حسن كان قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب . « ما عسى أن أصنع مع ابن القديمة هذا ؟ اذا كسبت أغضبته واذا خسرت ضاع اليوم هدرا ؟! » .

١٢

ـ لا أدفع مليما واحدا أكثر من الثلاثة الجنيهات .

قالها تاجر الأثاث وهو يلقى نظرة أخيرة على فراش المرحوم . ولم تعد تجدى مساومة الأم . وكانت قد أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يثيره وجوده من الأحزان ، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة الى نقود . وكانت ترجو له ثمنا أكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح الى النقود ، ولكنها لم تجد بدا من الاذعان فقالت للتاجر :

ـ غلبتنا سامحك الله ولكننى مضطرة للقبول ..

ودفع الرجل اليهـا بالجنيهات الثلاثة وهو يشـهد الله أنه المغلوب ، ثم أمر تابعين بحمل الفراش .

واجتمعت الأسرة فى الصالة تلقى نظرات الوداع على فراش فقيدها المحبوب . وتمثل الراحل لهم فكأنهم يرونه رؤية العين ، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت فى البكاء وأطبقت الأم شفتيها كاتمة آلامها . كانت تحرم على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن تظهر بمظهر الرجولة . ولو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصـة للتنفيس عن حزنهـا بما جبهها من هموم العيش وأثقاله ، ووجدت نفسها فى الغالب مضـطرة الى تناسى أحزان القلب لتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء . « يحز فى نفسى ألا أجد فراغا للحزن عليك يا سـيدى وفقيدى . ولكن ما الحيلة ؟ . حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء » . ولم يكن حسنين يتصور أن يفرطوا فى مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر فى الاعتراض . والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد . ومضى التاجر بالفراش وأغلق الباب .فساد الوجوم حينا ، وأرادت الأم أن تبدد سحابة الحزن التى أظلتهم فقالت مخاطبة حسـين وحسنين :

ـ هيا الى حجرتكما للمذاكرة ..

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال :

ـ لن أسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبى ..

فقال حسن مؤمنا على قولها :

ـ وما من فائدة ترجى من بيعها ..

وساد الصمت حينا ، ثم قال حسن مستدركا وكأنه يواصل حديثه :

– وفضــلا عن هذا فلن ينقضى وقت طويل حتى تشــتد حاجتنا الى الملابس !

فتساءلت نفيسة فى ارتياع :

– أيمكن أن تستعملوا ملابس أبى ؟ !

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض ، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت :

– ما فى ذلك من ذنب . وليس فيه ما يسىء الى المرحوم ، بل لعله مما يطيب ثراه . ولكنى سأحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة اليها حقا ..

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

– نطقت عن حكمة . وانى أذكرك بأنى الوحيد الذى لا أكاد أختلف طولا أو عرضا عن المرحوم أبى .

وتنــاسى الشقيقان الحزن الذى ران على صــدريهما فقــال حسنين محتجا :

– انى وان كنت أطول منك قليلا الا أنه يمكن مد ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

– أو ثنيها مرة أخرى ..

فقالت الأم فى ضيق :

– لا داعى للنزاع . توجد أكثر من بدلة فى حال لا بأس بهــا وسأوزعها تبعا للحاجة اليها ..

ثم بلغ المسامع طرق على الباب فقطع عليهم الحديث ، وخفت نفيسة اليه ففتحته ، فدخلت خادم فريد أفندى محمد حاملة سلة مغطاة بغطاء أبيض وضعتها على السفرة وهى تقول :

– ستى تسلم عليك يا ستى وتقول ان هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت . واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها الشهى الى الأنوف . ولم يكن تهيأ للأسرة طوال

الأسبوعين المنصرمين طعام شهى لما أخذت به الأم نفسها من الحذر والتقتير . ولاحت الرغبة فى أعين الأخوة . ولكن الأم كانت تتجهم لها الخواطر ، والحقيقة أن تلك الأيام لم تكن تضمر لها خيرا ، وحتى خيرها لم يخل من نكد ، وبدا التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول :

ــ هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدى ما يماثلها عقب العودة من القرافة ، فما العمل ؟!

وجد الاخوة خيبة ، وأراد حسين أن يخفف عن أمه فقال :

ــ فلنعد الهدية الى أصحابها شاكرين !

فقالت الأم فى حيرة :

ــ يعد مثل هذا العمل معيبا لا أثر للمودة فيه ..

فقال حسن متحمسا لقول أمه :

ــ بل يعد سلوكا عدائيا ..

وتناول فطيرة ، وشمها ثم قال باستهانة :

ــ لا تحملوا هما . انما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها ، فاذا مات فريد أفندى بعد عمر طويل أهدينا الى أسرته سلة فطائر ، ولن يعجزنا صنعه وقتئذ باذن الله .

وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ثم مدا يديهما الى السلة ، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم ..

١٣

جلست نفيسة على الكنبة فى الحجرة التى تنام فيها مع أمها مكبة على ماكينة الخياطة ، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة . كانت الأم فى المطبخ ، والشقيقان فى المدرسة ، أما حسن فحيث لا يدرى أحد . وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأكبر مر اللوم ، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى

الوضع التى هى فيه . لا يؤمن أحد بأنه جاد ـ كما يقول ـ فى البحث عن عمل ، ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين . ولم تعد الأيام تطالعهم الا بما يسوء ، فاليوم اضطرت الأم الى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرتها فأصبح عليها ـ هى ـ واجبان يوميان أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم ، وأن تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة . وقد مهدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت التى جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها :

ـ هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها ؟

فقالت المرأة بلا تردد :

ـ أبدا يا ست أم حسن . هذا حق وعدل . وهيهات أن نوفى ما علينا من دين لست نفيسة .

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين . وما تذكر أنها وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها . لقد تصاعد الدم الى وجهها الشاحب فكاد ينضح به ، وشعرت بأنها تهوى من عل ، وأنها أمست فتاة أخرى . ليس بين الكرامة والضعة الا كلمة . كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة . وأعجب شىء أنه لم يستجد جديد بالنسبة الى العمل نفسه ، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت ، وامرأة فريد أفندى وابنتها وغيرهن من الجيران . فالخياطة هوايتها ، ولها فيها من البراعة مايجعلها قبلة الجيران والصديقات ، لشد ما تغير شعورها . أحست بالخزى والهوان والضعة ، وتضاعف حزنها على أبيها ، فبكته بكاء حارا ، وبكت نفسها فيه . مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها .

كانت تخيط منقبضة الصدر ، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيما ولى من أيام . وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها اليها

هذا الصباح . أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب ، عقب حديث أمها بيومين ، مما جعلها تظن أنها أرسلتها على سبيل الاحسان ! وقد أفضت بأفكارها الى أمها فانتهرتها قائلة :

ــ لاتسلطى هذه الأوهام على نفسك والا خاب مسعانا جميعا .

ولم تكن تجرؤ على معارضة أمها الى ماباتت تكنه لها من الرثاء فى هــذه الأيام الأخيرة . « ما أغبانى . هل حسبتها راضية عن حالى ؟ انها تكابد حيرة قاتلة وهى أحقنا بالعطف . أن التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الابرة فى قطعة القماش . ما كان أبى ليسمح بشىء من هذا ولكن أين هو ؟ . أن حزنى عليــه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر لذى مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . انى آلم لألمه . لا بد أنه يتألم لنا ، لشد ما كان يحبنى . كأنه يحدس مايرصدنى من شقاء . اضحكى ، ما أحب ضحكتك الى نفسى ، هكذا كان يقول لى كلما تعالت ضحكتى الرنانة . وكان يقول لى أيضا الخفة أنفس من الجمال كأنه يعزينى على دمامتى . لله ما ألطفه وما أعذبه ، لم يكن مثله أحد فى الرجال . مات . مات . لن أنسى ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبة : أبى يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها . أبى ميت وأنا خياطة . عمــا قليل تجىء صاحبة البيت لاضيفة كما كانت ولكن زبونة . كيف ألقاها ؟ بأى عين تنظر الى ؟ . حسبى ، حسبى ، داخ رأسى » . وسمعت أمها تخاطب شخصا فى الصالة فكفت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صــوت تاجر الأثاث وهو آخذ فى مساوماته التى لا تنتهى وأمهــا تحاوره بصــوت ملئه الاشــفاق واللوم . « ليست أمى بلهاء ، وما كانت لتغلب فى مثل هذا الموقف ، ولكنها الحاجة القاسية التى تركبها ، متى يصرف لنا المعاش ؟ لا أدرى ، ولا أحمد يسرى يدرى . هيهــات أن يكفينــا المعاش . خمســة جنيهــات ؟ ! كارثة . جاء الرجل ليحمل المرآة الكبيرة بحجــرة

الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز . وسيأتى غدا وبعد غد حتى يترك الشقة أرضا عارية . لماذا خلقنا أسرى أذلاء للغذاء والكساء والمسكن ؟ هذا سر متاعبنا » . وخفت الى باب الحجرة ففتحته ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرآة الطويلة الى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت أمها على عتبتها . وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرآة قصيرا فحملت المرآة فى وضع مائل ورأت سطحهـا ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحركة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال . وذكرت وهى لا تدرى نعش أبيهـا . واشـتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرآة التى عاشرتها منذ رأت النور . وعادت الى مجلسها . « ينبغى أن تكون المرآة آخر ما أحزن عليه . لن تعكس لى وجها أسر به . الخفة أنفس من الجمـال ! ، هذا قولك يا أبى وحدك ، ولولاى ما قلته أبدا . لا جمال ولا مال ولا أب . كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى ، مات أحدهما ، وشغلت الهموم الآخر . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة ، فى يأسى وألمى ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما أبشع هذا . لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم أو غدا ؟ ! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقـوم بنفقات الزواج ؟ . لمـاذا أفكر فى هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة . سوف أظل هكذا ما حييت » .

ودق البـاب ، ثم جاءت صـاحبة البيت متهللة كعـادتها ، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلسـتا جنبا الى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة ، ولعلهـا حرصـت على الرقة والمودة أكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسـة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتبـاكها وخجلها . ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة فى اظهار مودتهـا آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطه ، وقاست الثيـاب الداخلية ، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضية وهى تقول :

— هيهات أن نوفى دينك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت . وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش . وثبتت عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق . ثم قهرها الحياء والهوان « شيء مؤلم ، ولكن لا ينبغى أن أفكر فى هـذا . ما جدوى وجع الدماغ ؟ روضى نفسك على قبول ما لا بد منه . هذه حياتى ولا حياة لى غيرها .. » وجاءت الأم وهى لا تزال تنظر الى النقود فأخذتها من يدها وسألتها :

— أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده ؟

فغمغمت الفتاة :

— لا أدرى ...

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها بصعوبة :

— أجرة حسنة على أية حال .

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم فى نفسها ..

١٤

ومضت أسابيع . وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت . وكان الشقيقان يجلسان الى المكتب متقابلين ، منهمكين فى المذاكرة ، على حين جلست الأم ونفيسة فى الصالة فى شبه ظلام قانعتين من النور — على سبيل الاقتصاد — بما ينبعث من حجرة الأبناء . وتناجيتا فى صوت منخفض شأنهما كل مساء ، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما . لم تزل الحاجة همهما الأكبر ، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميقين . بيد أن العادة كانت تحدث أثرها الملطف فى تهوين الخطب واساغته ، فلم

يعد التقشف فى الغــذاء مزعجا كما كان بادىء الأمر ، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة ، وتتطلع الى زبائن جدد ، فى شىء من الانكسار وكثير من الرجاء . حتى الشقيقان ، تعودا أن يجعلا من غذاء المدرسة وجبتهما الرئيسية ، وأن يبيتا بلا عشاء فى صبر وجلد . كانت العادة تحدث أثرها ، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة . وفى ذاك المساء جاء فريد افندى محمد وزوجه يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقاداهما الى حجرة الاستقبال .

وكان فريد افندى يرتدى جلبابا ومعطفا ، أما حرمه فقــد التفت بالروب ، وكأنهما فى شقتهما بغير ما كلفة . وجلس الرجل على الكنبة ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثــه الودود فى لطف وايناس . وكانت زوجه ــ ست أم بهية ــ بدينة مثله مع ميل الى القصر ، الا أنها كانت تعد أجمل امرأة فى العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيهــا . وقد قالت تخــاطب أم حسن متسائلة فى لهجة تنم عن العتاب :

ــ لماذا تلزمان البيت هكذا ؟ لماذا لا تروحان عن نفســكما بزيارتنا كما كنتما تفعلان ؟

فقالت الأم :

ــ هجم برد الشتاء وما أن يأتى المساء حتى يركبنا الكسل . أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت ..

فقال فريد افندى :

ــ نحن أسرة واحدة ، وينبغى أن نمضى جل فراغنا معا .

كان فريد افندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهــار . ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبة ومن حوله زوجه وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير ، يسمرون ، ويمصون القصب أو يشــوون أبا فروة . وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته ، ولا تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها . وفضلا عن هذا كله

فقد أقرضها بعض المال لحين صرف المعاش ، ولم يكن يني عن الذهاب الى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال . بيد أنه كان موظفا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة . ولم يرق الى الدرجة السادسة الا حديثا على بلوغه الخمسين . وكانت جيرته للأسرة ترجع الى عهد بعيد . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الأسرتين . وكانت حياة لا بأس بها ، ولا تخلو من ألوان الترفيه . ثم نعمت أسرة كامل افندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم الى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام . واستقبل فريد افندى عهدا جديدا منذ عامين ، فورث بيتا بالسيدة زينب يدر ايجاره عشرة جنيهات شهريا ، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيا أو ما يعد ثروة فى عام ١٩٣٣ . وبات فريد افندى سيد عطفة نصر الله ، وزاد ترهلا على ترهل ، ولولا حرص زوجه على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما وابنهما الصغير لنفذ الرجل ما أراده يوما من الانتقال الى شقة بشارع شبرا .

وتنقل بهم الحديث من واد لواد ، ثم قال فريد افندى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه الى هذه الزيارة :

— يا ست أم حسن ، انى قاصدك فى رجاء ..

فقالت الأم :

— مر يا سيدى ..

— ابنى سالم ، وهو فى السنة الثالثة الابتدائيـة ، ضعيف فى الانجليزى والحساب . وقد رأيت على سبيل الاقتصاد — لأن المدرسين طماعون كما تعلمين — أن أعهد الى حسين وحسنين بالقيام بهذه المهمة ، ساعة كل يوم أو يوما بعد يوم ، هذا رجائى يا ست أم حسن .

وأدركت المرأة أن الرجل يهيىء سبيلا غير ماس بالكرامة لنفح

ابنيها بمصروف شهرى يرفه عنهما . هذا واضح كالنهار وينفق مع ما طبع الرجل عليه من دماثة ورقة . وقالت برقة وحياء :

ـ ان حسين وحسنين ابناك ، وهما طوع أمرك .. !

فقال الرجل بسرور :

ـ فليسعفانى بسرعة اذن ، وليبدءا يوم الجمعة القادم ..

وعادوا الى حديثهم الطويل ، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة . وهرعت نفيسة الى حجرة أخويها حاملة خبرا سارا لأول مرة منذ عهـــد ليس بالقصير ، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الأولى :

ـ مفاجأة !

فرفعا رأسيهما اليها فى استطلاع فقالت :

ـ فريد افندى راغب فى اختيار مدرس لسالم ..

ـ وما شأننا فى ذلك ؟

ـ منكما ؟

ـ لأى مادة ؟

ـ الانجليزى ..

فصاح حسنين :

ـ أنا طبعا !

فقالت مبتسمة :

ـ والحساب أيضا .

فقال حسين وهو يتنهد :

ـ أنا ...

فقالت فى مكر :

ـ يريدكما معا ، وطبعا بالمجان !

فهتفا معا فى سرور وقد أدركا ما وراء كلامها :

ـ طبعا !

١٥

لم يكن ثمة ما يدعو الى ارتداء البدلة فى ذهابهما الى شقة فى نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين . والى هذا كانت أمهما تحرم عليهما ارتداء البدلة - أن يبليها طول الاستعمال - الا للضرورة القصوى . وكان الضحى بسام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو . وارتقيا السلم يملأهما السرور والأمل . ومرا فى صعودهما بباب شقتهما القديمة فألقيا عليها نظرة صامتة ، وانتهيا الى الشقة العليا فوجدا الباب مواربا ووقفا لحظات مترددين . ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكن يده جمدت فى الهواء ورنت عيناه الى الداخل على رغمه . رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شىء بين يديها - لعلها تبحث فى درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان ، وانحسر الفستان عن ساقيها وباطن ركبتيها ، ساقان مدمجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتهما . وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا . وعجب حسين لموقفه فدنا منه فى اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرئب بعنقه فغمرته دهشة ، ولكن سرعان ما ارتد عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنما يقول له « أمجنون أنت ؟ » . ولبثا حينا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب ، وكان المنظر ذر فى شقوق صدريهما الشطة . ومال حسنين على أذن حسين وهمس :

- بهية ...

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث :

- لعلها ...

فتردد حسنين وفى عينيه بسمة شيطانية ثم قال :

ــ ألا تسرق نظرة أخرى ؟

فلكزه فى كتفه ونحاه جانبا ثم اقترب من الباب وطـرقه ، وسمعا وقع أقدام آتية ، وفتح الباب عن وجه جميل ، مستدير ، ممتلىء ، أبيض مشوب بشحوب خفيف ، تزينه عينان زرقاوان صافيتان . وما أن رأت القادمين حتى تراجعت فى خفر . ثم جاء من بعيد صوت فريد افندى وهو يهتف :

ــ تفضلا يا حضرتى الأستاذين الكبيرين !

ودخلا الى الصالة ــ حجرة السفرة أيضاــ فرأيا فريد افندى جالسا على كنبة فى مواجهة البوفيه ، فى جلباب فضفاض ، جعل منه كهيئة المنطاد . وسلما عليه وهو يتصفح وجهيهما باهتمام وترحيب ، ثم نادى سالم ، فجاء الغلام ووقف فى حياء وارتباك ، فقال فريد افندى :

ــ سلم على أستاذيك . أنت تعرفهما طبعا ولكنهما من الآن فصاعدا شخصان جديدان . هما أستاذاك فتأدب فى محضرهما كما تتأدب أمام معلميك . .

فاقترب منهما الغلام فى أدب وهو يغالب ابتسـامة حيال الشابين اللذين لم يألف احترامهما بعد ، وأشار الأب الى حجرة الى يسار الداخل وقال :

ــ حجرة الاستقبال أوفق حجرة للدرس ، وبها الشرفة اذا أراد أحدكما أن يتشمس . .

ومضى الأستاذان الى الحجرة يسبقهما التلميذ ، وبادر الغلام الى الشرفة ففتح بابها ، ثم أغلق باب الحجـرة . وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد افندى أبن فى سنهما فتدعوهما صداقته الى التردد عليها . ووجدا حجرة الاسـتقبال بمنزلة حجرتهما بوجـه عام فهى مكونة من طاقم قـديم ذى كنبتين افرنجيتين وستة كراسى ، ومرآة كبيرة ذات حوض مذهب يحوى

وردا اصطناعيا بيد أن حجرتهما بقيت على قدمها وبيعت مرآتها ، أما هذه فيبدو أن يد النجار قد جددت حشوها وكساءها .

وجلس حسين على كنبة فجاء سالم بكرسى وجلس قبالته واضعا بينهما خوانا صفت عليه الكتب والكراسات ، على حين خرج حسنين الى الشرفة فى انتظار دوره . وجعل حسين يتصفح كراسات الغلام وكتبه ، ثم قال له :

- سأعيد الدروس من الأول شارحا ما يغمض عليك على أن نبدأ فى الدرس التالى بتسميع ما تم شرحه .

وبدأ الدرس فى اهتمام جدى .

ووقف حسنين فى الشرفة مرتفقا حافتها كما كان يفعل أيام كان لهم شرفة . وكان المنظر الذى أثاره لا يزال ناشبا فى مخيلته . الساقان البديعتان ، والوجه البدرى ذو العينين الزرقاوين . نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة . جمال يبهر وأن شابه شىء من ثقل الدم ولكنه لم يترك أثرا سيئا فى نفسه . لا يزال دمه يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق بنشوة المنظر ، ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام . هذه أسطح البيوت المحدقة به وهذه عطفة نصر الله فى أسفل ، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آئبون ، كل أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن بالدم ، متى تعود السكينة الى نفسه ؟ انه يذكر بهية . كان يراها كثيرا وهى صغيرة تحجل فى فناء العمارة . ولكنها أختفت منذ الثانية عشرة ، وانقطعت عن المدرسة أيضا قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية . ولعلها فى الخامسة عشرة ، ولكن كان كأنه يراها لأول مرة . « انى بحاجة الى مثل هذه الفتاة . نذهب الى السينما معا ، ونلعب معا ، ونتحدث كثيرا . وما من بأس فى أن أقبلها وأعانقها . ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى اليه . وحسبى ما صادقت من فتيان فى المدرسة ونادى شبرا . أريد فتاة . أريد هذه الفتاة . فى أوربا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات

معا كما نرى فى السينما . هذه هى الحياة . أما هذه فما أن رأتنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها . وكان أجدادنا يقتنون الجوارى . لو نشأت فى بيت ملىء بالجوارى لعرفت حياة أخرى على رغم أمى وانذاراتها ولكماتها . حتى الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا . ماذا يخبىء لنا المستقبل ؟ أظن أكبر ذنب يؤخذ به فى الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها . أجمل منظر حقـا هو بطن ركبتها . فى وسـطه عضـلة رقيقة مشدودة تشف بشرتها عن زرقة العروق . لو انحسر الفستان قليلا لرأيت مطلع الفخذ . أجمل منظر فى الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها . أجمل من المرأة العارية نفسها . يقولون ان مدرس التاريخ زير نسـاء . متى أجد نفسى رجلا حـرا ؟!. عندنا غدا حصة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية . انكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا أمرك يا رب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الاسلام . » وتابع أحلامه فى نشاط حتى ترامى اليه صوت حسين يدعوه الى درس الانجليزى فغادر موقفه . .

وعند انصرافهما بدت لهما الفتاة جالسة فى الحجرة المقابلة لحجرتيهما ، أما حسين فقد غض بصره فى وقاره المعهود ، وأما هو فقد رنا اليها بنظرة قوية فخفضت عينيها فى حياء .

١٦

ـ كم تظن أن يكون أجرنا ؟

فقال حسين متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ لا تكن شحاذا ثقيلا . .

فقال حسنين بأمل :

ـ نحن ندرس لسالم يوما بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به

فلعله ينقدنا أجرنا أول الشهر ، نينة لا تستبعد أن يعطى كلا منا نصف جنيه وهو مصروف عال ! ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المقصف فى الفسحة ..

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير فى ظلمة المساء المبكرة . وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجىء من يفتحه وهما يطويان فى صدريهما أملا يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق . وجاءت الخادم وقادتهما الى حجرة الاستقبال . كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين فى نهاية الصالة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم وأغلق وراءه الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس . وشعر حسنين بخيبة وملل . وكان أحضر معه كتابا يذاكره حتى يجىء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين . وجعل يرفع بصره الى الباب المغلق بحنق شديد ، ثم تساءل بمكر :

— ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب ؟

وهم سالم بالنهوض ولكن حسين أشار له بالجلوس وقال :

— أغلق الشرفة اذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقا .

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء مكتوم . وضاق بمجلسه فقام الى الشرفة متناسيا أنه كان يقترح اغلاقها منذ لحظات . ووجد حيال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التى كانت مرنقة بصفحة السماء تزيد الظلمة عمقا ووحشة ، لم يكن بالآفاق نجم واحد ، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب ، وخيم على الكون سكون ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه . « حنبلى ، حنبلى . يجب أن يكون رجلا وقورا قبل الأوان . ولا يبدو أنه يريد أن يعاوننى . من يدرى لعلها لو كانت لها أخت لتغير سلوكه . انه كأمه جاد صارم . ينبغى أن أفض هذه المشكلة بالحل الموفق » وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه الى الحجرة . وقال له الغلام :

- تفضل شايا .

ورأى قدحين من الشاى على الخوان فتناول أحـدهما وقد خفف منظر الشاى من توتر أعصابه . وقبل مضى دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلا وبدت بهية !. كانت تحمل السكرية فأعطتها لسالم وهى تقول :

- خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاى من سكر ..

كانت ترتدى فستانا بنيا تكاد تمس أهدابه أعلى القدم فأضفى طوله على قامتها المائلة للقصر ملاحة . وحملق الشقيقان فى وجهها وهى لا تحول عينيها عن الغلام . ثم غض حسين بصره ولما يفق من وقع المفاجأة بينا ظل حسنين يحملق فى وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره . ورأى الغلام يجىء بالسكرية ، وأخذت الفتاة ترد الباب فملأ الجزع قلبه الخافق ، وعز عليه أن تختفى وهو غارق فى ذهوله وجموده ، وطفرت من أعماقه رغبة فى الافصاح لا تقاوم ، فقال بعجلة :

- شكرا . الشاى به الكفاية .. !

وتحولت عيناها اليه فى ارتباك ، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة ، ولعل عينيها نمتا عن ابتسامة مكتومة . وتحاشى النظر صـوب أخيه فحصر بصره فى قدح الشاى . « مفاجأة لم أكن أنتظرها . حلم سعيد . على الرغم من الباب المغلق ! » ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ فى جزع . ولكن سخونة الشـاى لم تغيبه طويلا عما يعانى من اغراء . « جسم لدن . عينان جذابتان . هيهات أن يخفى هـذا الفستان الطويل ما انطبع فى حسى من صـورة الساقين . وبطن الركبة خاصة . لا الفستان ولا الباب ولا الظلام . أعظم واجب فى هـذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها . انى أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق فى وجه حبيبها تستطيع يوما أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة !. هذا التطور

خاصة خليق بأن يبعث بهيج الأمل فى موات النفوس .. أو لعلها العادة ؟!. يجوز . هـذه العادة التى جعلتنا نألف المبيت على الطوى ! كيف يحق لى أن أفكر فى الحب على ما نكابد من قساوة الحياة !. شكرا ، الشاى به الكفاية !. أحسنت بشكرها صنعا . لا يحب طبعى الجبن والتردد . وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر . الفقر ! . لو كان الفقر رجلا لقتلته ! . ولكنه امرأة . تقتلنا ونحن راضون . ترى هل يتألم أبى لحالنا ؟ ترى ما هيئته الآن ؟ لهفى عليك يا أبى . حقا ان الحياة أكذوبة ضخمة . ولكنها جاءت بنفسها بالسكرية !. جاءت لى أنا فى الواقع . أريد أن أكون شارلمان عصرى . لو عدت يوما الى عطفة نصر الله محاطا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها على من الشرفة .. » وما يدرى الا وحسين يقول له :

— دورك ...

اللغة الانجليزية !. وحل محل أخيه ، وألقى درسا ممتلئا عطفا وحبا للغلام الذى يجرى فى عروقه الدم الذى يجرى فى عروقها . ذلك الدم الذى استشفه فى بطن ركبتها . وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولا ، ثم غادرا الشقة معا الى السلم المظلم . ولم يعد يطيق صبرا فقال :

— كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة !

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد :

— حاذر لا تكن وقحا . هذا بيت محترم !

— ماذا فعلت فأستحق هذا التأنيب ؟

— لا تفعل شيئا لا تقدم على فعله اذا كان فريد افندى معنا .

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجى نفسه :

— جاءت بنفسها !. لله ما ألطفها !

— ليس فى هذا ما يعيب ..

— ترى أكلفها أبوها باحضار السكرية ؟

فقال حسين بملل :

ـ من أدرانى بذلك !

ـ أم جاءت من تلقاء نفسها ؟

ـ ليكن هذا أو ذاك .

ـ واذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها ؟

فلم يجبه الآخر وان ظل منتبها لما يقول فى اهتمام شديد ، فعاد حسنين يتساءل :

ـ أو جاءت خفية !؟

فهتف حسين :

ـ خفية ! ؟ .

فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم :

ـ ألا يقولون « من القلب للقلب رسول » ! ؟

١٧

ـ جئت الآن وحدى ، وسيجىء حسين بعدى ، حتى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة !

فقال سالم بأدب :

ـ هذا أفضل ...

واتخذ كلاهما مجلسه ، ولكن حسنين قال قبل أن يبدأ درسه :

ـ الأوفق أن تغلق الشرفة وتفتح الباب !

ونهض سالم فحقق رغبة أستاذه . ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر أمله ، فلا يزال فى الوقت متسع للشاى ، ثم للسكر !. وأراد سالم أن يتودد الى مدرسه بأن يفضى اليه بما فى نفسه فقال :

ـ بابا وماما عند ستى ..

فخفق قلبه بعنف ، ونظر الى الغلام طويلا ، ثم سأله :

ـ متى ذهبا ؟

ـ بعد العصر ...

وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معهما فتساءل :

ـ وكيف تبقى وحدك فى البيت ؟

فقال الغلام :

ـ معى أبله بهية ..

وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل . « الشاى والسكر . السكر خاصة . بل السكرية . سأتحقق اليوم مما اذا كانت تتعمد الظهور أمامى ! » . وأمر الغلام أن يطالع وبدأ الدرس ، وأصغى اليه دقائق ثم مضى يغيب عنه . « هل أطلب شايا ؟ . قلة ذوق ! . ولكن اذا تأخر الشاى فلا بد من طلبه . انى مضطرب أكثر مما ينبغى . اننا وحيدان فى الشقة أنا وهى . لا يخدش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير ، فنحن وحيدان . فلأنعم طويلا بهذه الوحدة الخيالية . لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمت اليها وأخذتها بين ذراعى ، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف لى عن ساقيها . ما الذى يجعلنى أحجم عن رغبة كهذه ؟ . هذا سخف الدنيا الذى قتل أبى وأنزل بنا ما نحن فيه » . وانتبه الى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها ، وأمره أن يواصل المطالعة . وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فاتجه بصره ناحية الباب المفتوح ، ثم رأى صينية الشاى تتقدم حاملها ، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائما كمن به مس . وجاءه صوت رقيق وهو يخطو نحو الباب يقول بصوت بالهمس :

ـ سالم ...

فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثم همس :

ـ ألف شكر ...

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعله لم يتوقع ظهوره ، ثم غضت بصرها فى ارتباك . ومد حسنين يديه فتناول الصينية ، فأطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها ، وسرى مسها فى يده ، وذراعه ، وجسمه ، وروحه ، فى أقل من الثانية . ولم تقف به جرأته عند حد فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية ، فاستخلصت يدها فى استياء ، وفى وجهها عبوسة ، وتحولت عن الباب فى حدة الغضب . وعاد الى الخوان بالصينية شديد التأثر ، ثم جلس على مقعده وهو يقول للغلام فى ارتباك :

ـ استمر ...

« ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج ؟ . ما أقل صبرى ، هكذا أنا دائما . يالها من عبوسة !. عبست وتولت . ان يكن حياء فهو عز المنى ، وان يكن حنقا فلعله الختام . هيهات أن أتراجع . هيهات أن يطيب لى التردد أبدا ، لماذا جاءت بنفسها ؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية ؟ . جاءت لى أنا . هذا واضح . لا داعى للخوف . » . وكان ينتبه الى سالم فى أويقات متقطعة ، ويلقى عليه بعض الأسئلة ، ثم يغيب عنه فى قلق يراوح بين الاشفاق والسرور . ولما أن انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمم على تنفيذها دون تردد . ونهض قائما ، وغادر سالم الحجرة ليوسع له الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على المقعد ، ثم غادر الشقة . ولكنه لم يبرح مكانه بعد اغلاق الباب . وقف يرهف السمع الى خطوات الغلام حتى ضاعت ، وتريث لحظة ثم نقر على الباب . وانتظر وقلبه يثب وثبا من شدة الخفقان . « اذا جاءت الخادم ضاع تدبيرى هباء . ولكن من المحتمل أن تأتى هى . أمرى لله » . وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة ثم فتح الباب . هى . ولم يبال ما ارتسم على وجهها من آى الدهشة ، ولم يضع وقته سدى فتساءل فى رقة واشفاق :

ـ أخاف أن أكون أغضبتك !

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فاها فقال بعجلة :

ــ لا أطيق أن تغضبى أبدا . .

فغمغمت فى استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجه اليها خطابا :

ــ لا ، لا ، لا ، هذا كثير !

ولم يستطع أن يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل :

ــ جاءت ماما ؟

فقال حسنين بصوت مرتفع :

ــ نسيت منديلى فى الحجرة ! . .

وجرى سالم الى الحجرة ، وسارعت الفتاة بالعودة الى الداخل ، ثم جاءه الغلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسى أن يشكره . .

١٨

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأله :

ــ مالك ؟

فضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب ، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى :

ــ أأعطيت درسك ؟

فارتمى حسنين على فراشه وتساءل :

ــ هل أبدو متغيرا ؟

ــ بلا ريب .

فتنهد الشاب قائلا :

ــ يحق لى أن أحمد الله على أن أمنا تجلس فيما يشبه الظلام .

ــ ماذا حدث ؟

هل يخبره بما حدث ؟ . ولكن هل يلقى منه الا زجرا ؟ . قال :

ـ لم يحدث شيء ؟

ـ واضطرابك ؟ !. أنك اذا اضطربت توتر أنفك كالحمار .

قال حسين ذلك ثم تساءل فى نفسه هل يتوتر أنف الحمار حقا ، كيف اختار هذا التشبيه ؟ ولكن الآخر تضاحك قائلا :

ـ هيجان شعور ، هذا كل ما هنالك . . .

ـ وبعد ؟

ـ ولا قبل !

فقال حسين بجد واهتمام :

ـ أريد أن أعرف مقصدك .

ـ لا أفهم ما تقول .

ـ لا تتجاهل ما أعنى أنت تفهم كل شيء . لماذا لا تتركها وشأنها ؟ ألا تخاف أن يفطن فريد افندى الى عبثك أو أن يبلغه أمرك عن طريق الفتاة نفسها ؟ . سترمى بنا الى مركز حرج . .

فقال حسنين مبتسما :

ـ والله يا أخى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها . .

فضحك حسين على رغمه ، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجد والرزانة :

ـ ماذا تريد منها ؟

يا له من سؤال !. يبدو غاية فى البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه ، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابا . كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة الى تفكير . ثم قال فى حيرة :

ـ فى مثل حالتى لا تفريق بين الباعث والغاية .

ـ لا أفهم ما تقول .

ـ ولا أنا بفاهم !

ـ اذن دعها وشأنها كما قلت لك .

ـ لن أزال وراءها حتى . . .

فتفحصه حسين بنظرة كئيبة وتمتم متسائلا :

ـ حتى ماذا ؟

ـ حتى تقع كما وقعت .

ـ ثم ؟ !

فقال الشاب الحائر :

ـ حسبى هذا !

فهز حسين رأسه فى حدة وقال :

ـ أنت مخطىء . انها فتاة مهذبة ، ومن أسرة طيبة ، ولن ترضى عن سلوكك . .

ـ هى ما قلت وأكثر ولكنى لن أتخلى عن أملى . .

وقام الى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد الى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التى تلى فراشه مباشرة ، وجلس متربعا حيالها كأنه جالس الى مكتب ، فسأله حسين متعجبا :

ـ لم لا تجلس الى المكتب ؟

ـ أريد أن أتربع لأدفىء ساقى .

وكان يفكر فى أمر ذى بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وأمسك بالقلم وراح يعمل ذهنه فى اهتمام ووجد واضطراب . « سأكتب لها كلمة . لن تتاح لى فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لى الا هذه . ولكن ماذا أكتب ؟ » . وركز فكره مستعينا بالسكون الذى يغشى الحجرة لا يخدشه شىء الا خشخشة أوراق الكراسة اذا قلبها حسين ، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلل من النافذة المغلقة وانيا من بيت من بيوت العطفة . وقطب متظاهرا بالضجر ولكنه ارتاح الى سماعه هربا من حيرة أفكاره . وأصغى الى « عادت ليالى الهنا » فسلم سريعا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحب والحياة . وغمرته موجة حماس فامتلأ نشاطا وتمنى لو ينطلق

الى الخلاء متلفعا بالظلماء . وجعل يغيب عن النغم رويدا بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى . « يجب أن أكتب كلمتين ، جملتين فحسب ، حتى لا أسود ألا ورقة صغيرة اذا رميت بها عند قدميها لم يستبنها أحد » . وحرك القلم كاتبا : عزيزتى بهية انى آسف جدا لأنى أغضبتك . « أليس الأفضل أن أقول : لا تغضبى يا عزيزتى ؟ .. سيان . ثم ماذا ؟ ينبغى أن أعترف لها بحبى . أريد جملة غير مبتذلة . اللهم عونك . » .

وقطع حسين عليه تفكيره متسائلا :

- ماذا تكتب ؟

- موضوع انشاء .

- ما هو ؟

فقال بلا تردد :

- أثر الموسيقى فى نهضة الأمم ..

عزيزتى بهية ، انى آسف جدا لأنى أغضبتك . أيحق لك الغضب لأنى أحبك ؟ . « يكفى هذا فخير الكلام ما قل ودل . كلا لا يكفى . النغمة ناقصة . أستشهد ببيت من الشعر . كلا فهذا يثير الضحك عادة . وضحكة واحدة خليقة بأن تفوت على الغرض . جملة أخرى مؤثرة . يا رب يا معين ! . » ووثبت الى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب : والله ما فعلت ما فعلت ..

ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلا :

- هل انتهيت من نقط الموضوع ؟

فانزعج حسنين وقال فى غيظ مكتوم :

- تقريبا .. عن اذنك ، لحظة واحدة !

وعاد الى الخطاب فى تصميم من يريد الفراغ منه فكتب : والله ما فعلت ما فعلت الا لأنى أحبك . وسأحبك ما حييت ، ولا حياة لى الا برضاك عنى .

وأعاد قراءتها بعناية ، ثم تنهد فى ارتياح عميق ، وطواها وثنى

طرفيها ثم أودعها جيبه . « سأنتهز فرصة اقترابها من البـاب ، أو مروري بها فى الصالة ، ثم ارمى بها اليها ، وليكن ما يكون » ..

١٩

وجدت نفيسة نفسها فى حجرة متوسطة الحجم ، قامت على جانبيها كنبتان كبيرتان وبضعة مقاعد ، أما أرضـها ففرشت ببساط أسيوطى ، وفى جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطل من الدور الرابع على شارع شبرا . كان الأثاث قديمـا والظاهر أن الحجرة كانت معدة لجلوس الأسرة فى أوقات الفراغ كما يمكن أن يستدل عليه من وجود الراديو بداخلها على كثب من البـاب . وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدماها الشقة أنها على قدر وافر من الجاه يبدو فى الصالة الصغرى التى أثثت كمدخل للبيت ، والصالة الكبرى الفاخرة المعدة للسفرة ، فحق لها أن تصـدق صاحبة بيتهم بعطفة نصر الله حين قالت لها « جئت لك بزبونة ملآنة ، عروس ، ومن أسرة كريمة ، فأرجو أن تخيطى ثيابها بمـا تستحق من عناية علها تفتح لك مغلق الأبواب » . وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتا غريبا للعمل أول مرة . وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر . وكانت ترتدى ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود فى ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق والحسن شاحبا بائسـا . « بيت غريب وأناس غرباء . خطـوة جديدة فى سبيل المهنة . لست الا خياطة . ليست كرامتى التى تعز على ولكن كرامتك أنت يا أبى » . ولم يطل بهـا الانتظار اذ جاءت الحجرة فتاة فى العشرين على حسن ورشـاقة ، فقامت تستقبلها ، وسلمت عليها القادمة وهى تلقى عليها نظرة متفحصة ثم قالت :

- أهلا وسهلا . حضرتك الست نفيسة التى أرسلتك ست زينب ؟

فقالت الفتاة فى حياء :

- نعم يا هانم . وحضرتك العروس ؟

فأومأت بالايجاب مبتسمة ، ثم جلستا ، وهى تقول :

- ست زينب تثنى عليك جميل الثناء . وأنى أتوسم فيك الخير . .

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفتاها دون أن تنبس بكلمة . « لعلها قالت انى خياطة ماهرة . هـذا حسن . أمدح أم ذم ، لا أدرى . ترى هـل قصت عليك نبأ أسرتنا ؟ . كان أبى كأبيك . وكنت سيدة مثلك . وطالما انتظرت العريس ولـكنه لم يأت . ولن يأتى » . وسألت العـروس فى رقة وهى تعلم الجواب :

- لماذا ترتدين السواد ؟

فأجابتها فى حزن :

- توفى والدى منـذ شهرين . وكان رحمه الله موظفا فى وزارة المعارف .

- حدثتنا بذلك ست زينب . البقية فى حياتك .

- حياتك الباقية . نحن من بنها ، وخالتى تقيم هناك مع زوجها الذى يملك محلجا للقطن .

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضـعتها الى جانب سيدتها وذهبت . وحلت العروس عقـدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها . وأدركت نفيسة من النظرة الأولى انها أقمشة للثياب الداخلية . ولعلها أرسلت بالفساتين الى خياطة كبيرة ، وارتاحت لهذا لأنها كانت تشفق من أن تعرض سمعتها لتجربة شـاقة لا قبل لها بها ، عمـل فى حـدود طاقتها وربح

مضمون . وقامت الى مجلس العروس وراحت تتفحص الأقمشة وتتجسسها قائلة :

ـ مبارك عليك . يا له من حرير نفيس .

فافتر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت :

ـ نبدأ الآن بالقياس ، وعلى فكرة أعندك مانع من مباشرة العمل هنا فى بيتنا ؟ عندنا ما تحتاجين اليه من الأدوات كلها ، وليس ثمة أطفال فى البيت ، وفضلا عن هذا كله فبيتنا غير بعيد من عطفتكم فتستطيعين الحضور كل يوم فى غير مشقة .

ولم تر نفيسة بدا من أن تقول :

ـ لك ما تشائين يا هانم ..

وقامت الفتاة ووقفت أمامها ، وجعلت نفيسة تقيس الأقمشة عليها . امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد ، وشعرت لمسه وهو ينزلق بين أصابعها باحساس غريب ، فيه اشتهاء وفيه ألم . بيد أنها أحست كذلك ، حيال استسلام الفتـــاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة ، فكأنها ظفرت بأمل فى العزاء ، ولكنه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأسا قاتما « عروس وحرير . أحقا أخيط هــذه الثياب لهذه العروس ؟ . كلا هــذه الثياب الداخلية تهيأ للعريس قبل العروس ! . ستداعب أنامله أهدابها الناعسة ومادتها اللطيفة . أنى أشارك فى هــذا الزواج . وسأشارك فى زيجات كثيرة دون أن أتزوج ، قانعة من هذا كله بأحلامى المحرقة . يا لها من فتاة مليحة وسعيدة . تكاد السعادة تتوهج فى عينيهـــا ، اليوم تجهز الحرير ، وغدا تنتظر الحبيب ، وتتنسم أنفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من أفق وردى . طالما حلمت بهذا وأبى يقول لى أن الخفة أنفس من الجمال ، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الاشفاق والرجاء ، وبموته مات الرجاء . لماذا خلقت هكذا دميمة ؟ . لماذا لم أخلق كاخوتى الذكور ؟ ما أجمل

حسنين ، وحسين ، حتى حسن ، انى ميتة كأبى ، وهو فى باب النصر وأنا فى شبرا » وسمعت العروس تسألها :

ــ أتحبين أن تتسلمى بعض أجرك مقدما ؟

فقالت بعجلة :

ــ لا داعى لذلك مطلقا .

ثم عضها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها ويأسها . وسمعت أطيط حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرأت شابا يدخل الحجرة هاشا ، وأقبل على العروس فالتحمت يداهما ، وتبادلا ابتسامة سعيدة ، ثم سألها :

ــ أين والدتك ؟

ــ فى حجرتها .

ثم التفتت الى نفيسة وقالت تقدم لها الشاب :

ــ حسان خطيبى .

ثم عطفت رأسها اليه قائلة :

ــ ست نفيسة الخياطة . . .

٢٠

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة . وكانت عطفة نصر الله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ . وأنعشها الهواء البارد فحثت خطاها . ووجدت ذكريات مما مر بها فى بيت العروس تنثال على مخيلتها فى لذة وألم معا : كانت تجلس على كنبة وقد جلس الخطيبان على الكنبة المقابلة . كانا ملتصقين . وكانا يتحدثان فى صوت مسموع حينا . وينخفض حينا فيصير مناجاة وهمسا . وكم ودت وقتذاك أن ترفع رأسها عن الماكينة اليهما ولكنها خافت وعقلها الحياء أن

تلتقى عيناهما بعينيها . ومرة رفعت عينيها من تحت رأسها المنحنى فوقع على ساقين ملتصقتين ، ثم انتبهت على العروس وهى تضربه على يده قائلة فى لهجة تنم على الدلال والوعيد :

ـ حذار !

استغرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمارة ، ثم دخلها احساس نهم بالتحرق الى الحب . لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها ، ولم تجد من متنفس عن توتر أعصابها الا فى الضحك والسخرية من نفسها وأخوتها والناس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذى تتوارى خلفه مرارة فى الأعماق . ولم تكن لها حيلة فى أحساسها فالواقع أن غريزتها الأنثوية كانت الشىء الوحيد بها الذى سلم من النقص والضعف واستوى ناضجا حارا ، فلم يخل صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيتها وكرامتها وأسرتها بالمرصاد . ولكن منظرا كالذى رأته اليوم ببيت العروس كان خليقا بأن يهزها هزة عنيفة قاسية . ولما تخايلت لعينيها عطفة نصر الله عابثها أمل جديد داعبها كثيرا فى الأيام الأخيرة . هنالك بقالة عم جابر سلمان التى تقع قبل عمارتهم بقليل ، أو هناك سلمان جابر سلمان ابن عم جابر وصبيه . ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بكرور الأيام . واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاوى الأسمر ، وعينيه الضيقتين ، وتساءلت ترى هل حقا يبدى نحوها اهتماما أو أنها واهمة ؟ . خيل اليها كثيرا أنه يبتسم اليها فى تردد ولعله لم يستطع أن ينسى بعد أنها كريمة كامل افندى على . وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمات ، أما سلمان فما هو الا ابن بقال بسيط ، ولا تعلو منزلته فى دكان أبيه عن صبى . وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن بوسعها أن تنفر من انسان أيا كان اذا أبدى نحوها ميلا . لا يسعها الا أن تحب من يحبها . بيد

انها ردت فجأة الى فتور وامتعاض وأطبق عليها شبح اليأس القديم ؟ وكان قلبها يقول لها : لا تغررى بنفسك ولا تسمحى لكواذب الآمال أن تعبث بعقلك . ارتضى اليأس ، واقنعى منه بالراحة وهى السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها . ولكنها كانت تعلم أنها لن تطيع قلبها أو - على الأصح - صوت مخاوفها . وكانت تزداد استسلاما كلما قربت من عطفة نصر الله ، وعاودها الأمل والحنان . « الله قادر على كل شيء . وكما يقضى عليها بالأحزان يهب اذا شاء الأمل والعزاء ، ما لى من رجاء سواه . ولن يخيب عنده الرجاء . لم أجن ذنبا أستحق عليه الهوان . ولم تجن أسرتنا ذنبا . فلا بد أن تنكشف هذه الغمة . ولكن من سلمان ؟ هل يرضى به حسنين ؟ انهم جميعا ذوو كبرياء ولا أظن الفقر بغالب على كبريائهم . وحسن ليس له من الأمر شيء . حسن ! ! ليته يغير من طبعه وينتشلنا مما نحن فيه . لا معاش أبى ولا عملى بكافيين فماذا صنع هو ؟ . لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتى من هو خير منه . ومن أدرانى أنه يفكر فى حقا ؟ ! » . ومالت الى العطفة تسبقها عيناها الى بقالة عم جابر سلمان حتى بلغتها . وخطر لها أن تمضى اليها لتبتاع شيئا ، أى شيء ، ومضت اليها دون تردد . كان عم جابر سلمان العجوز جالسا الى مكتبه الصغير عاكفا على دفتر الحسابات ، بينا وقف ابنه الشاب جابر سلمان وراء الطاولة التى تعترض مدخل الدكان . وانتبه الفتى اليها حال وقوفها أمامه فنظر اليها متهلل الوجه وقد لمعت عيناه الضيقتان . كانت قسماته تشى بالغباء والحيوانية والجبن ، وكان شاربه الصغير الشيء الوحيد الذى يمكن أن يتصف بالجمال فى وجهه . وأبى الا أن يبادرها بالكلام فقال :

- أى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقال الفتاة وهى ترمش ارتباكا :

- حلاوة طحينية بقرش .

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافيـــة ، ثم قشط قطعـــة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض :

— هذه الزيادة اكراما لك يا ست نفيسة .

ولف الحلاوة فى ورقة وقدمها لها ، ثم أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفى ، ولمـــا وجده مكبا على الدفتر ، تشـــجع وقال همســـا :

— سأحتفظ بقرشك بركة !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت . ابتسمت عمـــداً كأنها تشجعه وترحب به ، وقد كلفها هذا جهدا كبيرا . « لم يعد يقنع بلغـــة العيون فتكلم ، وحسنا فعل » . وعلى رغم ضآلة شـــأنه ومنظره اهتز قلبها سرورا ، وجاش صدرها بالانفعال . وكانت تخيلت هذا الموقف — قبل أن يحدث — وهى عاكفة على عملهـــا بيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيـــال الا قليلا . تخيلت نفسها واقفة أمامه لتبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش « أنت أحلى من الحلاوة » . حقا لم يقل هذا ولكنه قال قولا يضاهيه . وتنهدت بارتياح ثم طار خيـــالها الى ذكريات عشاقها الغـــابرين ! . كان أولهم وزيرا . وقد رأته فى صفحة من مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشيا من أحلامها حتى أنجبت له غلاما فريداً . وكان فريد افندى محمد نفسه العاشق الثانى ، وبسببه خاصمت فى الخيال زوجه وأسرته . أما سلمان ،فهو أسوأهم حالا ولكنه العاشق الوحيد الحقيقى . ولما بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما ترد عليها :

— كفى عن لومك فما عدت أحتمل أكثر مما بى .

وعلا صوتها ورن فى بئر السلم فنظرت فيما حولها بحـــذر ، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفتيها ! !

٢١

غادر حسنين شقة فريد أفندى محمد ، وأغلق الباب وراءه . كان من الكآبة فى غاية ، واتجه نحو السلم طاويا صدره على اليأس والقهر ولكنه توقف ويده على الدرابزين ، ورفع رأسه متتبعا حفيف ثوب ، فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية الى سطح العمارة . من ؟ ! . من عسى أن يرتدى هذا اللون الأحمر من سكان العمارة الذين يعرفهم حق المعرفة ؟ . ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه الى أعلى فألقى على الباب المغلق نظرة حذرة وأنصت فى انتباه وقلق ، ثم تحول عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشطه متجها صوب السلم الأخير الصاعد الى السطح : لعلها هى . لم يعد يراها منذ ألقى برسالته المطوية تحت قدميها ، لا فى الحجرة ولا فى الصالة . اختفت غاضبة ولاشك غيرعابئة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدها الا عذابا وضجرا . وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتا حتى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب فى مستوى عينيه ، ونسمت على جبينه موجات لطيفة من الهواء ، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سوره المطل على عطفة نصر الله وسوره الخلفى فلم يجد أثرا لانسان ، ولم يكن به من قائم الا حجرتان خشبيتان للدجاج ، احداهما فى مواجهة باب السطح ، والأخرى فى ركن السطح عند طرف السور الخلفى وهى الخاصة بأسرة فريد أفندى ، واقترب من الحجرة البعيدة فى سكون ووقف قريبا من بابها مرهف السمع . ولم يسمع بادىء الأمر الا قوقأة الدجاج ، ثم سمع صوتا يدعو الدجاج «ك ك ك» فلم يستطع أن يتبين حقيقة صاحبه ، وخاف

أن تكون الأم التى بالداخل فتراجع خطوة مضطربا ، وهم بالهرب ، ولكن فتح الباب وبدت على عتبته بهية فى معطف أحمر . واتسعت عيناها الزرقاوان دهشة ، وثبت بصرها عليه فى ذهول ، ثم تضرج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحالت رفعة من مخمل المعطف . ولكن لم يدم هذا الا لحظات ، ثم تمالكت نفسها فجازت العتبة وأغلقت الباب ، وابتعدت عن موقفه متجهة الى الباب . ولم يسمح لها بالافلات فوثب خطوتين ووقف معترضا سبيلها ، فحدجته بنظرة غضبى واستقام رأسها فى حدة وقالت مستنكرة :

- هذا كثير !

فقال الشاب بجرأة ورقة معا :

- دائما غضبى !.. انى أعجب لحظى فما أجد منك غير الغضب!

فلاح فى وجهها الضجر وقالت باستياء :

- دعنى أمر من فضلك ...

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال :

- هذه فرصة لم يكن بوسعى أن أحلم بها فلا يمكن أن أدعها تفلت من يدى . ويحق لى أن أستبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذى عذبنى أشد العذاب ، لماذا تختفين ؟ أو دعينى أسألك ماذا وجدت برسالتى ؟

فقطبت فى استياء وقالت بحدة :

- أتذكر هذه الورقة !. يا لها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها .. !

وكان يرنو اليها بين الأمل والخوف . «هل أصدق هذا الغضب الظاهر ؟.. قلبى يحدثنى بأنه مبالغ فيه . لعله عرض من أعراض الحياء . انه كذلك حتما . لو أرادت أن تشق طريقها ما وسعنى منعها . لا أريد أن أصدق . ولكن لماذا أصرت على الاختفاء ؟ » . وقال باستعطاف :

- جرأة حملت عليها بعد أن أعيانى الصبر !

فهزت رأسها متبرمة وتمتمت :

ـ الصبر ! لا تعبث بهذه الألفاظ ، ودعنى أذهب من فضلك .

فقال فى صدق وحرارة :

ـ ما قلت الا الصدق . والصدق وحده كان محرضى على كتابة رسالتى الصغيرة ، فكل ما بها صدق . وانه ليسوءنى كل الاساءة ألا تلقى عواطفى منك الا الغضب والنفور !

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلا بصوت متهدج :

ـ أجل انى أحبك . . .

وأدارت وجهها جانبا وهى لا تزال مقطبة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفتيها ، ولكنها لاذت بالصمت قليلا ـ مما بعث فيه روحا جديدا من الأمل ـ ثم قالت بصوت بدا ألطف موقعا مما سبقه :

ـ دعنى أذهب . ألا تخشى أن يقتحم السطح علينا أحد ؟ !

رباه ! ألم يعد يضايقها شىء الا أن يقتحم السطح عليهما أحد ؟!

وتمشت فى جوارحه نشوة سرور ، فقال بحماس وعيناه العسليتان تضيئان بنور بهيج :

ـ دعينى أفصح لك عن شعورى . انى أحبك . أحبك أكثر من الحياة نفسها . بل ليس فى الحياة من خير الا أنى أحبك . هذا ما كتبته . وما أقوله وما أعيده . صدقينى ولا تلزمى السكوت فما أطيق هذا السكوت . .

فعطفت وجهها نحوه فطالع فى صفحته النقية الرزانة والجد ولكن خيل اليه أنه يرى نوعا من التأثر لعلها بالغت فى كتمانه . ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس :

ـ حسبك ! . . . هلا تركتنى أذهب ؟!

تأبى أن تجلو هذا القناع !. لشد ما تستكين لحيائها . وتنهد بصوت مسموع وتمتم :

ـ لا أريد أن أعود لعذابى بغير نفحة أمل . لقد فتحت لك

صدرى وأريتك قلبى ولا أطمع فى أكثر من كلمة طيبة ترد الى روحى ...

ولكنها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة ، واشتدت عليها وطأة الارتباك فندت عنها هذه العبارة :

— رباه !... كيف أغادر هذا المكان !

فغلبه التأثر ، ولكن زاده التعلق بالأمل عنادا والحاحا فقال بحرارة :

—لا تجزعى هكذا ؛ انى أحبك . ألا يثير هذا الاعتراف فى نفسك الا الضيق ؟!. لن أعود يائسا الى العذاب . لن . لن ..

— وبعد ؟ !

وتفحص وجهها المورد فى سمرة المغيب الهادئة فاستفزته عاطفة هيام جامحة فشعر بأن الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأعماق :

— كلمة واحدة !. اذا لم تستطيعى فايماءة . واذا تعذر هذا فحسبى صمت أستشف منه الرضى !

فتحركت شفتاها دون أن تنبس ، ثم التصقتا ، ثم عطفت عنه وجهها وقد اشتد تورده عمقا . ووثب قلبه فى صدره من حرارة النشوة ، وهتف فى طمع متزايد :

— أهذا الصمت الذى أريده ؟!.. انى أحبك ، وأعاهدك أن أكون لك حتى الموت ...

ومال وجهها الى الوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتها المحبوب فسرت فى جسده هزة سرور طاغية حتى سكر بصره ، وما يدرى الا وهو يهفو اليها ، ولكنها تراجعت فى جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة ، وتفادت منه فيما يشبه الوثب ، ثم ولت مسرعة . وتسمر فى مكانه مرسلا وراءها بصرا هائما حنونا حتى غيبها الباب . وتنهد من القلب وأطلق بصره بعيدا فى سمرة المغيب ، والأفق أطياف وشيات ، فأحس بروحه تذوب فى الكون

وتغنى فى بهائه . ثم تحـرك فى بطء مخمورا متوهجا حتى شارف الباب ، ولكنه شعر وهو يمر بالحجرة الخشـبية الأخرى بشىء يجذب احساسه فلاحت منه التفاتة الى يساره فرأى أخاه حسين واقفا وراء جدار الحجرة . . .

٢٢

وقال بدهشة :

ــ حسين !

وسرعان ما لاحظ تغير لونه . كان الشـاب غاضـبا مكفهر الوجه . وكان يبذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويتمالك نفسه . وتساءل حسنين عما جاء به الى السطح ورجح أن يكون ــ حين صعد لاعطاء درسه ــ لمحه وهو يرتقى السلم محاذرا الى السطح فشك فى الأمر وتبعه !.. هــذا هو التفسـير المعقول . بيد أن التوارى وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه!.. ولم يدر له بخلد أن يسأله عما جعله يقف هــذا الموقف ، وعلى العكس من هــذا تولاه الحياء والارتباك . ولم يكن الآخر ــ على تغيره ــ بأقل منه حياء وارتباكا . ولعله أراد أن يدارى حياءه وارتباكه بالتمادى فى الغضب فقال :

ــ رأيت أمورا ساءتنى كثيرا . كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة ؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة !

ووجد حسنين فى لهجة أخيه القاسـية ما أنقذه من حيائه وارتباكه فقال عابسا :

ــ ما أتيت منكرا !!. ولعلك سمعت ما قلت !

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة أشد :

ـ وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو غير اللائق ؟!

ـ لا أحسبها تعده كذلك !

فقال حسين :

ـ ستخبر أباها ....

ـ لن تخبره ... !

فتناهى الحنق بحسين وقال بحدة :

ـ لشد ما خفت أن تتهجم عليها ، ولو فعلت لأدبتك تأديبا قاسيا !...

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة الى طرف لسانه ولكنه نجح بأعجوبة فى القبض عليها . وصمت مليا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال:

ـ ما كان لك أن تخاف حدوث شيء كهذا ..

فتفكر حسين قليلا ثم قال متراجعا :

ـ يسرنى على أية حال أن أسمع هذا القول . واذا حق لى أن أنصحك فنصيحتى اليك أن تلزم دائما جادة الشرف .

فقال الآخر ببرود :

ـ لست فى حاجة الى مثل هذه النصيحة ...

وغادر موقفه فتبعه حسين ، ونزلا معا دون أن ينبس أحدهما بكلمة . ولم يذهب حسين الى شقة فريد افندى ، ولاحظ حسنين هذا دون تعليق . أما الأم فقالت لحسين متسائلة :

ـ ما الذى عاد بك سريعا ؟

فقال حسين :

ـ لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود اليه غدا ..

وذهبا الى حجرتهما فجلس حسين الى كرسيه من المكتب ، ومضى حسنين الى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش . « أسوأ نهاية لأحسن بداية : ما أحمقه ! كيف سولت له نفسه

التجسس على . أفسد على شاعرية الموقف السعيد . كلا لا يمكن أن يفسدها شيء . سيزول كل شيء وتبقى هى وضيئة سعيدة باهرة . هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق . قالت كل شيء دون أن تنبس بكلمة ... » .

ـ أغلق النافذة هل أنت مجنون ؟!

أفزعته صيحة أخيه ، ثم ركبه الحنق والعناد فقال :

ـ الجو محتمل ولطيف ..

فصاح به حسين :

ـ أغلق النافذة بلا مكابرة ..

فحملته لهجة أخيه على التمادى فى العناد فقال :

ـ انتقل الى الكرسى الآخر تبتعد عن تيار الهواء ان كان ثمة تيار!

فنفخ حسين متغيظا وقام الى النافذة فأغلقها بشدة ففرقعت فى السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج . وساد صمت ورعب ، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسنين صارخا :

ـ أنت السبب ! .

وجن جنون حسنين فضربه بقبضة يده فى رأسه ، ثم اشتبكا فى عراك . وما لبثت الأم ونفيسة أن هرولتا الى الداخل ؛ وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهينم . ووقفت الأم حيالهما تردد بينهما بصرا غاضبا ، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم . وتساءلت فى هدوء ينذر بالعاصفة :

ـ ما خطبكما ؟

فقال حسنين بعجلة ولهوجة :

ـ كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم لطمنى ..

وقال حسين بصوت متهدج :

ـ فتح النافذة فى هذا الجو البارد فطلبت اليه أن يغلقها فأبى بوقاحة فقمت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل ..

فنفرت الأم قائلة :

- رحماك يا ربى ألا يكفينى ما بى !

وقبضت بيديها على منكبيهما وجذبتهما الى وسط الحجرة ، وصاحت فى وجه حسين قائلة :

- ألا تخجل من نفسك وأنت فى سن الرجال .

ودفعته فى صدره بقبضة يدها مرتين ، ثم لطمته ، وانقضت على حسنين الذى تراجع وهو يصيح :

- هو البادىء بالضرب ، وهو الذى حطم الزجاج ..

ولكنها هوت بكفها على فمه ، ثم كيلت له الضربات على رأسه ووجه حتى حالت بينهما نفيسة . وصاحت المرأة :

- حذار أن أسمع لأحدكما صوتا . أما النافذة فستبقى مكسورة حتى تصلحاها بنفسكما ..

وغادرت الحجرة منكفئة الوجه تملأها تعاسة لا حد لها . ولبثت نفيسة بينهما برهة محزونة ثم تمتمت :

- زمن العراك انتهى . أنتما رجلان الآن !

ثم خاطبت حسين مبتسمة :

- ضقت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها الى الأبد ؟!. ألصقا جريدة مكان الزجاج والا فعليه العوض فيكما ..

ولما لم تجد لقولها الأثر الذى انتظرت غادرت الحجرة . وعاد حسين الى كرسيه صامتا على حين ارتمى حسنين على الفراش منفعلا . كثيرا ما ينتهى الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو . ولم تكن حياتهما تخلو من ملاحاة وشجار على صداقتهما الوطيدة ، وصحبتهما التى لا غنى لأحدهما عنها . وكانت الغيرة كثيرا ما تعكر عليهما صفوهما ولكنهما ظلا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحب ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه . وكان حسين أعقل الأخوين وحسنين أقواهما ، فكان الأول يقوم بمهمة الارشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة ، وكان الآخر يحمل عبء

الدفاع الأكبر فيمـــا يشتجر بينهما وبين الآخرين من عراك ، خصوصا وانهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن اذا اشتـــد الخصم عليهما أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين الى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب . بيـــد أنه أصبح من النادر جدا أن يتشاجرا فى الأعـــوام الأخيرة ، وندر بالتالى أن تؤدبهما الأم بالضرب ، وقد سبقت المعركة الأخيرة بفترة ســـلام طويلة كادت تقارب العام . ومهما يكن من أمر فلم يكن أثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم ، ثم يبدأ المعتدى بمخاطبة أخيه فى شىء قليل من الارتباك ، ولا يلبثان أن يتناسيا العراك كأنه لم يكن . شخص آخر كان يعانى من شجارهما أكثر مما يعانيان ، هى الأم ، فكان يترك فى نفسها ألمـــا عميقا ونكدا متغلغلا . ولم تجـــد من وسيلة لتأديبهما خيرا من الضرب لعله يصلح ما أفســـد الأب بتدليله لهما . ولم يكن أبغض لنفسها من أن يشذ أحـــد أبنائها عن حدوده ، أو أن يبدر منه ما يعد افتئاتا على رابطة الأسرة المقدسة . وكان لها من حسن عبرة بذل الحياة أهون عليها من أن تتكرر . وحسن نفسه لم ينج من لكماتها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة . وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تلفه ، ويعذبها أشد العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر . ومر شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان ، واشتد السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة الى حجرتهما . ثم بدأ حسين يطالع فى كتاب محاولا أن يركز انتباهه المشتت . وراح حسنين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه ؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزيه عما أصابه ، وبأن تثيبه الى طمأنينته . وسرعان ما رفت على شـــفتيه ابتســـامة . « كل شىء حسن . لاذت بالصمت ، ومعناه أنها تحبنى . حقا !؟. لشـــد ما يشوقنى أن أسمعها قولا تتحرك به الشفتان الشهيتان . رويدك . كل آت قريب . الصمت بداية أما النهاية ؟!.. » ولاحت منه التفاتة نحو

أخيه فعاوده الابتسام . « ما كان ضرنى لو أغلقت النافذة ؟!. يبدو أنه لا يستطيع متابعة القراءة . لو وهب مثل حظى السعيد لما أعياه النسيان ! » وداخله نحوه شيء من العطف .

٢٣

عادت نفيسة الى عطفة نصرالله عند الغروب ، كعادتها فى هذه الأيام الأخيرة . وكان يبدو عليها أنها أخذت تعير نفسها اهتماما وعناية ، وهو ما أهملته طويلا حدادا على وفاة والدها ، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة . شيء خير من لا شيء . بل ان دأبه على التودد اليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها ، والطمأنينة والأمل . ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وانها ابنة موظف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعته فوق مقام أفضل الناس فى نظرها . وانساقت الى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة ، ويأسها الخانق ، والرغبة فى الحياة التى لا تموت الا بالموت . وبات مع الأيام صورة مألوفة ، بل محبوبة ، أنبتت لها فى جدب الحياة زهرة مترعة بالأمل ، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدا . وها هى تنقل خطاها فى عطفة نصر الله بعد نهار حافل بالعمل فيهزها سرور حار دافق يسرى من القلب وينتشر مع دمها فى الأعصاب والأعضاء . قال لها مرة « تريدين حلاوة ؟ ما الحلاوة الا أنت ! » . وغزا قوله نفسها فابتسمت فى بهجة ومرح . وقد حدثتها نفسها أن تقول له « لا تكذب ، لست من الحلاوة فى شيء » ولكنها أمسكت فى حيرة وشك ، وذكرت نفسها بقول القائل « لكل فولة كيال » من يدرى فلعلها ليست بالقبح الذى تظن . وجعلت تطوى الطريق وعيناها

الى الدكان حتى وقفت أمامه وجها لوجه . ولاح السرور فى وجه سلمان فقال :

ـ أهلا وسهلا كنت أتساءل متى تأتين ؟

ورمت بنظرة الى مقعد الأب فوجدته خاليا ، ثم لمحته يصلى وراء العمود القائم وسط الدكان محملا بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت فى دلال :

ـ ولماذا تتساءل ؟

فضيق عينيه الضيقتين وقال مبتسما :

ـ حزرى !.. اسألى قلبى ..

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

ـ أسأل قلبك ؟؟.. ماذا وراءك يا قلبه ؟!

فقال الشاب همسا :

ـ يقول قلبى انه يسر لرؤياك وينتظره على لهفة !

ـ حقا ؟!

فاستدرك فى جد أكثر من ذى قبل :

ـ ويقول أيضا انه يرغب فى أن يلقاك الآن فى الشارع ليفضى اليك بأشياء هامة ..

والتفت صوب أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة :

ـ فى وسعى أن أغيب عن الدكان دقائق فاسبقينى الى الشارع العام !

ونظرت اليه فى اضطراب وحيرة . وجدت فى نفسها رغبة الى ملاقاته ، ولكنها أبت أن تذعن دون ممانعة من جانبها والحاح من جانبه فقالت :

ـ أخاف أن أتأخر ...

فقال بجزع وهو يومىء صوب أبيه محذرا :

ـ دقائق معدودات . اسبقينى قبل أن يختم الرجل صلاته .

ولم تجد فى الوقت متسعا للتمنع والدلال فتحولت عن موقفها

وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردد الى شارع شبرا . ركبها الاضطراب والقلق والخوف ، ولكنها أمعنت فى السير دون أن تفكر فى العدول . خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها . وما لبثت أن تغلبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذى يتخايل لعينيها فى نهاية الطريق . ولما انتهت الى الشارع نظرت وراءها فرأته يحث خطاه وقد ارتدى جاكتته على جلبابه ، فمالت الى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حيها . ولحق بهامهرولا فقال بسرور :

ـ استأذنت من أبى دقائق ...

وألقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر :

ـ لا يمكن أن أرتدى البدلة الا ساعات العطلة !

وكان يبدو فرحا مسرورا . لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من أبيه المستبد فى ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التى تتيح له الممكن من الحب . فتى فى مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز ، ووجد فيها ـ مهما تكن ـ أنثى تنتسب للجنس المحبوب العزيز المنال . وخاف أن تمضى الدقائق دون أن يقول ما يريد قوله فقال بعجلة :

ـ الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة ، فقابلينى عصر الجمعة ومن ثم نذهب معا الى روض الفرج .

فقالت باستنكار :

ـ نذهب معا ؟! .. هذه طريقة لا أرضاها .

ـ ماذا علينا لو فعلنا ؟

ـ لست من أولئك الفتيات !

ـ حاشاى أن أظن بك السوء . ولكن ينبغى أن نجد مكانا آمنا للحديث .

ـ أخاف أن يرانا أحد من اخوتى .

ـ من السهل أن نتفادى من هذا !

فهزت رأسها وقالت فى حيرة :

ـ لا أحب هذه الحياة المليئة بالمخاوف .

ـ ولكن ينبغى أن نتقابل .

فتفكرت مليا ثم تساءلت :

ـ لماذا ؟

فنظر اليها فى دهشة ثم قال :

ـ كى . . . كى نتقابل !

فقالت بقلق :

ـ لا . . . لا . . . لست لهذا !

ـ أليس لدينا ما نقوله ؟

ـ لا أدرى .

ـ لدى الكثير .

ـ فما هو ؟

ـ ستعلمينه فى حينه . ليس لدى الآن متسع من الوقت .

فساورها الشك حينا ثم قالت وقد تورد وجهها :

ـ قلت لك انى لست من أولئك الفتيات !

فقال الشاب بلهجة تنم عن الأسف :

ـ ياسلام يا ست نفيسة ! أنا رجل سوق وافهم الناس !

فداخلها الارتياح ، وان تساءلت لماذا لا يقول الكلمة التى تتلهف على سماعها ويريح قلبها ؟ وعاد وهو يسأل :

ـ هل نتقابل اذن يوم الجمعة القادم ؟

فترددت قليلا ثم غمغمت :

ـ ان شاء الله . .

وعادت الى البيت كثيرة الفكر . هذا بدء الحب الذى طالما تلهفت عليه . نفض قلبها الغبار عن جوهره ودبت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل . كل هذا حق . بيد أنها قلقة متحيرة لا تدرى شيئا عما يمكن أن يتمخض عنه ، ولا عما يمكن أن يقابل به نبأه فى أسرتها !

٢٤

انتهى حسنين الى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجرة الخشبية ، فتنحنح ، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقى عليها أشعة الوداع ، فدارت على عقبيها وطالعته بوجه كتوم يأبى أن يعلن عن غضب أو رضى ، ثم تمتمت :

ـ أما لهذا من آخر ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ انك تؤدبينني أدبا لن أنساه ..

فقالت وهى تحافظ على سكون وجهها :

ـ ليتك تزدجر .

ففرقع بأصبعه وهتف :

ـ هيهات !

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يتطاير من الفرح لما آنسه من رغبتها فى محادثته .

ـ هيهات أن أنثنى عن حبك .

فتورد وجهها ، وعبست قائلة :

ـ لا تردد هذه الكلمة .

فقال بعناد وهدوء وتوكيد :

ـ أحبك !

ـ أتروم اغاظتى ؟

ـ لا أروم الا حبك .

فقالت بحدة :

ـ سأصم أذنى .

فرفع صوته قليلا قائلا :

ـ أحبك . أحبك . أحبك !

فلاذت بالصمت ، وجعل يلتهم وجهها بعينيه فى شوق وانجذاب حتى لم تعد تحتمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة ، ولكن اندفع وراءها فالتفتت نحوه مقطبة ، وقالت :

ـ أرجو أن تدعنى وتذهب .

فقال بدهشة :

ـ لا محل لهذا القول الآن . مضى زمنه وبات قديما . نحن الآن فى « أحبك » !

ـ وماذا تريد ؟

ـ أن أحبك !

وهمت بانتهاره فغلبها الابتسام الذى أعياها كتمانه ، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة ، ولم تملك أن خفضت رأسها فى حياء . وهزته هذه الحركة فهاجت صبوته وأقبل نحوها متشجعا طامحا ومد يده ليمسك يدها ، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب ، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة فى جديتها :

ـ لا تمسنى !

فغاضت ابتسامة الظفر فى شفتيه ولكنها لم تباله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدية :

ـ لا تحاول أن تمسنى أبدا . لا أسمح بهذا ولا أتصوره !

فوجم قليلا ثم قال بدهشة :

ـ انى آسف . ما قصدت سوءا . انى أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح . .

فقالت وهى تنظر الى قدميها وقد نم مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله :

- انى شاكرة لك هذا ، ولكن ليس « أنا » الذى أملك الرد عليه !!...

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة . كان يجرى وراء عاطفته مستغرقا فيها دون أن يفكر فيما عداها . كان يحب ولا يرى الا الحب ، فأعاده قولها الى رشاده . وفهم ما فاته فهمه ، وأدرك أن الأمر جد لا لهو ولعب . ولم يأسف على هذا بل زاد سرورا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها . وخرج من حيرته بأن قال :

- انى أدرك وجاهة رأيك ، وأوافق عليه ، ولكن ليس هذا كل شىء . انى أسأل قلبك أولا .. ؟

ولانت ملامحها ولكنها لم تفقد السيطرة على ارادتها ، فقالت :

- أرجو ألا تستدرجنى لحديث لا أحبه !

- لا تحبينه !

ولم تكن تعنى ما قالت بالضبط ولكنها لم تر بدا من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف :

- أجل ..

فقال حسنين بارتياع :

- هذه طعنة دامية فى قلبى !

فقالت بحيرة وارتباك وحياء :

- لا أحب أن أسلك سلوكا أو أقول قولا يستوجب الاخفاء !

فلم يملك أن ابتسم قائلا :

- ولكن هذه ضرورة لا بد منها ، وما فيها من عيب !

فلم ترتح لقوله ولا لابتسامته واشتد تورد وجهها فقالت بشىء من الحدة :

- كلا !. لا أحب المداعبات ولا الغزل !

- ولكنى أحبك حبا صادقا ..

- أف . لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه !

فتساءل مبتسما :

ـ هل أقتل نفسى ؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شىء على وجهها وقالت :

ـ لا داعى مطلقا لقتل نفسك . لقد قلت ما عندى !

وأعادته العبارة الأخيرة الى حيرته وخوفه ، فقال بعد تردد :

ـ لست الا شابا فى السابعة عشرة ، وتلميذا بالسنة الثالثة الثانوية ، فكيف أفتح هذا الحديث ؟

فنحت عنه وجهها قائلة ببرود :

ـ انتظر حتى تصير رجلا !

فقال فى دهشة ممزوجة بالاستنكار :

ـ بهيـــة !

فقالت فى هدوء :

ـ ما من سبيل الا هذا . . .

شعر بغيظ ، وضاق بما تلقاه به من حزم ، ولكنه أحس فى الوقت نفسه بحبها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه ، فقال باستسلام :

ـ لك ما تشائين . سأحدث من بيدهم الأمر . .

فرفعت اليه عينيها لحظة ثم خفضتهما ، وبدت حينا كأنها تهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال :

ـ سأحدث فريد افندى .

ـ أنت !

ـ نعم .

فلاح فى وجهها الاعتراض دون أن تنبس ، فتساءل :

ـ هل من الضرورى أن تقوم أمى بهذه المهمة ؟

فترددت قليلا ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالاحمرار :

ـ أظن هذا !

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذى يســاوى الاعتراف

فى قلقه . تخايلت لعينيه صورة أمه الحزينة وهى قابعة فى الصالة التى لا يضاء مصباحها توفيرا للنفقات فاضطرب صدره ، وقال بصوت منخفض :

— سأحدثه وأقنعه بمفاتحة أمى فى الأمر ..

فتساءلت الفتاة فى دهشة :

— ولماذا لا تحادثها بنفسك ؟!

أوشك أن يقول « لا أستطيع » ولكنه أطبق فاه ، ثم قال متجاهلا سؤالها :

— لشد ما أخاف أن يسخر منى ، أو أن يعترض على استبقائك فى الانتظار حتى أتم مرحلة التعليم الطويلة .

وقالت بصبر نافد وبلا وعى تقريبا :

— سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه !

وعضت على شفتيها فى حياء وألم فتطلع اليها فى لهفة وشغف ، ومد اليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراما ، ولكنها تراجعت عنه ، مقطبة لتخفى تأثرها ، وتمتمت :

— كلا ، كلا ، أنسيت ما قلت لك ؟!

٢٥

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء . وكان حسنين يعتمد وجهه بيده غائبا فى أفكاره تنم نظراته وقضمه لأظافره من آن لآن على قلقه وتوتر أعصابه . وحسين نفسه لم يبد عليه أنه يجنى ثمرة تذكر من نظره فى كتاب مفتوح أمامه ، وكان يختلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسم ، وعواطف شتى تتناوب قلبه . وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى :

ـ طالت المفاوضات !

فانتبه اليه حسنين فى فزع ثم تنهد قائلا :

ـ مرت ساعة ، بل أكثر . ترى ماذا هناك ؟

فقال حسين ساخرا :

ـ انقلبت الآية ، فالمتبع أن يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكن فى حالتك يجىء والد الفتاة لطلب يد الفتى !

فقال حسنين بنرفزة وحنق :

ـ يحق لك أن تسخر منى فلا خوف عليك . ترى ماذا يقال الآن فى حجرة الاستقبال ؟ ماذا تقول أمى ؟ !

فقال حسين فى هدوء :

ـ عما قليل ستعلم بكل شىء !

ـ أتظنها ترفض رجاء رجل كفريد افندى ؟

ـ من يدرى ؟ الذى أعلمه علم اليقين أننا سنخسر ـ فى حالة الرفض ـ مرتبنا الشهرى الذى لم نكن نحلم به !

فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل :

ـ الام يطول هذا الانتظار الموجع !

وعادا الى الصمت وكانا قلبا المسألة على جميع وجوهها ، وطال حديثهما عنها فى أوقات متقطعة منذ أفضى حسنين الى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين فريد افندى محمد . وقد رحب الرجل بطلب الشاب ترحيبا وقع من نفسه موقع الدهشة ، فلم يكن ينتظره ، ولم يكن ينتظر بعضه ، ثم وعد بمخاطبة الأم ، وتذليل أية عقبة مهما تكن خطورتها ! ولمح حسين ـ تفسيرا لهذا ـ الى أزمة الزواج من ناحية ، وطيبة فريد افندى وحبه المأثور لأسرتهم من ناحية أخرى . ولم يبق الآن الا أن ينتظرا النتيجة الوشيكة الظهور ! وجعل قلق حسنين يتزايد بمرور الوقت . « بعد دقائق أعلم كل شىء . هل تكون بهية لى أو أدفن هذا الأمل الوليد ؟ . لا سبيل اليها الا بهذا . انى أريدها ولا غنى لى عنها .

ترى فيم تفكر هى فى هــذه اللحظة ؟ . ألا يتوزعهــا القلق على مصيرنا ؟ . انها تحبنى بلا ريب . حسبى هذا من الدنيا جميعا . تبا له انه يطالع فى هدوء ، ويستمتع بمراقبة المعركة من بعيــد لا حب ولا قلق . لشد ما تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء . من قال انها تقيم فى القلب ؟ الأرجح أنها تعشش فى العقل ؟ ، وهذا سر الجنون ! . » واستيقظ على صوت حسين وهو يقول :

ــ انهما خارجان !

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل وزوجه وأمه من عبــارات المجاملة المألوفة . ومضوا الى البــاب الخارجى الا نفيسة قد جاءت الى باب الحجرة ووقفت تنظر الى أخيها بغرابة ثم قالت :

ــ يا ما تحت الساهى دواهى ! أتريد حقا أن تتزوج ؟ !

وغمغم حسين :

ــ أول الغيث قطر !

وانتقل حسنين مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس من كرسيه الى فراشه فى أقصى الحجرة لصق النافذة التى حل ورق الصحف محل زجاجها المفقود . ثم سمعوا وقع أقدام الأم وهى قادمة ، ودخلت تسـير فى خطا ثقيلة صلبة القسـمات جامدة النظـرة ، وبحثت عيناها عن حسنين حتى استقرتا عليــه فى آخر الحجرة ولبثت تنظر اليه حينا ثم مضت الى الكرسى الذى تركه وجلست عليه فى شبه اعياء . وساد الصمت مليا فلم يجرؤ أحد على خرقه حتى نظرت المرأة الى حسين وسألته فى هدوء :

ــ ألا تدرى فيم كان يحادثنى فريد افندى وزوجه ؟

فارتبك الشــاب الذى لم يكن يتوقع اســتجوابا وظن أنه بالنسبة للمسألة كلها ــ من المتفرجين ، فلم يحـر جوابا ، حتى قالت له الأم بخشونة :

ــ أجب ...

فتحول بصره صوب حسنين فى حيرة واستغاثة ، فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته :

ـ متى علمت ؟

فقال فى اشفاق :

ـ أول أمس !

ـ ولماذا أخفيت عنى ؟

فلاذ بالصمت لاعنا أخاه وحظه اللذين أورطاه فى المسئولية بلا ذنب جناه ، وتنهدت الأم عند ذاك وقالت بأسى :

ـ الأمر لله فان شقائى بكما فاق ما ألاقى من زمانى الأسود !

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن تلطف من حدته . ولا يعنى هذا أنها كانت تشجع أخاها على رغبته ، ولعلها كانت أشد غضبا من أمها ، بل انها عدت الأمر كله تدبيرا دنيئا لاختطاف شقيقها ، ولكنها رغبت صادقة فى تحامى نزاع لم يعد يجدى ، فقالت مخاطبة أمها :

ـ لا تهيجى دمك . ما كان كان ، فارحمونا من وجع الدماغ .

فانتهرتها أمها بحدة قائلة :

ـ اخرسى !

والتفتت الى حسنين قائلة بازدراء :

ـ لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى اليه مسعاك الذى دبرته بليل ؟ . . .

وهزت رأسها فى أسى ثم قالت :

ـ لك قلب تحسد عليه ، فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا أن يعشق ، وأن يستهين بنا جميعا فى سبيل سعادته ، والحق انى ذهلت حين حدثنى فريد افندى عن آمالك الواسعة ، وهيامك العجيب . ولكنى حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا . حدثته عن أثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضرورى من القوت ، وعن شقاء أختك التى تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت

وذاك . ثم صـارحته بأن أحدا من أبنائى لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة .

وسكتت المرأة وعينـاها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط ، ثم استطردت قائلة بحزن :

— ومهما يكن من أمر فلا يسـعنى الا أن أشـكر لك عطفك وانسـانيتك !

وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديهـا من الغضب والحزن وخلفت وراءها صـمتا ثقيلا . وبلغ التـأثر من نفيسـة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسـنين وقالت متظاهرة بالمرح :

— نينة لم تقل كل شيء . وأؤكد لك أن ليس ثمة ما يدعو حقا لحزنك . وما كان بوسعها الا أن تبقى على صداقة فريد افنـدى ومودته ، ومنذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته ؟ ! . قالت له انها تعد موافقته على طلبك شرفا كبيرا بيد أنها ذكرت له حالنا الذى يعرفه حق المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفيا بكلمتها على أن تعلن الخطبة فى حينها اذ أنت رجل مسـئول . وقالت له أيضا انه يسـعدها أن تختار بهية زوجا لابنها ، فلا داعى للحزن على الاطلاق . . .

ونظرت الفتاة الى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجىء ولكنها أحسـنت كتمانه وقالت بلهجة لم تخل من حدة :

— اعذر نينة فهى مسكينة حزينة ، ومما يعزيها ولا شك أن نشاركها همومها أما اذا وجدت منا ، . . . ما علينا ! لا أحب أن أعود الى هذا . وحسبى أن أقول لك ان الأمور ستسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معا . . !

٢٦

قال سلمان جابر سلمان :

ــ فلا يداخلك شك فى هذا . سنتزوج كما قلت لك . وهذا عهد منى أمام الله .

فأنصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته ، لم يعد جديدا أن تسير متأبطة ذراعه فى شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة . وكان يبدو لها دائما ، على دمامته وحقارته ، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها ، وكانت لهذا تحبه من أعماقها ، بل باتت مجنونة به .

واعتقدت أنه الحبيب الأول والأخير ، ليس لها سواه ، ولن يكون لها سواه ، فتعلقت به بقوة الأمل ، وبقوة اليأس ، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها ، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تنتشلها من الأعماق .

كان أول رجل بعث فيها الثقة ، وطمأنها الى أنها امرأة كبقية النساء ، وكان اذا قال لها « أحبك » تخلق خلقا جديدا فترى الدنيا ــ على كثافة الظلام المحيط ــ نورا وبهاء . بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب ، تلهفت الى شيء آخر ليس دون الحب منزلة ، أو لعلهما شيء واحد فى نظرها ، فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت :

ــ وماذا أنت فاعل ؟ !

فقال بلا تردد :

ــ كان من الطبيعى أن أعلن أبى برأيى ثم نذهب معا الى والدتك لنطلب يدك ، أليس كذلك ؟

ــ أظن هذا ..

فتنهد بصوت مسموع وقال :

ـ ياليت ! هذا أمل بعيد المنال فى الوقت الراهن ..

فانقبض قلبها وتساءلت فى انزعاج :

ـ لمــاذا ؟

فقال بغيظ :

ـ أبى ! .. لعنة الله عليــه . رجــل عجوز أحمق عنيد . ويطمع أن يزوجنى من ابنة جبران التونى البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد . ولست فى حاجة الى أن أقول لك أننى لم أوافق ، ولن أوافق ، ولكننى لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى فى الوقت الحاضر ، والا كان جزائى الطرد ..

وأحست جفافا فى حلقها ، ورمقته بازدراء ، ثم تســاءلت فى قلق :

ـ والعمل ؟ !

ـ نصبر ، ثم نصبر . ولن تحولنى قوة فى الأرض عن غايتى ، بيد أنه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفطن الرجل الى علاقتنا ..

ـ والام نصبر ؟

فتردد فى حيرة ثم تمتم :

ـ حتى يموت !

فهتفت بانزعاج :

ـ يموت ؟ ! هبنا متنا قبله !

فضحك ضحكة جافة فى ارتباك وقال :

ـ دعى هذا لى وللزمن . لم تضق بنا الحيل بعد !

كلام عائم لا يروى غلة . « لا أستطيع أن أقول له انى أخاف أن يتقدم لى أحد فى أثناء الانتظار لطلب يدى . هذه حجة وجيهة فى يد غيرى ممن يحظين بقسط من الجمال أو المال . أما أنا فمن عسى أن يتقدم لى فى هذه الأيام التى لا يتزوج فيها أحد . رضيت بالهم ولكن الهم لا يرضى بى . ابن بقال ! . ان البدلة تبدو على جسمه قلقة نابية » . وشعرت بيد القهر تقبض على عنقهــا .

وزادها الخوف تعلقا به فلو وزن فى هذه اللحظة بالدنيا كلها لرجح بها فى قلبها . انها لا تدرى على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوج منه حتى ولو ذلل ما يعترضه من عقبات ، فان أمها لاتستطيع أن تقدم لها شيئا ، فضلا عن أن الأسرة باتت لاتستغنى عن القروش التى تربحها لها ، ولكنها تريده ، تريده من الأعماق ، وبأى ثمن . وتجهم وجهها ، وفتحت فاها لتتكلم ولكن لاحت منها التفاتة الى شبح قادم فجمد الدم فى عروقها ؛ وشهقت شهقة فزعة وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا أن مر القادم تحت المصباح فتنور وجهه وتنهدت تنهد الأمان بعد الرعب ، وعجب سلمان لشأنها فسألها :

ـ مالك ؟

فقالت وهى تلهث :

ـ حسبته أخى حسن !

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال :

ـ لن نأمن الخوف ما دمنا نخبط على وجوهنا فى هذه الطرق . أصغى الى ، لماذا لا نذهب الى بيتنا فنمكث فيه قليلا بعيدا عن الأنظار ؟

فصاحت به فى دهشة :

ـ بيتك ؟ !

ـ نعم . أبى يقضى مساء الجمعة حتى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذلية ، وأمى فى الزقازيق عند أختى التى جاءها المخاض اليوم ، وليس فى البيت أحد !

فقالت فى ذهول وقلبها يدق بعنف :

ـ كيف أذهب معك الى البيت ؟ .. أجننت يا هذا ! ؟

فقال بضراعة حارة :

ـ انى التمس مكانا آمنا . بيتى آمن ودعوتى بريئة . أريد أن

أخلو اليك فى أمان فنعالج همومنـــا فى روية بعيـــدا عن المخاوف والعيون ..

كان يتكلم وكانت تصغى مقطبة . وكانت تتخيل على رغمها البيت الخالى فى قلق وخوف ، وحاولت أن تطمس خياله بالتمادى فى الغضب ولكنه ظل قائما فى رأسها . وقالت فى حدة :

– ليس فى بيتك ...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشد على راحتها :

– لم لا ؟! ظننتك ترحبين بدعوتى . أليس لك ثقة فى ؟ أليس لك ثقة فى نفسك ؟ أريد أن نخلو لذاتنا ، وأن نتحدث ، وأن أطلعك على مدى حبى وآمالى وخططى . ليس فيما أدعـــوك اليه من عيب ولن يدرى بنا أحد .

فهزت رأسها فى عناد وقلبها يوالى ضرباته الشديدة . ودت لو تستطيع أن تخلو الى نفسها لتتفكر طويلا ، وشعرت برغبة فى الهروب . ولكنها لم تبد حراكا ، وسارت الى جانبه وراحتها فى يده وعبثا حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالى المنتظر . ثم جاءت لحظة فشـــعرت بأن باطنها ينقلب رأســـا على عقب وانها تغوص فى أعماق ما لها من قرار . وازدادت اضطرابا وقلقا فقالت فى ضيق :

– ليس فى بيتك !

فشد على يدها بيد مرتجفة وقال :

– بل فى بيتى . فكرى قليلا . ماذا تخافين ؟ انى أحبك وأنت تحبيننى ونريد أن نتحـــدث عن حبنا ومســـتقبلنا فى أمن من العيون . هذه فرصة وهيهات أن نجد البيت خاليا مرة أخرى . انى أعجب لترددك ...

وانها تشاركه عجبه من ناحية أخرى . انها تتردد حقا . ولو أرادت أن ترفض رفضا حاسما لما أعياها البيان . ولكنها يبـدو أنها تدأب على الرفض المتردد الذى لا يحكم أغلاق الباب . انها

فى الغالب خائفة وخجلة ولكن لم تعـد تستطيع تجاهل الانقلاب الذى حـدث فى باطنهـا . وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر ، ثم قالت بصوت ضعيف :

ـ الأفضل أن نواصل المشى ..

فجذبها باغراء وهو يقول :

ـ قد تنشق الأرض فى أى موضع وفى أية لحظة عن أخيك حسن !

فوجدت نفسها تجاريه فى تخوفه قائلة فى استسلام :

ـ انى أخاف هذا !

فقال وهو يتنهد فى ارتياح زافرا من صدره شواظا من نار :

ـ لنذهب الى البيت ..

فقاومت يده فى وهن وهى تقول :

ـ كلا .. لن أذهب .

ـ دقائق معدودات . عطفتنا معتمة ولن يرانا أحد .

وسار بها وهى تتبعه فى تثاقل قائلة :

ـ كلا ..

وكان قلبها يدق بعنف يكاد تصدع له الضلوع ..

٢٧

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس فى أذنها « تفضلى » فقالت بتوسل :

ـ لنعد ..

فدفعها برقة وهو يقول :

ـ لابد أن تشرفى البيت ..

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها فى ظلام دامس ، وارتفع وجهها الى السقف فى انتظار النور ، ولكنها شعرت بيده تتحسس منكبها فسرت بها قشعريرة وهمست فى خوف :

ـ النور .

فقال معتذرا :

ـ مصباح الصالة تالف ..

فقالت بضيق :

ـ أشعل أى مصباح نستضىء بنوره .

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول :

ـ انى أعرف الطريق الى حجرتى ..

وحاولت أن تتملص من ذراعه ولكنه شد على خاصرتها فلم يتخل عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان ، فجثم على صدرها ضيق خانق وجعلت تتساءل فى نفسها « ماذا فعلت بنفسى ؟ » ثم أخذت تألف الظلمة رويدا فلاحت لها فى الظلام أشباح كراسى وصوان وأشياء أخرى لم تتبينها . وقطعا الصالة فى بطء وحذر ، ثم مد يده الأخرى ففتح بابا مزق صريره الصمت المخيف ، ودفعها أمامه من خاصرتيها ثم رد الباب بقدمه ، وسرعان ما تخلصت من يديه وقالت بحدة :

ـ أشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة ..

فجاءها صوته يقول برقة وحذر فى لهجة تنم عن الاعتذار :

ـ آسف يا ستى فان شقة عمى ملاصقة لشقتنا ولا آمن اذا رأوا نورا بها أن يطرق أحد منهم بابنا !

فسألته فى دهشة واستنكار :

ـ هل نبقى فى الظلام ؟

فقال متوددا :

ـ فى نورك الكفاية ..

فقالت فى توسل :

ـ دعنى أخرج ...

فتلمس يدها فى الظلام حتى عثر بها ورفعها الى فمه فقبلها مرة مرة ثم قال بصوت مضطرب :

ـ بل تجلسين لتستريحى ، وستألفين الظلمة فلا تزعجك .

ومال نحوها ـ فيما يشبه الانقضاض ـ فرفعها بين يديه ، وسار بها الى نهاية الحجرة وأجلسها على كنبة وجلس لصقها وهى مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول ، ثم قال :

ـ دعينا من الأخذ والرد . ينبغى أن نجلس فى هدوء وأن نتحدث . لقد تجشمنا مشقة كبيرة فى سبيل المجىء الى هنا وسيان أن نمكث فى الظلام أو فى النور . ليس هذا بذى بال ولا يصح أن يكدر صفونا ..

وتناول ساعدها وأمطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهى ترتجف وتحاول عبثا أن تجمع شتات أفكارها . ثم تزحزحت بعيدا عن جنبه الملتصق بها لتسترد أنفاسها فمال نحوها ولكنها حالت دونه بيديها وهى تقول لاهثة :

ـ دعنى وحدى ، انى تعبة ..

فاسترد أنفاسه وقال ضاحكا :

ـ تشجعى . مالك خايفة مرتجفة !!.. أنت فى بيتك فى بيت زوجك !

وكانت نبضات قلبها تدق فى أذنيها وتقرع رأسها ، فتنفست من الأعماق . وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها عدلت عنه وكأنها استسخفت نفسها ، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيرت نبراته :

ـ كل شىء هادىء ولطيف . انى أرى جمالك رغم هذه الظلمة .

فقالت بلا وعى تقريبا :

ـ لست جميلة ..

فدلك يدها براحتيه وقال :

ـ دعى تقدير هذا لى ، انى لا أجن للاشىء ...

وساد الصمت مليا فتركز انتباهها وهى لا تدرى فى راحتها التى تلتهمها كفاه ، وسرت فيها دغدغة بثت فى ساعديها وذراعيها

وصدرها تخديرا فاقشعر بدنها وهمست :

- حسبك ..

فقال بصوت متهدج :

- أعطنى شفتيك أقبلهما ، سأقبلهما كثيرا مائة قبلة أو ألفا ، سأقبلهما حتى أموت ..

واندلق عليها وقبل شـفتيها قبلة طويلة شرهة حتى مال رأسها الى مسند الكنبة ثم أمطرهما قبلا نهمة حامية ، ورفع وجهه عن وجهها أنملة وهمس :

- قبلينى .. أريد أن أشعر بشفتيك تأكلان شفتى .. هه .

وكانت بحال من الاعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلا وقبلته ، ثم غمغمت :

- لم نجىء هنا لهذا ..

- اذن لماذا ؟

- لنجلس ونتحدث !

فأطبق شفتيه على شفتيها ، ثم عطف وجهه فجعل خده على فيها وهمس فى أذنها :

- هذا أفضل . لقد تكلمنا كثيراً . وأعيد عليك أنك زوجى . زوجى ولو ناصبتنى الدنيا العداء . هى مسألة وقت لن يطول ..

لعله يظن أنها جزعة متعجلة . فلندعه فى وهمـه . ولعـل الانتظـار أوفق لحال أسرتهـا التى لا ترحب بزواجها الآن ، ولا تستطيع أن تعد العدة له . ليس فى الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن عما فى ضميرها . وعاد سلمان يقول :

- مسألة وقت . ولكن ماأحوجنا فى فترة الانتظار الى الترفيه .

ومد يسراه وراء ظهرها ، ويمناه حول صدرها ، فشعر بثدييها تحت ساعده ناهدين صلبين ، فغلى دمه وضمها اليه بوحشية ، وانهمرت أنفاسه على خدها وعنقها . وعاودها الذهول والتخدير والرغبة والخوف ، وامتزج فى صدرها القلق واللذة واليأس ، ثم

اشتدت الظلمة ، ظلمة عميقة غريبة ، كأنما تنشر أجنحتها على فضاء لا نهائى ، فلا مكان ولا زمان ..

***

قالت لها أمها :

- تأخرت أكثر من كل يوم .

فقالت واجمة :

- أردت أن انتهى من عملى وقد انتهيت ..

ثم وضعت فى يد الأم خمسة وسبعين قرشا واستطردت قائلة :

- أعطونى الحساب كله وسأحتفظ لنفسى ببقية الجنيه .

وسكتت الأم فمضت الفتاة الى حجرتها وأخذت تخلع ملابسها . وفى السكون الشامل ترامى اليها صوت حسنين وهو يطالع ، فترك فى نفسها أثرا عجيبا لم تدر ان كان خوفا أم حزنا خالصا ..

٢٨

- بهية ولطافة المغيب هما شىء واحد فى نفسى ..

قالها وهو يومىء الى الشمس الغاربة ، رانيا الى وجهها الأبيض البدرى ، وقد افتر ثغرها عن در ، فقالت :

- لن تفتأ تتبعنى الى هنا حتى يرانا أحد !

فقال حسنين بزهو :

- انى خطيبك ، ولى الحق فى كل شىء !

- لا حق لك على الاطلاق !

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدق قولها ، وملأ عينيه العاشقتين من منظرها . كانت ملتفة فى معطفها الأحمر ، ينحسر جيبه فى أعلى الصدر عن فستان رمادى ، وتنهدل على ظهره ضفيرتان مكتنزتان . وكان عمق حمرته يضفى على بشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء . « هى ميالة الى القصر ، فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقنى . ولكنها بضة ريانة

فتبا للمعطف الذى يخفى قسمات هذا الجسم وثناياه ، حريصة محافظة . تعجبنى بقدر ما تغيظنى ! » . وقال متعجبا :

ـ لا حق لى على الاطلاق !!

فقالت فى هدوء ينم عن القوة :

ـ طبعا . .

أتعنى ما تقول حقا ؟!. يا لها من جميلة . لقد سما بها هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء اطارا لصورتها . وما من شىء يشابهها كهذا الاطار فى هدوئه وحشمته وتنائيه . تقول نفيسة عنها انها ثقيلة الدم ، وما هى بالخفيفة ، ولكن هيهات أن يقلل هذا من قيمتها . أنه يحبها بعقله وجسمه ، أو لعل احساسه غالب عما عداه . أتعنى حقا ألا حق له ؟! عجبا ، لقد حسب أن الخطبة ستملكه حقوقا وحقوقا !. قال بدهشة :

ـ يخيل الى فى بعض الأحيان أنه لا قلب لك !

فتورد وجهها ، وخفضت عينيها فى حياء ، ثم رفعتهما قائلة فى خشونة :

ـ ما دليل القلب عندك ؟

فقال فى حماس :

ـ أن تصرحى لى بأنك تحبيننى ، . . وأن . .

ـ وأن . . . ؟

ـ وأن نتبادل قبلة حارة . .

فقالت بحدة :

ـ اذن حقا لا قلب لى .

ـ يا عجبا ألا تحبيننى يا بهية !!

فلاذت بالصمت فى ارتباك وضيق .

ـ ألا تحبيننى ؟

فتنهدت قائلة :

ـ اذن لماذا تم ما تم ؟!

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء :

ــ أحب أن أسمعها بأذنى ..

ــ لا تكلفنى ما لا أطيق !

فتنهد بدوره فى شبه يأس ، ثم قال بلين :

ــ اذا أعياك الكلام فلن تعييك قبلة .

ــ يا خبر أسود ..

ــ يا خبر وردى كالشهد ! من غير هذه القبلة أموت كمدا .

ــ اذن فليرحمك الله !

ــ لا تطيقينها أيضا ؟!. لن تكلفك شيئا . أبقى كما أنت ثم أتقدم خطوة وأضع شفتى على شفتيك فتكون الحياة التى ما بعدها حياة ..

ــ أو الفراق الذى ليس بعده تلاق !

ــ بهية !

ــ أفندم !

ــ أنت لا تعنين ما تقولين ..

ــ أعنى ما أقول تماما .

ــ ولكنها قبلة وليست جريمة !

ــ جريمة فى نظرى ..

ــ ما سمعت هذا قبل الآن ..

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ــ ولكنى سمعته كثيرا ..

ــ أين ؟

فعاودها التفكير ، وترددت مليا ، ثم قالت بصراحة وسذاجة :

ــ ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات لاستهتارهن ؟ ألا تسمع الراديو ؟

ففغر فاه ، وندت عنه ضحكة ، ثم صاح :

ــ من يقول ان القبلة استهتار ؟ ألم تقرئى ماقال المنفلوطى

فى القبلة وهو الشيخ المعمم ؟ انك تحرمين على نفســك ما أحل الحب الطاهر لنا . الصباح ؟.. الرأديو ؟.. كلام فارغ !

فرمقته بريبة وحذر وقالت :

- لا تضحك منى . هو الحق . قالت أمى لى مرة « ان الفتاة التى تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة ساقطة خائبة الأمل » ...

بنت الكلب !.. أهى التى قالت لك هذا ؟.. القصيرة الماكرة . أفسدتها على وأفسدت حياتنا . ان الغيظ يقتلنى . ماذا أفدت من الخطبة التى تجرعت بسببها تقريعا ولوما مرا ؟ ! لا شىء . فتاتى عنيدة مجنونة . السبب أمها بنت الكلب « حمالة الحطب ! »

وتساءل فى يأس :

- أتأخذين نفسك بهذا التقشف حقا ؟

- طبعا .

- اذن هو حب أسمى فحسب ؟

- ليكن .

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية . وجرى بصره مع عنقها الرقيق ، وتخيل أصله المتوارى تحت الفستان ، والمنكبين ، والصدر الناهد ، فركبته عاطفة جامحة حارة ، وأفلت زمامه من يده ، فانقض عليها وهو يسدد ثغره صوب شفتيها . ولم تكن تتوقع انقضــاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم هتفت به لاهثة :

- حسنين ، اياك ...

لمح فى عينيها غضــبا يتقد فخمدت حــدته ، وارتد خجلا مرتبكا ، فغمغمت :

- احذر أن أغير رأيى فيك ...

ثم استدركت فى جزع :

- أظن آن لك أن تعود ..

وداری ارتباکه بضحکة قصیرة وتمتم :

ـ علی شرط ألا تکونی غاضبة . . . ؟

فسکتت هنیهة قبل أن تقول بلهجة رقیقة :

ـ وعلی شرط ألا تعود لهذا مرة أخری . . .

وتحول فی خطوات ثقیلة ، یلوح فی مظهره الارتباك والیأس ، فرق قلبها له وقالت وهی لا تدری :

ـ ان سعادتی فی أن أصون لك . . .

وکأنما تنبهت الی نفسها فعضت علی شفتها ولم تنبس بکلمة .

٢٩

وجاء عید الأضحی فجذب أفکار الأسرة وعواطفها الی واد واحد تلتقی فیه ذکریات الأمس والیوم ، واجتمعت الأسرة لیلة الوقفة فی الصالة حتی حسن کان بینهم ، واستعرت فی الصدور رغبة کظیمة فی الاحتفال بالعید . وطافت برءوسهم ذکریات الأعیاد الماضیة فی حنین دافق لم تعلن عنه ألسنتهم . کان الخروف ـ فی مثل هذه اللیلة ـ یربطه فی شرفة شقتهم الأولی یشرئب بعنقه بین قضبانها ثائجا ، مذیعا بثؤاجه فی عطفة نصر الله احتفـال الأسرة بالعید . ولم یکن الشقیقان لیفارقانه ، فهما اما یعلفانه ویسقیانه ، أو یناطحانه أو یحلمان بالغد القریب فی أمل وفرح .

وفی الصباح وعقب ذبح الضحیة یبدأ سباق الی شی اللحوم والتهامها ، والأم مشغولة بهذا وبتوزیع الصدقات علی بعض الفقراء کالکناس وصبی الفران وغیرهما ، أما الأب فیتناول فطوره من الشواء علی السفرة ثم یأوی الی حجرته فی انبساط فیضم عوده الی صدره ویمضی فی مداعبة أوتاره . وهناك ـ غیر هذا ـ العیدیة والملابس الجـدیدة ونزهة الصباح فی الخلوات وفسحة اللیل فی

السينما وما بين هذا وذاك من ألوان الحلوى واللعب والمفرقعات . وهاهى الأسرة مجتمعة ولكن بلا أب . وانهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون بشيرا بمقدم العيد ولا أملا فى بهجته ، ثم يسترقون النظر الى أمهم المتلفعة بالسواد بأعين مستطلعة وألسنة قلقة مشفقة . كلا ، لا عيد ، ولا بشيرا به . وتساءل حسنين فى سره «ترى هل يمكن أن يمضى العيد كما كان يمضى غيره من الأيام ؟!» . وقال حسين لنفسه « لاعيد . انى أعلم ذلك . انتهى ، انتهى » . حسن وحده كان أدناهم الى التفاؤل . ولعل كثرة تغيبه عن البيت جعلته بمنأى بعض الشىء عن نوع الحياة التى يحياها أهله . وكان الى هذا – شأنه شأن بقية الاخوة – يعد أمه قادرة على كل شىء ، وكثيرا ما يتعزى عن كسله وتلفه فيقول لنفسه « لديهم المعاش وأرباح نفيسة ! » . وقد اعتاد دائما اذا رجع الى البيت أن يخلو الى نفيسة فيسألها « كيف الحال ؟ » فكانت تجيبه بالشكوى المرة ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده اذا مدها لها طامعا فى بضعة قروش . كان متفائلا رغم ما يحدق به من تجهم ، ومنته نفسه بنصيب هائل من اللحم يعوض عليه أياما طوالا انقضت دون أن يذوق للحم طعما ، وضاق بالجو الكئيب الصامت فمال على أذن نفيسة وسألها همسا :

– ماذا أعددتم للعيد ؟!

وفطنت الأم الى همسه فعاجلته متسائلة :

– ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة ؟

فضحك قائلا :

– لنا أم نحسد عليها ! خفيفة الروح وبنت نكتة ولطيفة . ماذا أقول يا أماه ؟ لم يأمر الله بالرزق بعد . وحسبكم أنى كفيتكم شرى فلم آكل لقمة فى بيتكم منذ وفاة أبى الا مرات معدودة . . .

وكانت يئست من نصحه ولومه معا فتنهدت صامتة ، وتشجع حسنين بفتح باب الكلام فتساءل :

ـ ماذا سنأكل فى العيد ؟

فتطوع حسن بالاجابة قائلا :

ـ لحما طبعا . هذا أمر ربنا ولا حيلة لنا فيه !

وندت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية أن تتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن :

ـ هذا أمر ربنا حقا ولكن كيف لنا بتحقيقه ؟

فقال حسن فى ملق بارع :

ـ نحققه بفضلك أنت . أنت الخير والبركة . أنت الحزم والتدبير . ثم انك أعظم طاهية فى الدنيا . كيف يمضى العيد دون أن نشبع من المشوى والمسلوق والمحمر والكفتة والكستليتة والممبار والموزة ؟ . سفرة الست أم حسن ، أنعم بها وأكرم ..

وسرى فى الجو القاتم نسيم مرح لطيف ، وجرت على فم الأم الجاف بسمة خفيفة ، ولكنها قالت بأسف :

ـ طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين !

ونظرت نفيسة الى أمها نظرة ذات معنى ثم قالت لاخوتها :

ـ اسمعوا ، علمنا أن فريد افندى سيهدى الينا نصف خروف!

وتطلعت اليها الأبصار فى دهشة ووجوم . ولم يعد فى وسع المرأة السكوت فقصت عليهم كيف حادثها فريد افندى فى الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكرة فتأثر الرجل لحد الغضب وذكرها بأنهم أسرة واحدة . الخ . وكانت تلوح فى عينى حسين نظرة كئيبة ، وبدا حسنين وهو يزدرد ريقه بصعوبة أما حسن فقال :

ـ يا له من رجل فاضل وفى !

فهتف حسنين فى ضيق وألم :

ـ مستحيل .. لن يقع هذا ...

فبادره حسن قائلا :

ـ ليس فى الأمر ما يمس الكرامة ، ان هى الا تقاليد مرعية ، وليس فريد افندى بالرجل الغريب ..

وخافت نفيسة أن يفضى تصريحها الى فتنة فقالت :

ــ لا داعى للنزاع ، فاذا أبيتم قبول الهدية فلنشتر بضعة أرطال من الضأن .

فتساءل حسن فى حدة :

ــ كم رطلا ؟

ــ ما يسعنا شراؤه . عشرة أرطال مثلا !

فصاح حسن فى انزعاج :

ــ عشرة أرطال على أربعة أيام !. اياكم وأن ترفضوا الهدية . النبى قبل الهدية يا هوه . أم تريدون أن تغضبوا أسرة تود مصاهرتكم !

فصاح به حسنين :

ــ هذه شحاذة !

فقال حسن بيقين :

ــ كلا . الشحاذة شىء آخر اسألنى أنا عنه . أما هذه فهدية ، هدية ، هدية !

وتكلم حسين لأول مرة فقال :

ــ هدية من النوع الذى كنا نهديه فى الأعياد الى الكناس وصبى الفران ...

وغضب حسن لأنه كان يطمع أن يضم حسين الى رأيه أو أن يبقى على الحياد فى الأقل ، وقال محتدا :

ــ لا تخلط بين الهدية والصدقة ، اذا أعطيت الكناس فهى صدقة ، أما اذا أعطيت صديقا فهى هدية ...

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هذر غير مجد فخفض عينيه وقال فى حياء وألم :

ــ الواجب أن يكون المهدى هو الخطيب لا الخطيبة ..

فقال حسن ساخرا :

ــ هذا اذا كان هو الذى طلب يد الخطيبة ، أما اذا كانت هى التى طلبت يده ...

ـ حسن ! . .

ـ أرحنا من الفلسفة التى لا تشبع من جوع . لا عيب فى قبول هذه الهدية . كانت هدايا أحمد بك يسرى تحمل الينا فى المواسم ، وعلى فكرة ما باله قد نسينا هذا العام أين الكلب ؟ ! . هذا رجل غير وفى . فريد افندى رجل الوفاء حقا . ومن حسن الخلق أن نقبل هديته . ثق بأنه اذا كان فى القبول ما يمس الكرامة لكنت أول الرافضين .

فقال حسين بكآبة :

ـ تصور ماذا يقولون عنا !

ـ تصور الشـواء وأنت تقلبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت .

والتفت حسنين الى أمه وسألها :

ـ علام نويت ! ؟

فقالت المرأة دون أن تنظر اليه :

ـ لم يسعنى الا القبول . . .

وساد الصمت ، لا لأن أحدا لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم فى صدورهم بين غضبة ضمائرهم ورغبتهم فى الاستمتاع ببهجة العيد ولذائذه . وهم الى هذا كله كانوا يؤمنون بأمهم ايمانا كبيرا ، كأنها لا يمكن أن تخطىء ، فاذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها . هذا ما قالوه لأنفسهم ، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر منهم لينجو من حيرته . وكانت الأم أسوأ حالا منهم . ولم تجد من عزاء الا فى هذه الحقيقة وهى أن فريد افندى اضطرها الى القبول بالحاحه وحرارة صداقته وقد رحبت باثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد فى قبول الأبناء عزاء ، فلما أنست من الابنين المهمين معارضة تضاعف ألمها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب ، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبعون الا فى الأعياد شأن المساكين

الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من أهل الخير . انحدار يعقبه انحدار ولا تدرى أين يقف . أما حسن فقد اطمأن . ولم ير بأسا فى أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ :

— قبل النبى مرة هدية أهداها اليه يهودى فهل يكون فريد افندى شرا من اليهود ؟ !

فتساءل حسين فى دهشة :

— من قال هذا ؟

— التاريخ !

— أى تاريخ !

فصاح به حسن :

— أحسبت أنهم يقولون لك كل شىء فى المدرسة ؟

فقال حسنين بحدة :

— حدثنا عن التاريخ الذى تعلمه الشوارع .. !

فتظاهر حسن بالغضب وقال :

— قسما برب العزة لولا أنك سبب هذه الهدية لكسرت رأسك .

ثم استدرك قائلا :

— وعلى هذا كله كان الواجب يقضى بأن يهدوا الينا خروفا كاملا لا نصف خروف (ثم ملتفتا الى نفيسة) احذرى أن تقبلى الهدية الا اذا كان فيها نصف الكبد أيضا ..

٣٠

وقفا متقابلين ينتظران الترام . هى فى معطفها القديم الذى تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر ، وهو فى البذلة التى تبدو عليه قلقة جافية . وكان يلوح فى وجهه التردد ، والرغبة المعذبة فى الافصاح عن شىء يثقل عليه الافصاح عنه ، ثم خاف أن يجىء الترام قبل أن يتكلم فقال فى ارتباك :

ـ نفيسة ... يخجلنى جدا أن أصرح لك بأمر ...

فتساءلت الفتاة :

ـ ماذا بك ؟

فقال همسا :

ـ أمرنى أبى أن أصحبه اليوم الى حضرة شيخ الشاذلية فرفضت حتى أثرت غضبه ..

وشعرت بخوف لم تدر كنهه ، لعل ذكر أبيه الذى هيجه ، وتوقعت خبرا غير سار ، فرمقته بعين متسائلة دون أن تنبس ، فقال بصوته الهامس :

ـ ثار غضبه لعنادى وحرمنى أجرة يومى !

وحلت الدهشة محل الخوف وسألته :

ـ أليس معك نقود ؟

ـ كلا . أبى رجل جبار ، ربنا يأخذه ..

فقالت لنفسها « آمين » ثم تمتمت :

ـ معى بعض النقود ..

فسكت لحظات فى قلق ثم سألها فى خجل :

ـ هل تدفعين ثمن التذكرتين أمام الجالسين ؟

وفطنت الى ما يريد ، فرقت له ، وفتحت حقيبتها وتناولت شلنا وأعطته اياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال :

ـ شكرا لك . سأرده اليك فى اللقاء الآتى ...

ثم قال مستطردا بعد تردد :

ـ أو خذى اذا شئت به حلاوة أو جبنا .

فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص :

ـ ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أننى لا أدفع ثمن ما آخذه ؟

فضحك قائلا :

ـ انه لا يرى أبعد من موضع قدميه ..

وجاء ترام روض الفرج فصعدا اليه وجلسا متجاورين .

« كيف أبذر نقودى على هذا النحو ؟ . البيت فى شديد الحاجة الى كل مليم مما أجنى من عملى الطويل . أمى لا تفتأ تبيع قطع الأثاث . حتى أخى حسن أحق بهذا الشلن من هذا المفلس . ماذا أفعل بنفسى ؟ . انى أبعثر نقودا أخرى لابتياع البودرة والأحمر . أواه . انه ليس رجلا . لو كان رجلا لما تعلق بأبيه هذا التعلق المضحك ، ولما خافه هذا الخوف . حرمه الرجل يوميته كما يحرم الطفل مصروفه . بيد انى أحبه وأريده . انى له نفسا وجسدا . ليس لى سواه . من أين لى هذه النفس التى تسيمنى هذا كله ؟ ! » وسمعته يهمس فى أذنها :

— من المؤسف حقا أن أمى عادت من بلدة أختى فلم يعد البيت خاليا ..

ليست بحاجة الى من يذكرها بهذا . فهى تعلمه حق العلم . بيد أنها سرت فى أعماقها بفتحه هذا الباب . ودبت فى جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة ، تذكرت هذا فى حرارة مشوبة بخوف . ولم تشأ أن تعلق على قوله فتجاهلته عن حياء ، وتورد وجهها الذى جعله الزواق مثيرا للنظر . أمى عادت ، وأبى لا يرضى ! ، متى ينتهى هذا كله ؟ ! . متى تملكه بلا خوف ، وبشرع الله ؟ ! . آه ثم آه ، لشد ما يركبها الخوف أحيانا فتود الموت نفسه والراحة من الحياة جميعا . وعاد صوته الهامس يقول :

— ولكنى سأخلق الفرص بنفسى . لا بد أن تعاد الفرصة ، وأن يخلو البيت ..

فقالت بصوت بارد :

— لا .. لا .. لا داعى لهذا ..

— الله يسامحك .. أنسيت ؟ .. أنسيت حقا ؟ ! . لا يجوز أن نموت فى فترة الانتظار . لا أحب الانتظار ..

أليس الانتظار خيرا مما فعلت بنفسها ؟ . بلى . كلا . بلى .

كلا . بلى بلى . كلا كلا . بلى بلى بلى . كلا كلا كلا . وتنهدت في حيرة ، وعاودها شعور اليأس الذى ألفته ، ولكنها قالت :

ـ لا أحب الانتظار مثلك ، ولكنى لا أحب هذا أيضا ..

فقال بمكر :

ـ كاذبة . تحبينه وتحبينه . هل نسيت .. ؟ محال ..

ـ لا أذكر شيئا ..

ـ لن أنسى ما حييت ! .. أنت غاية فى الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحنى ..

ـ هس . أنت مجنون ولا شك !

ـ مهما يكن من أمر فسنجد حتما طرقات خالية مظلمة ..

ـ حذار . بصرك ضعيف كأبيك ، وقد تحسب الطريق خاليا والشرطى أمامك !

ـ البركة فى عينيك أنت ..

ثم قال متنهدا بعد لحظة صمت :

ـ متى يتاح لنا الزواج ؟ !

فآلمها تساؤله وأغاظها ، وأخجلها فى الوقت نفسه ، ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق .

٣١

انتصف الليل ولم يكد يبقى فى قهوة الجمال الا نفر قليل ، وكان حسن يجلس الى مائدة خالية بعد أن فارقها أصحابها تاركين فى جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم . كان يجلس كالمتفكر ملقيا على المقهى نظرة خامدة من عينيه المتعبتين . هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوما الماركات فى طبق صاج كبير ، على حين وقف النادل مستندا الى احدى ضلف الباب

واضعا احدى يديه فى جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها فى اغراق شهى . « رحمك الله يا أبى ، ألا تعلم بأنى تعبت كثيرا بعد موتك ؟ . كان نزاعنا لا يهدأ ، وكنت أشعر أحيانا بأنى أمقتك ، ولكن أين أيامك ؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة فى بيتنا . وماذا يأكلون ؟ . الفول غذائى الوحيد ، فول ، فول . الحمير تجد شيئا من التنويع . » لماذا لا يبحث جادا عن عمل ؟ . جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كادت تودى به الى السجن : كلا ، ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه . ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقيرة . الواقع أنه يتعيش من السرقة ، انه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم . أنهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهمونهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنهم يسرقونهم . حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش ، كيف يستنيم الى هذه الحياة ! . لم يكن لا سعيدا ولا راضيا ، وكأنه كان ينتظر معجزة تنتشله من وهدته الى حلم من الأحلام . كانت حياته عادة ضارية كالمخدر المهلك ، أعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقى حائزا — رغم هذا — مركزا مرموقا مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعا بسيطا أو عاملا مطيعا ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه الى جده ، ولا تزال تطن فى أذنيه شكاتها المكروبة ، تطارده كلما أفاق الى نفسه . انه يحب أمه ويحب أسرته ، ولكنه ينتظر ، وينتظر ، دون أن يحرك ساكنا . لا أزال فى البداية . عمل حيوانى طويل بقروش . حماقة خير منها . .

— مساء الخير يا سى حسن .

ورفع رأسه منفتلا من سحابات أفكاره فرأى الأستاذ على صبرى يجلس قبالته فى هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحا وهتف به :

— مساء الخير يا أستاذ .

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت الى حسن وقال دون تريث :

ـ قررت أن نعمل معا ! .. أعنى أن أضمك الى تختى .. !

واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف . ان التخت هو العمل الوحيد الذى يحبه ، لا لميل فنى مركب فى طبعه ، ولكن لأنه يسير ولذيذ وينسم جوه عادة بأريج الخمر والمخدرات والنساء . ومع أن أمله فى على صبرى كان دائما محدودا الا أنه كان يراه شيئا خيرا من لا شىء ، ولعله عتبة لما بعده ، أجل من يدرى ! ؟ قال :

ـ حقا يا أستاذ ؟

ـ بدون شك .

ـ هل نعمل فى صالة أو قهوة ؟

فتخلل الأستاذ شعره الثائر بأصابعه الطويلة النحيلة وقال :

ـ سترسى الى هذا يوما قريبا . وربما غزونا الراديو نفسه . ولكننا سنقتصر بادىء الأمر على الأفراح ..

وسرعان ما خمد الحماس . ولو كان على صبرى شخصا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلا لصعقه بضربة تجعل عاليه سافله . لقد عمل معه بالفعل فى بعض الحفلات العائلية نظير ريال والعشاء ، وما كان هذا ليحدث الا مرات فى العام ، فما الجديد فى هذا ؟ ! . وشعر بأن وراء هذه الدعوة أمرا ، وداعبه أمل جديد ، فتظاهر بالسرور وقال :

ـ ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك . أنت لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه .

فانبسطت أسارير وجهه ، ثم سأله :

ـ ماذا تختار من آلات التخت ؟ .. كنت حدثتنى عن المرحوم والدك كعواد بارع ؟

ـ لم أتعلم آلة على الاطلاق ..

- ولا الدف ؟

فقال حسن بقلق :

- سبق أن جربتنى كسنيد ، وأظننى أنفع « سنيدا » ..

فهز الأستاذ رأسه قائلا :

- كما تشاء . هل تحفظ أدوارا كثيرة ؟

- مووايل وأدوار وطقاطيق ..

- أحب أن أسمعك منفردا ..

وشعر حسن فى أعماقه بسخرية . نفخة كذابة وامتحان لحساب أمل ضعيف !. ولكنه كان مصمما على مجاراته الى النهاية . كان يحلم بأن يغنى لحسابه الخاص يوما ولو فى المقاهى البلدية . وانتظر حتى جاء النادل بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى ، وتنحنح ثم سأل الأستاذ :

- ما رأيك فى موال : يا عينى ليه بتبكى ؟

- عال ...

وراح حسن ينشد الموال فى صوت غير مرتفع ، مجيدا ما وسعته الاجادة ، والآخر يذهب معه برأسه ويجىء متظاهرا بالاستغراق ، حتى انتهى حسن ، فقال :

- هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيد . أحب أن أسمعك فى الهنك أيضا ، هل تحفظ « فى البعد يا ما كنت ألوح ؟ » .

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرته واشتعل حماسه وندافع يغنى الدور حتى أتى عليه ، فقال الأستاذ :

- عال ، عال ، هل تعرف أصول النغم ، السيكا والبياتى والحجاز وغيرها ؟

وكان لا يداخله شك فى جهل الأستاذ بهذه الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد فى غيره :

- طبعا .

- أسمعنى ليالى رست ..

فأنشد بعض الليالى كيفما اتفق ، فهز على صبرى رأسه قائلا :

ــ برافو .. هات أخرى نهاوند ..

وانطلق يغنى وهو يغالب سخريته القلقة فى صدره والآخر يتابعه باهتمام ظاهرى ، ثم لاح فى وجهه التفكر فجأة وبدا كأنه يريد الافصاح عن شىء هام . وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرا ترى هل يريد أن يندبنى الى معركة ؟ .. ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ . وقال الأستاذ :

ــ صوتك حسن . بيد أن العمل فى التخت يتطلب مهارة أخرى . ينبغى أن نتفاهم تماما . وعلى سبيل المثال أقول لك انك يجب أن تأخذ بقسط وافر من أساليب الدعاية ..

ــ الدعاية ؟!

ــ نعم . كأن تنوه بغنى فى المناسبات . أن تسعى لاغراء البعض بطلبى لاحياء الأفراح ولك جزاء طبعا . أن تكون فى حفلة يحييها مغن ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان على صبرى فى مكان هذا المغنى . وهكذا ..

فابتسم حسن قائلا :

ــ هذا هين ، وأكثر منه ..

فقال على صبرى بعد فترة تفكر :

ــ ثم انك شاب قوى وجرىء وينبغى أن تستغل مواهبك الى أقصى حد . ولكن دعنى أسألك سؤالا قبل كل شىء : أى المخدرات أحب اليك ؟

ما الذى يدعوه الى هذا التحقيق ؟ أيريد أن ينفحه بهدية ؟! انه يجيد قبول الهدايا ، أما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها . أم يرمى الى اشراكه فى عمل هام ؟ ودق قلبه لهذا الخاطر . طالما حلم بتجارة المخدرات . على أنه آثر الحرص والحذر فقال بمكر :

ــ أظن أن المخدرات تؤذى الحنجرة ..

فضحك على صبرى ، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى

صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى ، ثم تساءل :

- ما رأيك فى هذا ؟

- لم أسمع له مثيلا !

فقال ساخرا :

- هذا نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول ، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين ..

- يا سلام !

- المخدرات دم الغناء ، وما من مغن يستحق هذا الاسم الا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدمس ..

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم :

- هذا لو تيسرت ..

- صدقت ، وهذا ما خمنته . انك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها . واذن فاعلم أنه من اليسير أن نجعل الأنهار خمورا والجبال حشيشا . انك جرىء قوى ولكنى لا أخفى عليك بأنى خفت كثيرا ..

- خفت ماذا ؟

فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال :

- أكره الناس الى من يقول « أخلاقى لا تسمح لى بكيت وكيت » أو من يقول « اتق الله » أو من يتساءل فى خوف « والبوليس ؟ ! » .. فهل أنت أحد هؤلاء ؟

فقال حسن مبتسما وهو يشعره بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء :

- انى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس ..

فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كغنائه وقال :

- فلنقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية ..

ولبث حسن متفكرا دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة . كان قليل الثقة فى محدثه ولكنه لم يكن يائسا منه كل اليأس . وكان يشعر فى أعماقه بأن ثمة انتظار طويل لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه .

٣٢

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الاخوة حين زارتهما صديقتهما صاحبة البيت . ورحبا بها ترحيبا يليق بأياديها البيض على نفيسة . وجلست المرأة بينهما على الكنبة ، وأبت حتى أن يضيئا مصباح الصالة ، وجعلت هى والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة الى المطبخ لاعداد القهوة . وكانت الأم تنتظر دائما من وراء زيارة صديقتها عملا مربحا لنفيسة ، وقل أن خيبت لها رجاء . لم يكن عقلها يخلو أبدا من هموم العيش ، خاصة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية ، وبات من المتوقع قريبا أن يضاف الى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنيها بدلا من المدرسة . كانت تشكو الى صاحبتها ما عانت من حياتها فى الأشهر المنقضية والمرأة تواسيها وتشجعها ، حتى عادت نفيسة بالقهوة . وأرادت المرأة أن تعلن عما دعاها الى هذه الزيارة فقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها :

ـ جئتك بعروس جديدة ..

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت :

ـ يحق لى أن أطلق على نفسى خياطة العرائس !

ـ أسأل الله أن تعدى ثياب عرسك بنفسك قريبا .

فتمتمت الأم قائلة :

ـ آمين .

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها ، على ما أثار فى نفسها من قاتم الذكريات . « متى يمكن أن أكون عروسا ؟ ليس قبل أن يموت عم جابر سلمان . يا للسخرية . أمل كلفنى نفسى وجسدى . هل يدور هذا لأمى فى خلد ؟ ! . انها تحسب أن هموم المعيشة أكبر الرزايا . يا لها من جاهلة بائسة . » . وتساءلت الأم :

ـ من تكون الزبونة الجديدة ؟

ـ العروس الجديدة هى كريمة عم جبران التونى البقال . .

وتنبهت حواس نفيسة لهذا الاسم الذى لا يمكن أن تنساه . فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة :

ـ دكانه عند تقاطع شارعى شبرا والوليد ؟

ـ بالضبط .

وضحكت الأم قائلة :

ـ أصبحت جوالة يا نفيسة كشيخ الحارة . . .

فضحكت الفتاة ضحكة آلية وقالت لنفسها « هى دون غيرها » . هى الفتاة التى كان عم جابر سلمان يرغب فى أن يزوجها لسلمان كما قال لها الفتى . فلتتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها . وتساءلت الأم :

ـ وهل جبران التونى هذا غنى ؟

ـ على جانب من اليسار لا بأس به . . .

ـ ومن العريس ؟

فضحكت المرأة وقالت :

ـ انه أقرب مما تتصورين . هو سلمان ابن عم جابر سلمان البقال .

ـ سلمان !

ندت عن نفيسة كالصرخة ، فالتفتت المرأتان صوبها فى

دهشة . وظنت الضيفة أنه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت :

– نعم سلمان . والظاهر أن عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان . وربك يعطى الأرزاق بلا حساب ..

أدركت رغم هول الصدمة أنها كادت تفضح نفسها فتماسكت فى جهد شديد . لقد انفجرت الصرخة فى صدرها بلا وعى وانطلقت من فيهـا دامية . ولم تعـد تستطيع أن تتـابع حديث المرأتين وشعرت بأنها تموت موتا سريعا منقضا . وساعدتها الظلمة على اخفاء معالم وجهها فشدت على أصابعها حتى لاتصرخ مرة أخرى . ماذا قالت المرأة ! . ليس ما بها كابوس أو جنون ، انه حقيقة بلا ريب ، سلمان جابر سلمان ، دون غيره . وعاودتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر فى ساعات انفرادها ، مخاوف غامضة أحيانا كقلق ينشب أظافره فى صدرها ، أو واضحة أحيانا أخرى تتبدى فى صورة بشعة يقشعر لهـا البدن . وخالت فى ذهولها لحظة أن ما بها ليس الا حالة مرعبة من هذه الحالات ، ولكن لم تكن الا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت . لقد ذاقت قساوة الدنيا مع أسرتها جميعا ولكنها لم تصدق أنها قاسية الى هذا الحد ، وعضت على شفتها وهى لاتدرى كيف تقاوم هذا الانحلال ، والتهدم السارىين فى روحها وجسدها . ما هى بخيبة الحب ، هى خيبة الحياة كلها ، ولكن يجب أن تتمالك نفسها ، وعسى أن تدعوها الضيفة الى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها ، أو تختنق من شـدة التأثر . ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار الى حين . ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت الى المطبخ . هنـالك زفرت من الأعماق ، وشدت بيديها على ضفيرتيها القصيرتين بشـدة وهى تحملق فى سقف المطبخ الملوث بالهبـاب وقد عشش العنكبوت بأركانه ، ولبثت فى جمود كالذاهلة . ولم يكن أملا ، ولكن خدعة ،

كذبة مفزعة ، ضربة قاضية ، سرقة ، لطخة ، جرحا لا يندمل ، وحلا ، لقد انتهت . انتهت بلا أدنى ريب . لا يمكن أن تتخيل أمها هذا ، أما حسين وحسنين فهيهات . رباه كيف استطاع خداعها الى هذا الحد ؟ كانا معا يوم الجمعة الماضى فأى مجرم هـذا وأى اجرام . ماذا يجدى الغضب أو الحقد ، أو الكراهية ؟ .. شعرت نحوه بالكراهية تقتل أى أثر للخير فى النفس . ما أشد حاجتها الى التفكر والتدبر ، انها تتلهف على مكان قصى خال ينأى بها عن هذا المحيط الذى باتت تضمر له البغض أشد البغض ، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هـذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الهوان ...

ـ نفيسة ... !

بلغ نداء أمها مسامعها فانتفضت فى ذعر ، ثم حنقت عليها حنقا شديدا كأنه المقت ، ولم تأت حراكا فأعادت الأم النداء فذهبت وهى تعض على نواجذها ، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمها تودعها عند الباب الخارجى . وقالت لها وهى تسلم عليها :

ـ تعالى الى بعد غد فنذهب معا الى بيت العروس ..

فأومأت برأسها بدلالة الايجـاب دون أن تنبس ، ولمـا أغلق الباب قالت الأم :

ـ سلمان ! . والله ما يستاهل هذا الحظ ...

فشعرت بخنجر ينغرس فى شغاف قلبها ، ولم تعلق بكلمة . وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنها أعجز من أن تتحمـل المكث الى جانب أمها ، وخطر لها خاطر كلسـان من لهب انشق عنـه صـدرها فمضت بقدم ثابتة الى حجرتها ، ثم عادت وقد ارتدت معطفها فسألتها أمها بدهشة :

ـ أذاهبة الى الخارج ؟

فقالت وهى تتوجه صوب الباب :

- نعم سأشترى شيئا للعشاء وربما ذهبت الى شقة فريد افندى ساعة ...

٣٣

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردد فى ثقل وصعوبة ، كانت السماء صافية ، مرصعة بالنجوم ، والجو باردا بعض الشىء تتخلله نسمات لطيفة من طلائع الربيع . وسارت الى الباب الخارجى ثم عرجت غير هيابة الى دكان عم جابر . كان الرجـــل العجوز عاكفا على مراجعة الحساب الختامى لليوم ، على حين وقف سلمان مرتفقا الطاولة ناظرا فيما بين يديه فى شرود . واقتربت منه وهى تلقى عليه نظرة حادة ملتهبة فرفع اليها عينيه الصـــغيرتين ولم تلبث أن لاحت فيهما نظرة جفول وارتباك ثم قال ببلاهة :

- أى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقالت بعزم وثبات :

- الحق بى فى الحال ...

فأومأ لها بالايجاب وهو يتظاهر بأنه يقدم لها شيئا من الدكان . ومضت الى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصر الله وهى تتفحص ما حولها بعناية وحذر . وطابت نفسها بما فعلت ، فما كان فى وسعها أن تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح . وجعلت تنظر داخل العطفة حتى رأته قادما بجلبابه وجاكتته مسرعا فى خطاه الملهوجة . حقير تافه ، شىء تعافه النفس ، مخادع مخاتل كذاب . ما أحقر هذا . ماذا هى فاعلة به ؟ . أترتمى على قدميه باكية مستعطفة ! هل تضرع اليه أن يظل لها وحدها ؟ بدا أن هذا كله شىء فظيع مستنكر ، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تدرى كيف تفصح عن نفسها ، فقبل ساعة واحدة كانت

تعده رجلها وتعد نفسها امرأته ، والهلاك أهون من أن تنفصم هذه العروة بين يديهـا . كانت شيئا وليست الآن شـيئا على الاطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل . واقترب منها فى حذر وغمغم دون أن يلتفت اليها :

ــ خير ؟

وأثار صوته حنقها ولكنها كظمت نفسها وقالت وهى تسير :

ــ اتبعنى الى شارع الألفى .

ومضت الى الشارع الجانبى بعيداً عن الأعين المستطلعة ، ثم أبطأت الخطو حتى لحق بها ، وبادرته قائلة وقد نفد صبرها :

ــ أليس عندك ما ترى اخبارى به ؟

فتساءل متجاهلا فى قلق وخوف :

ــ عم تسألين ؟

فغاظها تجاهله لدرجة الجنون وقالت بحدة مخيفة :

ــ ألا تدرى حقا عما أسأل !.. هات ماعندك وكفاك خداعا !

فتنهد فى تسليم وغمغم فى خوف :

ــ تقصدين مسألة الزواج ...

فقالت فى سخرية مريرة :

ــ أظن هذا . ألا تراها مسألة تستحق السؤال !؟

فقال بصوت شاك :

ــ أبى ...!

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبا وهياجا :

ــ أبى ، أبى ، أرجل أنت أم امرأة ؟ !

فقال بذل وخنوع وتسليم :

ــ رجل ولكن كعدمه !

ــ يعنى امرأة !

ــ سامحك الله . لا أسمع الا نهرا وتقريعا سـواء منك أو منه . ماذا أصنع ؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقا وغيظا . امرأة ، جبان ، حقير . كيف أحبته ، كيف هانت عليها نفسها فسلمت له ! ان سعيها اليه ، وتعلقها اليائس به ، وحرصها الذليل على استرجاعه ، هى شر ما تسيمها الدنيا من بؤس وعذاب . وصاحت به :

- يا لك من شاك باك حقير . كيف سولت لك نفسك الغدر بعدما كان . كيف أخفيت عنى الأمر ؟ أجب ...

فنفخ قائلا :

- مضى أبى الى هدفه على رغمى ، غير مقيم لرأيى وزنا حتى وجدت نفسى بين أمرين لا ثالث لهما : فاما النزول عند ارادته ، واما الموت جوعا .

- لماذا لا تبحث عن عمل فى غير دكان أبيك ؟

فتمتم فى نبرات يائسة :

- لا أستطيع ، لا أستطيع ..

فاحتدم الغيظ فى صدرها وقالت :

- يا لك من جبان حقير . ألا تعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة الى ؟!...

فقال بلهجة تقطر أسفا وحزنا :

- أعرف وا أسفاه . الله وحده يعلم بحزنى وأسفى ..

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش :

- حزين وآسف ، يا لك من مسكين ! وماذا تظننى صانعة بحزنك وأسفك ؟!. ان الحزن وحده لا يصلح الخطأ ، فماذا تظننى صانعة بحزنك ؟ لقد أوقعتنى فى ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعنى وحدى وتهرب ، ألا تفهم هذا ؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه ، ونظر صوبها فى خوف دون

أن يحرى جوابا . وأثارها صمته كما أثارها تظاهـــره ـ كانت متأكدة من هذا ـ بالأسف ، فقالت بحدة :

ـ ما عسى أن أصنع ؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض :

ـ وا أسفاه ... انى أدرك حرج موقفك ... لشد ما يؤلمنى هذا ... ولكن ... أعنى .. ما عسى أن أصنع أنا ؟!

فقالت بحقد وهى تكظم عواطفها الثائرة :

ـ أرفض هذا الزواج . لا نجاة لى الا بهذا ..

فقال بعجلة ضاعفت حنقها :

ـ أرفضه ؟!.. فات الوقت ...

ـ يجب أن ترفضه . لم يفت الوقت بعـــد . يجب أن تفكر فى .. لا نجاة لى الا بأن ترفضه ...

وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف :

ـ ليس فى وسعى هذا ...

وتولاها القنوط ، ولم يوح لها الشخص الخائر الماثل أمامها بأقل رجاء . وصاحت بانفعال :

ـ كان فى وسعك أن تفعل ما فعلت . وكان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة . ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ ، ليس بوسعك أن تمد يدا لانقاذى ...

ـ ما أشد ضيقى . ان أسفى لا حد له ...

ـ ماذا يفيدنى هذا الأسف ؟

ولما وجدته صامتا صرخت فى وجهه :

ـ ما يفيدنى أسفك ؟

فغمغم :

ـ ماذا عسى أن أصنع ؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفتت نحوه ، وانقضت

عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهى لا تدرى ماذا تفعل ، وصاحت فى وجهه :

ـ أتسألنى عما تصنع !. هل حسبتنى لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء ؟!

فقال وهو يحاول عبثا أن يخلص سترته من يديها :

ـ نفيسة ، اعقلى ، نحن فى شارع ...

فصاحت به وقد فقدت وعيها :

ـ جبان ، سافل ، وغد ، غادر ...

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية ، مرة ، وأخرى ، حتى رأت الدم يسيل من أنفه ، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب فى عنف وعدم انتظام . وتحسس سلمان أنفه بيده وبسطها أمام ناظريه فى صمت ، ثم أخرج منديله من جيبه ووضعه على فمه وأنفه . وبدا هادئا ساكنا على غير ما كانت تنتظر . شعر بادىء الأمر بخوف ، ثم حل محل الخوف ارتياح غريب ، كأنه جاز منطقة الخطر ، ولم يعد ثمة ما يخافه . انفرجت الأزمة ، وزال الخطر ، وسقط ما كان لها من شبه حق عليه بعد هذا الدم المسفوح ، وقال فى هدوء وصبر :

ـ سامحك الله يا نفيسة ، أنا عاذرك .

وهيجها حديثه فجأة فعاودها الجنون ، وانقضت عليه مرة أخرى بدافع غريزى ، ثم أمسكت بتلابيبه كشىء يريد الافلات وتأبى عليه ـ بكل قواها ـ أن يفلت . وركبه الذعر فانحل تماسكه ، ونتش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخا :

ـ اياك وأن تلمسينى . أبعدى عنى . ابعدى لاحق لك على ..

وهجمت عليه ولكنه دفعها فى صدرها وصاح بها فى هياج أحدثه الذعر :

ـ لا تلمسينى . لم أجبرك على شىء . لقد ذهبت معى الى البيت راضية . لا تلمسينى والا ناديت الشرطى !

وواصل تراجعه حتى أبتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبيه ومضى مهرولا كأنه يفر فرارا ...

وتسمرت فى مكانها وجسمها ينتفض انتفاضا . فقدت سلطان الارادة على جسدها وروحها وعواطفها . وبدا لها الأمر كحلم ، أو هذيان مرض ، أو حال لا تمت بصلة الى عالم الحقيقة . هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة ، أشياء هذه أم أشباح ؟! انها لا تدرى . بدا كل شىء بعيدا عن الواقع والحقيقة . ولعلها لم تثب الى وعيها الا حين انفجرت باكية بدموع حارة ملتهبة صاعدة من أعماق صدرها ...

٣٤

كان سلمان يمسح الطاولة حين رأى ظل شخص ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفا حياله . وسرت فى جسده قشعريرة رعب فكأن صاعقة انقضت على رأسه . وكان حسن يقف بقامته الطويلة ، منفوش الشعر ، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال ، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف والجراة . وقال سلمان لنفسه « انى هالك . اذا كانت نفيسة قد أفضت اليه بسرها فساعتى قد دنت ولا شك » ونظر اليه كما ينظر الفأر الى القط دون أن ينبس . وقال حسن بصوت مرتفع رن فى أذنيه رنينا مؤلما مخيفا :

ـ السلام عليكم ...

ورد عم جابر سلمان من وراء مكتبه قائلا :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . كيف حالك يا سى حسن ؟...

وذهل سلمان فى خوف عن رد التحية وقال لنفسه « ماهذه

يتحية ، هى نذير . رباه كيف تعرضت لفتاة لها مثل هذا الأخ ؟!» .

وقال حسن :

ـ الحمد لله . لقد جئتكم لأحدثكم فى أمر هام جدا ...

انه يعلم بهذا الأمر . وعما قليل يعلم أبوه بالفضيحة . هاهو الشيطان يقترب . لقد رفع طرف الطاولة ومرق الى الدكان . لا يفصله عن قبضة يده شبر . أية حماقة جعلته يعتدى على نفيسة ؟! ليته يمهله حتى يرفض الزواج ويصلح خطأه . ومال حسن على المكتب معتمدا حافته بكلتا يديه ، وردد بصره بين الأب والابن ، وسلمان مطرق فى توقع مروع للضربة المتجمعة . وقال حسن :

ـ علمت ان زواج سلمان قريب ؟

فقال عم جابر :

ـ ان شاء الله . العقبى لك ...

ـ وليلة الفرح ؟

ـ قريبة جدا ان شاء الله .

فنقر حسن بأصابعه على المكتب وقال بجراة :

ـ نحن جيران ياعم جابر وأحسبنى خير من يحيى هذه الليلة .!

واتسعت عينا سلمان الصغيرتين . انه لا يصدق أذنيه .. ألهذا الغرض جاء ؟! كيف غاب عنه أن نفيسة تفضل الموت نفسه على البوح بسرها لهذا الأخ الجبار ! وندت عنه ضحكة . وأردفها بأخرى . ثم انفجر ضاحكا ضحكا عصبيا لم يتمالك معه نفسه حتى التفت حسن وأبوه نحوه فى دهشة وانكار ، وسرعان ما أمسك . ثم خاطب حسن قائلا فى أريحية وسرور :

ـ لا كانت الليلة ان لم تحيها أنت ..

وابتسم حسن فى رضى وخاف الأب عواقب هذا الوعد الأحمق فقال :

- على العين والراس يا سى حسن . لا يمكن أن يوجد مانع من ناحيتنا ، ولكننى أخشى أن يكون لوالد العروس رأى آخر ..

فرمقه حسن بريبة ثم قال :

- الرأى رأى والد العريس .

فقال عم جابر برقة :

- أنت من نفضل يا سى حسن ، ولكن أمهلنى حتى أشاور عم جبران التونى ...

فتفكر حسن مليا وقد أخذ دم الغيظ يجرى فى عروقه ، ثم قال بلهجة ذات معنى :

- شكرا لك يا عم جابر . ولكنى أحب أن أذكرك بالفوائد التى تقترن باحيائى ليلة الفرح . وأهم هذه الفوائد فى نظرى أن شخصا مهما بلغ من القوة والشر لن تحدثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيرا .

فلاح الاهتمام فى وجه الرجل العجوز ، وأدرك بسهولة ماوراء هذا الكلام الطيب من الوعيد ، ونظر فى وجه الشاب المخيف مبتسما وتساءل فى لين ورقة وابنه يتابعه فاغرا فاه :

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمر بأمن وسلام .

فضحك حسن ضحكة غريبة وقال :

- يوجد كثيرون لاهم لهم آلا الشر والاعتداء ، وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء ..

فقال العجوز بحذر :

- كان هذا فى الزمن الغابر ، أما الآن فلعلهم يخافون الشرطة .

فقال حسن وهو يهز رأسه مبتسما :

- انهم لا يحسبون للشرطة حسابا . وينتهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة . وما أيسر عملهم الذى يتوجه بادىء الأمر الى تحطيم المصابيح ، فاذا انقلب الفرح ظلاما وركب الخوف

النفوس أتم المدعوون عملهم وهم يتخبطون فى الظلام لا يدرون أين تقع أرجلهم ، فتنهار الزينات وتنقلب المقاعد ويندلق الطعام وتسرق الملابس ويصاب أهل العروسين بجروح خطيرة . واذا انجابت موجة الشر يجد القوم أنفسهم أشد حاجة الى رجال الاسعاف منهم الى رجال الشرطة . وأين الفاعل ؟.. مجهول .. واذا أرشد اليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحول القضية من محكمة الجنح الى محكمة الجنايات . واعطنى عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجانى بعد ضياع الأنفس والأموال ؟!

وأنصت عم جابر بانتباه ، وفى تشاؤم ثقيل ، وشعر بعجزه حيال الشر الماثل أمامه الذى يعرف من سيرته ما يعرف الجميع . ولم يدر كيف يدفعه فتعزى قائلا انه على أية حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها ، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

ـ مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسول لهم نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا !

فابتسم حسن فى ارتياح وقال :

ـ انك رجل كريم يا عم جابر ، ولعل الأيام تسعدنى باحياء فرحك انت اذا نويت الزواج مرة أخرى .

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد الخطر المحقق . أما الأب فابتسم ابتسامة صفراء وغمغم :

ـ عفا الله عنك ..

وسعل حسن سعالا مصطنعا وقال بلهجة جديدة ودون تلعثم :

ـ لا أحب أن أطيل عليك . آن لى أن أذهب شاكرا بعد قبض مقدم الأتعاب ..

فقال العجوز بجزع :

ـ الآن .. ؟!

ـ خير البر عاجله . لست الا مغنيا متواضعا لاتتعدى أتعابه ـ هو وتخته ـ الخمسة جنيهات ، وأقنع الآن بجنيه واحد ..

وصمت الرجل متحيرا حينا . ثم قال لنفسه « الأمر لله من قبل ومن بعد » وفتح درج المكتب وتناول جنيها ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول :

ـ ربنا يتم بالخير ...

٣٥

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعتها على الأثر صاحبة البيت. أرادت المرأة أن تصحبها الى بيت عم جبران التونى لتقدمها الى آله بنفسها وقد أخذت نفيسة زينتها وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه وارتدت أحسن ما عندها من الثياب . ولم يكن يغيب عن شعورها لحظة واحدة ما فى رحلتها من غرابة . وقد قالت لنفسها كثيرا أنه من الجنون أن تذهب الى هذا البيت ولكنها لم تدر كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة التى فرحت بها أمها أيما فرح . والحق الذى لا مرية فيه أن حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها ، أو أنه دارى هـذه الرغبات مداراة لم تخف عنها . كانت تود رؤية العروس مهما كلفها هذا من عناء ، وكانت رغبتها من القوة والتغلغل بحيث لايمكن مقاومتها . وليس يمكن القول بأنها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها ، فهى تعلم بالبداهة أنها ـ العروس ـ أجمل منها ، وليس فى هـــذا من جديد ، ولكن على رغم وضوح هذه الحقيقة ظلت رغبتها فى رؤية الفتاة مشتعلة لا تقاوم ، وكأن رباطا وثيقا يصل أسبابها بأسبابها ، ويقرن مصيرها بمصيرها . ولم تكن أفاقت من أثر الصدمة العنيفة التى هرست نفسها وجسدها هرسا ، ولكن انقضاء أيام أخمد الثورة الهائجة ، فى ظاهرها على الأقل ، وأحل محلها مرارة سامة ويأسا مميتا ، وشعورا معذبا بالوحشة ، كأنها غريبة بين أهلها ،

شاذة عن المخلوقات ، الى احساس بالظلم طاغ بعث فى نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبا متواصلا ، رغبة فى التمرد والجموح ورغبة فى الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت ، وقد ركبت الترام وهى على هذه الحال ، وتلهفت على اللقاء القريب، وهاتان الرغبتان المتناقضتان تتعاورانها . وغادرتا الترام بعد محطات أربع ، واتجهتا الى شارع الوليد ، ثم مالتا الى عمارة كبيرة تقوم فى أسفلها بقالة عم جبران التونى . وصعدتا الى الدور الثانى ودخلتا شقة به . واستقبلتهما سيدة فى الخمسين متوسطة القامة مفرطة فى السمنة ، بيضاء البشرة ، فدخلن جميعا حجرة الاستقبال ، وما أن استقر بهم المجلس حتى قالت الست زينب صاحبة بيت نفيسة :

ـ هذه ست نفيسة ، وستشهدين لها بالمهارة والذوق .

فقالت السيدة :

ـ حدثتنا ست زينب عنك كثيرا . أهلا وسهلا ...

وآلمها الثناء كأنه سب وهجاء ، وأغاظها وأحنقها لسبب لا تدريه ، وتزعزعت ثقتها فى أعصابها أن يفلت زمامها من يدها . أما السيدة فمالت نحو باب الحجرة ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودق قلب نفيسة ، ورجحت أنها تنادى العروس وخيل اليها أنها تسمع سلمان وهو يهتف بهذا الاسم ، وخالته يضمها الى صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته المتهدج « عديلة .. أحبك ، أحبك أكثر من الدنيا والآخرة معا » ، فهذا قوله عادة اذا أذهلته حرارة الاحساس . وهو قول كاذب ، أو هكذا كان بالنسبة اليها ، والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة . وتوجه رأسها نحو الباب ، متألمة قانطة حانقة ، وعندما سمعت وقع أقدام آتية داخلها احساس آخر بالخوف فودت لو كان بوسعها أن تختفى ، ولعله كان احساسا عارضا سطحيا . وجاءت فتاة فى مقتبل العمر ، متوسطة القامة كأمها بيضاء البشرة ، بيضاوية

الوجه ، كبيرة القسمات ولكن فى تناسق حسن ، بيد أنها سمينة لحد الافراط . وتساءلت نفيسة فى نفسها كيف تصير اذن اذا تزوجت ! واضطربت فى أعماقها ضحكة ساخرة متوترة لم يتح لها التنفس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت باضطراب عصبى بذلت جهدا شديدا للتغلب عليه . وتم التعارف وتبادل السلام دون أن تنبس خشية أن تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزقت قلبها شر ممزق . هذه التى سلبتها رجلها ، رجلها دون غيرها بعد ما كان ، فلا توجد امرأة له امثل ما لها عليه من حقوق ، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون هى الخياطة التى تعد لها ثياب العروس ؟ ! . من أجل هذا تستحق الدنيا أن تكون طعمة للنيران ، ولن تكون أحمى من النيران التى تلتهم قلبها . رباه كيف تستطيع العمل بهذه الأعصاب المريضـــة ؟!. وغادرت المرأتان الحجرة تاركتين الفتاتين معا . وجاءت خادم بالأقمشة ووضعتها الى جانب نفيسة على الكنبة فوجدت فيها مهربا من أفكارها وراحت تتفحصها باهتمام ظاهرى وعيناها المنكستان تسترقان النظر الى قدمى العروس . وسألتها العروس قائلة :

ـ هل سبق أن خطت ثياب عرائس ؟

ورفعت اليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن تتوقع أن توجه اليها خطابا وقالت باستهانة :

ـ كثيرا جدا ...

ـ أظن هذا يجعل العمل يسيرا عليك .

ـ لا أجد فيه أثرا لصعوبة ..

كانت اجابتها تعبيرا عن احساس بالتمرد والثورة يتجمع فى أعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع . وصمتت العروس هنيهة ثم عادت تسألها قائلة :

ـ هل تسكنين فى عمارة ست زينب ؟

فقالت مدفوعة بالاحساس نفسه :

ـ نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبى موظفا بوزارة المعارف . .

ـ أخبرتنا بهذا ست زينب . ألا تعرفين أن بقالة العريس قريبة من عمارتكم ؟

ووجدت شكة دامية فى قلبها ، وخفضت عينيها أن ترى الأخرى ما ارتسم فيهما ، ثم تمتمت :

ـ تعنين بقالة عم جابر سلمان ؟

ـ هو نفسه . العريس ابنه ، ألا تعرفونه ؟

« أعرفه أكثر منك !.. لن تعرفيه مثلى قبل أشهر ! .. وستجدينه حيوانا وغدا » . قالت :

ـ نعرفه حق المعرفة . ألم تريه ؟

ـ قابلته هنا مرة واحدة . .

وسألتها بدافع لم تستطع مغالبته :

ـ هل أعجبك ؟

فضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافا ، وقالت :

ـ كانت الحجرة مزحومة بالمدعوين ، وأنت تعرفين هذا الموقف طبعا !

فقالت بلهجة باردة :

ـ لست أعرفه . .

فضحكت العروس قائلة :

ـ دعينى أسألك أنت التى تعرفينه حق المعرفة ، ما رأيك فيه ؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقعه . وانهارت القوة التى تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنما انفجرت فيها قنبلة خفية . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد والجموح والجنون ، فقالت بصوت غريب :

ـ ليس هو من النوع الذى يعجبنى . .

وغاضت آثار الضحكة من عينى العروس ، واتسعت عيناها

فى دهشة وانكار ، وجعلت تنظر الى نفيسة لحظة ساهمة واجمة كأنها لا تصدق أذنيها ، ثم تساءلت بغرابة :

ـ حقا ؟! ترى ما النوع الذى يعجبك ؟

فقالت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية :

ـ دعك من هذا . المهم أن يعجبك أنت ، أليس كذلك ؟

فقالت ولما تفق من دهشتها :

ـ أظن هذا ..

ـ مبارك عليك ..

ولكن الفتاة لم تقبل أن ينتهى الحديث عند هذا الحد . أفاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة فى تهكم :

ـ وزبوناتك الأخريات من العرائس ألم يكن أزواجهن من النوع الذى يعجبك ؟

وأدركت نفيسة ما فى قولها من التهكم والتحدى فتمادت بها روح الشر التى ركبتها واندفعت قائلة وكأنها تلقى عبئا ثقيلا عن كاهلها :

ـ جميعهم جديرون بالاعجاب حقا ، فهم موظفون محترمون !

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التى لم تكن تتوقعها وتساءلت بغضب :

ـ ألا يكون الانسان محترما الا اذا كان موظفا ؟

فقالت نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعياها التحكم فيه :

ـ أعتقد هذا ..

فصرخت العروس قائلة :

ـ واذا كان خياطة ؟

فقالت نفيسة بحقد وغضب :

ـ لا على أن أكون خياطة . اخوتى طلبة مثقفون ، وكان أبى موظفا محترما ..

ـ حقا لا يستاهل الرحمة كل المساكين ما دام يوجد بينهم من هو فى قلة أدبك !

ـ لا يدهشنى هذا السباب من ابنة بقال ..

فهبت العروس واقفة وهى تنتفض غضبا وصاحت :

ـ يا مجرمة ، يا قليلة الأدب ، اغربى عن وجهى قبل أن أدعو الخدم ليرموك خارجا ..

ونهضت نفيسة فاقدة الوعى ، وتناولت بقجة الأقمشة وقذفتها فى وجهها فانتثرت الحرائر على كتفى العروس وتحت قدميها ، وتلوت على الأرض فى ألوانها الزاهية ، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها هادرا بأقذع أنواع السباب ، وتركت الشقة فى لهوجة الفرار . وتراخت أعصابها المتوترة ودخلها ارتياح غريب . وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت واجمة متفكرة وبدا لها سلوكها على حقيقته . « ما هذا الذى فعلت ؟ . سيقولون كل شىء لست زينب وستقول هذه بدورها كل شىء لأمى . لا بد أن تغضب أمى ، وستحزن كثيرا على الربح الذى أضعت بحماقتى . ولكننى أقول لها ان العروس خاطبتنى بعجرفة ، وأهانتنى بلا سبب حتى ثرت لكرامتى . واذا لم تقبل عذرى أبث شكواى بصوت مرتفع ليبلغ مسمعى حسنين فيغضب لغضبى ويثور لكرامتنا وينتهى كل شىء . هذا حسن . ولكن كيف اندفعت الى هذا !. أى جنون !. لم يكن فى نيتى شىء من هذا فكيف حدث ؟ . وضاع عمل مربح . ولكن لا داعى للأسف . لدى عمل لا بأس به فى هذا الشارع نفسه . لست آسفة على ما وقع » . وانتهت الى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس الا أثر خفيف فى أعلى الدور . وسارت على الطوار فى اتجاه المحطة فمرت فى طريقها بجراج لاصلاح السيارات ، وكانت غائبة عما حولها فى تيار أفكارها ، فما تدرى الا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول

« أهلا وسهلا » ورفعت رأسها فرأت شابا ذا بنطلون وقميص خاكيين ، مشمرا عن ساعديه ، يدل مظهره على أنه من عمال الجراج ، فألقت عليه نظرة شذراء وتنحت عن موقفه ، ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال :

- حلمك يا ست هانم ، انظرى الى يسارك ، هذه السيارة ملك العبد لله . وهى على قدمها تستطيع أن تحملنا الى أى مكان شئت ، محسبوك محمد الفل صاحب هذا الجراج ولا فخر !

فصاحت به :

- ابعد والا ناديت العسكرى ..

فضحك الشاب وقال :

- لا داعى لذلك . أنا أحب النسوان ولا أحب العساكر ..

٣٦

فى الأسابيع التالية أدى الشقيقان امتحان النقل فى ختام العام الدراسى ، وكلل اجتهادهما بالنجاح فانتقل حسين الى السنة الخامسة ، وحسنين الى السنة الرابعة . كانا يعلمان أنه لابد لهما من النجاح ، وأن حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات ، فواصلا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يحبان . وبدأت العطلة الصيفية التى تمتد حوالى الخمسة الأشهر فاستجدت متاعب جديدة للأم تتعلق بغداء الشابين . وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام ، وتعتمدان فى الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصادا لنفقات اللحم والسمن والوقود ، فوجدت المرأة نفسها مضطرة الى تعديل هذا النظام القاسى مهما كلفها الأمر من عناء وتدبير . وهكذا لم يسر أحد بالنجاح الا قليلا ، وبدت الحياة وكأنها تزداد مع الأيام تجهما وتطالعهم بعبوس بعد

عبوس . وفى ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة ، وأقبل على أسرته ضاحكا كعادته ، وكثيرا ما يدارى بضحكه حرجه وارتباكه ، وقال :

- مساء الخير يا أمى ، مساء الخير يا أولاد . أوحشتمونى كثيرا . .

ورد اخوته التحية وهم يرمقونه بدهشة ، أما أمه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل . بيد أنها عدلت عما كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحث على العمل . هيهات أن يجدى الكلام بعد ما كان . وألح عليها الحزن الذى يغشى نفسها كلما فكرت فى أمره أو وقعت عليه عيناها . حتى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال ، وانها لتعلم سلفا بما أعد - طبعا - من جواب ، سيقول بصوت مؤثر انه يختفى حتى يوفر عليها نفقة اطعامه وايوائه ، وانه لا ينى عن البحث عن عمل الخ . أما اخوته فالحق أنهم سروا برؤيته بعد اختفائه الطويل . كانوا يحبونه كما كان يحبهم ، وسألته نفيسة :

- حمدا لله على السلامة ، أين كنت طوال هذه الأسابيع ؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب ، ثم جلس على الفراش وقال باسما :

- أكل العيش يحب التعب ! (ثم ملتفتا الى أمه) . . ابشرى يا ست أم حسن . أخذت تفرج !

فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريبة واهتمام معا ، ثم تمتمت فى شىء من الأمل :

- حقا ؟ !

فضحك سرورا باثارته لاهتمامها بعدما لاقى من تجاهلها وقال :

- سبق أن أخبرتكم بأن الأستاذ على صبرى ضمنى الى تخته . .

فتنهدت الأم فى جزع وقالت :

ـ لا أعتقد أن هذا عمل جدى ..

ـ لقد دعى الأستاذ منذ أسبوع الى احياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعا . انى أعلم أنه مبلغ تافه ولكن الرزق دأبه التمنع بادىء الأمر ...

فقالت الأم فى ضيق :

ـ أتوسل اليك للمرة الألف أن تبحث لك عن عمل جدى لخير نفسك ان لم يكن لخيرنا نحن . ما عسى أن أقول يا حسن ؟ ألا تعلم بأننا لا نكاد نشبع أبدا ؟

وخفض عينيه فى ارتباك . كان حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التى يخفق بها قلبه ، ولعلها الأثر الوحيد الذى تركته أمه فى خلقه . وغمغم قائلا :

ـ صبرك ، لم أفرغ من كلامى بعد ..

وهنا قاطعه حسنين قائلا :

ـ أتظن أن على صبرى هذا يمكن أن يكون يوما مغنيا حقا ؟ !

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين فى انكار ، وأراد أن يزيل أثر حديث أمه فقال فى مرح :

ـ سفخس على هذا البلد الذى لا يقدر ! الأستاذ على صبرى فنان كبير . ان « يا ليل » منه شفاء ودواء . هل سمعته وهو ينتقل من البياتى الى الحجاز ثم يعود الى البياتى ؟ لم يفعل هذا الا الحمولى ، وسلامة حجازى مرة أو مرتين . أما محمد عبد الوهاب فاذا خرج من البياتى فقل أن يعود اليه الا فى حفلة تالية . وليس يعيبه أنه أحيا ليلة بجنيهات معدودات فلا يزال فى أول الطريق ، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من أحيا أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة .. !!

وضحك اخوته لهذره أما الأم فتنهدت قائلة :

ـ سلمت أمرك لله !

فألقى عليها نظرة من عل وقال :

ـ لندع حديث الفن جانبا . المهم أن تعلمى أنى سأحيى حفلة عرس غدا ..

ـ فى تخت على صبرى ؟

ـ وحدى ! . سأحييها بنفسى !

ونظرت الأم نحوه بانكار ، وسألته نفيسة :

ـ أأصبحت مطربا حقا ؟

ـ يحدث أحيانا أن يختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لاحياء حفلة كمطرب . خطوة لها ما بعدها ... !

وسألته أمه بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ ومن الذى دعاك لاحياء ليلته ؟ !

ـ عم جابر سلمان لاحياء ليلة زفاف ابنه سلمان .

وخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها ، وران على نفسها كدر خانق ...

ودهشت الأم وخاطبت حسن متسائلة وهى تومىء الى نفيسة :

ـ بعد ما حدث ؟ !

فضحك حسن قائلا :

ـ تم الاتفاق بيننا قبل معركة ست نفيسة فى بيت العروس ، ولم يجرؤ الرجل على خرقه !

وساد الصمت قليلا والأعين تحدق فيه فى غير تصديق ، كان فى صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التى تجعل منه مطربا . وأخيرا سألته أمه فى حيرة :

ـ أحقا ما تقول ؟

ـ نعم ورحمة أبى ...

ـ أجر ؟ !

ـ خمسة جنيهات ، لك منها جنيه كامل .

وسكت حتى يتغلغل أثر كلامه فى النفوس ثم ردد عينيه بين شقيقيه وتساءل :

- ما رأيكما فى أن تعملا معى سنيدين فى التخت وكلاكما ذو صوت لا بأس به ؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين ، وواصلا ضحكهما ، حتى قال :

- يا لكما من غبيين . هذه فرصة نادرة للاشتراك فى البوفيه الحافل بما لذ وطاب من المآكل والمشارب .

ولم يكف الشابان عن الضحك فى استهزاء ، ولكن تمثل لعينيهما منظر المائدة وقد صفت عليها الأطباق ، وراح خيالهما يثب من طبق الى طبق ، فى عجلة ، وبلا رحمة ، حتى صاحت به نفيسة بحدة وغيظ :

- أتريد أن تجعل من شقيقيك متسولين فى بيوت البقالين ؟

فقهقه الشاب قائلا لأخته :

- انى أدرك سر تغيظك يا ست نفيسة فان اعتداءك على العروس حرمك حق الدعوة الى هذه الليلة ، ولكن ما ذنب هذين المسكينين ؟! ليس الأمر لهوا ولعبا ولكن طيورا ولحوما وفطائر وخضرا وفاكهة وحلوى ... ففكرا ثم فكرا ...

ولم يجد لدعوته من صدى فهز منكبيه استهانة ولم يعد الكرة . كان حسن النية وأراد لأخويه خيرا ولكن حماقتهما ضيعت عليهما هذا الخير ، هكذا قال لنفسه فى أسف . ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكن نفسيهما اهتزتا فى حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى . ونشط خيالهما فى حسرة وألم زاد من شدتهما اقتراب وقت العشاء الذى يندر أن تعترف به أمهما . لم يكن للأسرة عشاء عادة ، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمهم وسخطها ، فلاذ الشابان بالتخيل دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، على حين عكفت نفيسة على أفكارها ، وهى أبعد ما تكون عن لذة الطعام ، ولذة الحياة عامة . ردها حديث حسن الى أشجانها ويأسها ومخاوفها ، وتساءلت فى دهشة أحقا يحيى حسن - شقيقها - ليلة الزفاف .. ؟!

٣٧

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالى لليـلة الزفاف كان حسن يسير فى ميدان الخازندار متجها الى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ على صبرى الى مقابلته . وكان متعبا عقب سهرة الأمس التى لا زالت ذكرياتها تدور برأسه . كانت ليلة . وكان جريئـا ليس كمثل جرأته شىء . وقد شق طريقه فى السرادق الذى أقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين أيد تصفق وحناجر تهتف للمغنى الجديد ، ورد تحياتهم برزانة وجلس وسط تخته المكون من عواد وقانونجى وكمانجى عملوا معه كعازفين وسنيدة معا . ثم غنى « قد ما احبك زعلان منك » وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذى استحوذ على الجميع ، ولكنه واصل الغناء دون مبالاة ، وأكثر من الشراب . وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون « فى الليل لما خلى » ولم يكن يحفظها فغنى « بستان جمالك » وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب ، هذا يذبح صوته بغناء لا غنـاء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سـكران مترنحا وقال بلسان ثقيل موجها خطابه للمطرب :

ـ والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت . . .

وعرفه حسن ، كان حدادا فى أول عطفة نصر الله ، وتوعده شرا ولكنه واصل غناءه « والله زمان ، زمان والله ، والله زمان ، زمان والله » . ذكر هذا ضاحكا وهو يحث خطـاه ثم قال لنفسـه : « ما كان كان . ولا داعى للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات » . وليس هذا فحسب ، وهل يمكن أن ينسى البوفيه ؟ ، لشد ما أبلى فيه بلاء حسنا وقد بلغ القمة حين ازدرد حمـامة

بعظامها . لم يكن أكلا ولكن كان التهاما وخطفا وسلبا وعراكا ، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقرى فما كان منه الا أن قبض على يد المدعو الذى يليه واستصفى ما فيها من شرائح . أما حسن الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التف حوله أفراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة :

ـ أليس حسبكم ما التهمتم من طعام ؟!

ـ والأجرة ؟!

فقال بوحشية :

ـ خذوها بالقوة ان استطعتم !

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين . شيء واحد أسف له أشد الأسف هو أن أسرته لم تشاركه طعامه الشهى ، أمه ونفيسة وحسين وحسنين . وكان بوده أن يعطى أمه فوق ما أعطى ولكن تشرده الطويل علمه الحرص . على الأقل ما دامت هذه الحال . وها هو يقصد كلوت بك ، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره على صبرى الذى مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه . وكان على صبرى قد أخبره بأنه ينتظره فى قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء ، فارتقى السلم المفضى الى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد . وجد الدرب كالمقفر حتى المقاهى الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماد سهرة الأمس . وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ على صبرى جالسا أمام باب القهوة فاتجه اليه وسلم وجلس على كرسى الى جانبه . لم تعد قهوة كما كانت يوما ما ، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة اذا صدق ظنه ، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران واعدادها للحال الجديدة . قال على صبرى مزهوا :

ـ هنا حيث ترانى جالسا سنبدأ حياة جديدة ...

فتولت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل :

- والتخت والأفراح ؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامهما - وكان لا يزال مغلقا - ثم قال :

- سيعمل التخت فى هذه القهوة . أما الأفراح فربنا يجعلها مآتم . انتهى زمان الأفراح ، ولا نسمع الآن الا عن « حفل عائلى اقتصر على آل العروسين » والراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز ، وهيهات أن يكون لنا عيش فى هذا البلد ...

فقال حسن متظاهرا بالاستياء :

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا ؟

فمد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيرا الى القهوة التى يعدها العمال :

- اليك قهوة بالنهار ، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الست زينب الخنفاء - وهى على فكرة شريكتى - وبين ساعة وأخرى أغنى ، مجال العمل واسع ، والرزق مضمون . ولكن عليك بحفظ أغانى عبد الوهاب يا حلو ..

- لا أكاد أحفظ منها شيئا !

- لا بد مما ليس منه بد . وطقاطيق أم كلثوم أيضا ، هذا حكم الزمان !

فقال حسن ضاحكا :

- ربنا معنا .

فقال على صبرى باطمئنان :

- انى متفائل خيرا . هذا المكان مبارك ، وهو أصل ثروة محمد العربى نفسه .

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه الحياة الجديدة ؟ .. زينب الخنفاء ؟ ! .. هى فوق الأربعين على أحسن

الفروض ، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى ، ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب . لا داعى للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت ، ولعل ليالى التسكع والجوع قد غارت الى غير رجعة .. ثم سمع الأستاذ يقول :

— ولكن عملك كسنيد ثانوى بالقياس الى ما ينتظر منك !.

— وماذا ينتظر منى ؟

ألقى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقا بما ينتظر منه ، فقال الأستاذ :

— انك أدرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى أو برمجى أو سكير عربيد فمن لهؤلاء ؟ .. أنت ! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يتطلب مهارة وقوة وجرأة فمن لها ؟ .. أنت !.

وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفتيه طويلا . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقا ، حياة تدب تحت مهاوى النبابيت ومساقط الكراسى وفى دهاليز الغرز ، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضى بعضها الى اللذة والعزة وبعضها الى السجن والموت .. فهاهنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هـذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بعـواء العربدة ، وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعاركين بقىء المخمورين ، الى غناء وعزف وقصف . بوسعه أن يقضى بين أحضانه أعمارا دون ملل ، يأكل ويشرب ويربح ويسـكر ويحشش ويغنى .. وأشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله نظرة . كان السكون يتبـدد تحت وقع أقدام القادمين ، فهـذه ضحكات ممطوطة ، وأرداف متأرجحة ، ونظرات فاجرة عارمة . وفتحت الأبواب ، وأحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطقطقت ضحكة ولعلعت أخرى .. صباح الخير ..

٣٨

قال حسنين بتأثر :

ـ شكرا للصيف !

فتساءلت فى حياء وهى تدرى ما يعنى :

ـ لماذا تشكر الصيف ؟

ـ لأنه جردك من معطفك السميك فتبديت فى فستان يجلو محاسنك ومفاتنك ..

فتورد وجهها ، وقطبت تدارى لمعة السرور الذى يبعثها الثناء ، وقالت :

ـ ألم أنهك عن هذا ؟ ! .. لا تفتأ تتمادى فيما يضايقنى ..

وأصغى اليها وعلى شفتيه ابتسامة حائرة ، وعيناه تلتهمان جسمها البض بارتياح . فستان مؤدب محتشم ولكنه على تحفظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف ، ويشى بقسمات الجسم اللدن المدملج . ثم علق بصره بالمشربية الدقيقة المكورة فوق الصدر صورتها الخياطة حقا لثديين ناهدين تكادان لشدة نهوضهما تطيران لولا ما يمسكهما من صدر أبيض صاف ، تخيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعثت فى جسده قشعريرة الرغبة ، وتخيل أنه يشد عليهما وأنهما يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه فى ظمأ . ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هوادة . وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن :

ـ بهية ، انك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب ..

ولاحت فى عينيها نظرة اعتراض وقالت :

ـ انى أنكر الحب الذى تريد ، وانك تسىء فهمى عمدا ..

- ولكن الحب واحد لا يتجزأ ..

فقالت باصرار وحدة :

- كلا ، كلا ، لا أوافقك على هذا الرأى ..

فتنهد فى قهر وألقى بنظره الى الأفق البعيد . كانت الشمس قد توارت مخلفة وراءها هالة حمراء مترامية ، أقصاها حمرة دامية ، تخف عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى ، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمنمها هنا وهناك سحائب رقاق كتنهدات وانية . وارتد بصره الى وجهها وقال برجاء :

- انى أحبك ، وانى خطيبك ، وما أريد الا أن يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة ..

فتجلت فى عينيها الحيرة . وبدت حينا وكأنها تتعذب ، ثم قالت:

- لا أستطيع ولا أريد ..

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

- انك تدفعيننى الى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها . انى أتحرق الى أن أطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك الى قلبى . هذا حقى ، وحق حبنا ..

- كلا ، كلا انك تخيفنى .

- ألا تحبيننى ؟

- لا تسأل عما تعلم ..

- انى أعجب ألا تودين حقا أن تنطبع شفتاى على شفتيك ؟

فنفخت فى غيظ قائلة :

- يسرك بلا شك أن تغيظنى !

- وأن تستنيمى الى دقات قلبى وذراعاى تشدان على خاصرتك ؟

فأعرضت عنه عابسة ، فقال فى ضيق :

- اذا لم يكن هذا هو الحب فما هو ؟

فغمغمت فى توسل :

- كما كنا طوال العهد الماضي ..
- لقاء وحديث واحتراق ؟ !
- لقاء وحديث فحسب .
- تكذبين على نفسك .
- سامحك الله .
- أو تحبين بلا قلب !
- سامحك الله .

فضرب الأرض مغيظا محنقا وجعل يذهب ويجيء أمامها فى حيرة وعبوس ، فبدا فى وجهها القلق وقالت :

- اعتقدت أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسا بحياتنا الوديعة اللطيفة فما الذى ينزع بك اليوم الى الحاحك المخيف القديم ؟ . كن طفلا مهذبا وأمسك عن الالحاح والطمع . الحب الحقيقى لا يعرف هذا العبث ..

فهز رأسه فى قهر ويأس وعجب . وما أدراها بالحب الحقيقى ؟! اى لغز ؟ ! أتحبه حقا ؟ لا يسعه أن يشك فى هذا ، ولكنه حب لا يفهمه ، أو أنه لا يستطيع فهمها هى . يا لها من شابة رزينة هادئة . عينان زرقاوان صافيتان ، ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة ، ولا حرارة ، باردتان . ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين . ان نار الحب لا تروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها . وهكذا يمضى اليوم كما مضى الأمس وكما يمضى الغد ، بلا أمل . وكثيرا ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها ، وانها لاتسترد طمأنينتها حتى يثوبا الى الصمت ، أو الى حديث آمالهما البعيدة ، وهى لا تمل الحديث عن هذه الآمال ، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان ، فتشع عيناها نورا بهيجا ، وتتدفق فى أطرافها حيوية جديدة . وفى هذه الساعة يحبها بمجامع قلبه بيد أنه حب لا يخلو من كدر ، أو من غيظ وحنق فى بعض الأحيان ، وينقلب متسائلا لماذا لا ينشرح

صدرها أيضا بالحب نفســه ؟ لماذا تخافه وتجفـل من ذكره واشاراته ؟ والام يبقى هذا الحجاب قائما بينه وبينها ؟ . وتفرس في وجهها طويلا فيما يشبه الحنق ثم تساءل :

ـ هل أكابد هذا الحرمان الى الأبد ؟

وابتسمت ـ على رغمها ـ وقد زادت الابتسامة من حقده ـ وقالت :

ـ ليس الى الأبد .. !

وشعر برجفة في قلبه ، ورنا اليها لا يحول عنهـا عينيه ثم قال باقتضاب :

ـ الزواج ؟ !

فخفضت عينيهـا حتى لم يعـد يرى الا جفنين مسـدلين وخدين موردين ، وحينذاك شبت بنفسه رغبة في الانتقام والايذاء ولو باللسان فقال :

ـ واذا تم الزواج بذلت لي ما تتمنعين عنه بنفس راضيـة أليس كذلك ؟ تهبينني شفتيك وصدرك وجسدك وتنزعين عنك ثوبك فتبدين عارية كالبللور ..

ولكنها كانت قد غادرته كأنها تفر وحثت خطـاها نحو باب السطح . وكانت الكلمات تقذف من فيه بحرارة وحنق وتشف .

٣٩

أصبحت قهوة على صبري ملهى صغيرا بما تحفل به من غناء ورقص وخمر ، وقد ركبت على هامتها لافتة كبيرة سـطر عليها بالخط العريض « على صبري » . وأقيمت في نهايتها من الداخل منصة للتخت ، ونضدت الموائد والكراسي على الجانبين وبحذاء مدخلها . وكان الأستاذ على صبري قد انتهى من الوصلة الأولى .

وآنس الجلوس بكئوسهم وسمرهم ، حين جاء زنجى — طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه — فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقح مرتفع :

— أين صاحب القهوة ؟

فجاءه الأستاذ على صبرى مداريا دهشته بابتسامة باهتة وتساءل :

— أفندم ؟

فقال الزنجى بتحد :

— سمعت أن لديك أقذر خمر توجد فى هذه الناحية ، ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر فى . فقد قصدتك لأسكر .. !

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة واتجه صوب مائدة يجلس اليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة آمرة :

— اخلوا هذه المائدة !

ولم يسع الأفندية الا أن نهضوا صامتين وغادروا القهوة ، فجلس الزنجى على كرسى وطرح ساقيه على كرسى آخر وهو يتفرس فى الوجوه بتحد وقحة . واقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى أذنه قائلا :

— محروس الزنجى ، فتوة رهيب يعرفه الحى كله ..

فسأله الأستاذ بقلق :

— ترى هل يمكث طويلا ؟

— انه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يجرؤ أحد على مطالبته بثمن شىء مما يلتهمه ، ولعله جاء ليعرفك بنفسه ، أو لعل ..

وتردد الغلام قليلا فحثه الأستاذ قائلا :

— تكلم ..

— لعل أحد أصحاب المقاهى فى الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا ! ..

واختلس على صبرى نظرة من الزنجى فرآه كالنـائم ، آمنا مطمئنا كأنه فى بيتـه ، وقد أخلى الزبائن الموائد القريبـة منه ، فانقبض قلبه خوفا واشفاقا ، ثم تراجع فى سكون الى منصـة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد ، وأومأ اليه ثم انتحى به وراء المقصف ، وأسر اليه ما قال الغلام ثم سأله :

ـ ألا يحسن بنا أن نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج هذه المصيبة بحكمتها ؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس :

ـ لا أوافق على أن نسـتغيث بامرأة . لن تجـدى هـذه السياسة فى هذا الدرب ، دع الأمر لى ..

ـ يقولون انه فتوة شديد البأس .

فابتسم حسن قائلا :

ـ هذا ما يقال عنى أيضا ولكن أهل الدرب لا يعلمون ، دع الأمر لى ..

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخرا « ليست أمى وحدها التى تكابد من حياتها المر فى سبيل العيش ! » ثم قال للأستاذ :

ـ ستكون معركة شديدة ، ولكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة !

ـ واذا لم تكن ظافرة !

ـ اعتمد على الله وعلى ..

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل الى رفع مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله اذا تفادى من هـذه المعركة ؟ . ولعل على صبرى على حق فى تخوفه ، فالقهوة قهوته والمال ماله ، ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل هذا فليذهب على صبرى نفسه الى الجحيم . ولا ينبغى أن ينسى الى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سـبيل اليهن الا بنصر ان آجلا أو عاجلا ، فحظه فى الحياة ، وربمـا حظ أسرته المنهارة ـ

خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعى - يتوقفان على خوض المعركة .

وتحرك الزنجى محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بوحشية:

- أين الكونياك القذر الذى حدثونا عنه كثيرا ؟!

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجى بخطو وئيد حتى وقف أمامه ، ثم قال بهدوء :

- سلام عليكم !

فرفع الزنجى عينيه الملتهبتين صوبه فى تكبر ، وتفحص جسمه الصلب وعينيه البراقتين بريبة وشر ، ثم عبس فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية وصاح به :

- وعليك وعلى أهلك اللعنة ، ماذا تريد ؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة :

- سمعتك تهتف طالبا كونياك فرأيت من واجبى أن أخبرك بأن الدفع هنا مقدم ...

فسحب محروس ساقيه من الكرسى أمامه وأغرق فى ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال ، ثم أخذ يهدىء من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك ، ورمى ببصر هازىء الى الشاب ، وتساءل ساخرا :

- حامى القهوة ؟.. هه ؟

فقال حسن بهدوء :

- وأحب أن أقول لك أيضا أن هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين ...

ومرت ثوان ، وفى أثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون الى خارج القهوة ، وامتلأ الطريق فيمايلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة من كل لون وسن ، على حين نشط عمال المقصف الى اخفاء القوارير وما يخافون عليه التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها .

وجمد محروس وعلى شفتيه الغليظتين بسمة هازئة ، ثم دفع قدمه

بغتة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحا الى الوراء. كان يراقبه بيقظة وحذر بيد أنه ركز انتباهه فى يديه متوقعا أن يقذفه بشىء أو يشهر عليه خنجرا فلم يتنبه الى قذيفة قدمه حتى كانت منقضة عليه ؛ فانكمش متماسكا ، وتفادى بهذا من السقوط ، ولكنه مال الى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على الألم الذى بعث جنون الغضب فى دمه . ولم يدعه الزنجى ثانية واحدة فوثب عليه كمن يثب الى الماء ، وخاف حسن أن يؤخذ فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل الى الوراء وقفز الى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغا من خصمه الجبار . ولم يسمح له الزنجى بثانية يتمالك فيها توازنه فانقض عليه موجها ضربة الى بطنه فحال الآخر دونها بيديه ، ولكنها كانت ضربة خادعة قصد بها محروس أن يكشف خصمه عن عنقه ، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديتين على رقبته وضغط بوحشية ليكتم أنفاسه. وبدا للجميع أن المعركة فى حكم المنتهية ، ودارت الأرض بعلى صبرى . وابيضت وجوه رجال التخت والعمال ، وتبادلوا نظرات زائغة لاتخلو من دعوة الى العمل ، ولكن أحدا منهم لم يحرك ساكنا ، أما الفتيات فشرعن فى الصوات استقبالا للجثة التى ستقع . وتأكد حسن بعد تمكن خصمه من عنقه — وفى بدء غيبوبة — بأنه لا قبل له بفك الحصار القاتل ، وانه مائت لامحالة اذا توانى ، فعض على نواجذه وشد على عضلات رقبته ليركز فيها قوته ، ثم ثنى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكل ما تبقى فيه من قوة . وشعر فى اللحظة التالية بتراخى قبضة الزنجى حول رقبته فاستطاع أن يتنفس وهو يرتجف حقدا وحنقا ، ثم ثناها بطعنة أخرى ، وحدث هذا كله فى نصف الدقيقة الأولى لمحاولة كتم أنفاسه ، وانفك الحصار ، وتراجع محروس بوجه تنعقد فى عبوسته الضغينة وعينين تغشى نظرتهما الحمراء سحابة ذهول قاتمة . ولم يضع حسن وقتا مطمئنا الى سيطرته على الموقف

فانقض على خصمه الذى بذل مجهودا جبارا للتغلب على ألمه ونطحه بجبهته بقوة خارقة فى رأسه ، مرة أخرى ، فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الأبدان ، دون أن يثنيه عن هدفه ما كال له الآخر من لكمات مزلزلة . وتفجر الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنه لهب ينبعث من قطران ، وبدا وكأنه يترنح من دوار ، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه – كالسكين – فشهق الزنجى وسقط على الأرض غائبا عن الوجود . وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض ، تهزه نشوة الظفر ، وتهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطنى يتعالى بعد زوال الخطر . ولعله لو غابت الأعين لارتضى أن يرتمى الى جانب خصمه ولكن أقام ظهره الأبصار المتطلعة اليه فتجلد وتماسك ، وانثال على أذنيه صراخ وغوغاء وضجيج ، وشعر بحركة غريبة تسرى فى القهوة كلها ، ثم أحس بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ على صبرى يبتسم اليه بوجه تعلوه صفرة الموت ، وسمعه يهمس فى أذنه :

– تعال معى أقدم لك كأسا من الكونياك . .

فسار معه دون أن ينبس ، وجلس على كرسيه على منصة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرعها ، وطلب أخرى فأحضرها له ، ثم قال باشفاق :

– لشد ما تعبت !

فغمغم حسن بثقة :

– كانت معركة لا بد منها .

وجاء النادل يقول ضاحكا :

– أطلق الناس عليك لقب « الروسى » لأنك صرعته برأسك !

وشعر حسن برغبة فى تحاشى الأنظار ، فقال لعلى صبرى :

– دعنا نمح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية . . .

٤٠

استعاد حسن توازنه بفضل قوته وحيويته واعتياده العراك يوما بعد يوم . وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر ، وأخذت قهوة « على صبرى » تلفظ آخر المترنحين من روادها . وأطفئت الأنوار الخارجية فى الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتتحة سهراتها الداخلية التى لا تنتهى عادة قبل الفجر ، على حين مر شرطيان يهزان الأرض بوقع أقدامهما الثقيلة . وكان حسن يجلس على كثب من على صبرى فى نهاية القهوة يعلقان على ايراد الليلة حتى قصدهما غلام يعمل نادلا ببيت زينب الخنفاء فحياهما ثم مال على أذن حسن وهمس باسما :

ــ بعضهم يريدك !.

وسمع على صبرى ما همس به الغلام فلاح الاهتمام فى وجهه وتمتم :

ــ امرأة ؟!

فقال حسن بعدم اكتراث :

ــ أظن هذا ..

ــ ألا تفضل مثلى الحب الطيارى ؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال :

ــ ولكنه حب لا نفع فيه . انتظر وسنرى ..

وودع الأستاذ وقام ثم تبع الغلام الى البيت الذى يواجه القهوة ، وطرق الغلام الباب ففتح عن شق فى حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن ، ثم أغلق الباب . وجد حسن نفسه فى مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانه فتيات ، انتحت كل برجل تشاربه وتداعبه ، وعلى كرسى فى الصدر جلس رجل ضرير ينفخ فى الناى ،

على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية متلفعة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفى به أنفها المتآكل . وألقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية ، ولكن الغلام مال الى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتبعه ، وارتقيا الأدراج معا فى سكون حتى تساءل حسن :

ـ من هى ؟

ـ الست سناء ...

وذكرها لتوه ، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز ، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين . وكانت تجلس سحابة النهار على كرسى عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتها كاشفة عن فخذها حتى السروال الحريرى الأبيض . وانتهيا الى الدور الثانى وسارا فى دهليز طويل يفضى الى صالة صغيرة تحدق بها أبواب ثلاثة ، ومضى الغلام الى الباب الأوسط وطرقه ثلاثا فجاء صوت له رنين النحاس يهتف :

ـ ادخل ...

ودفع الغلام الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن الى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد :

ـ اقرأ لنا الفاتحة ...

وأغلق الباب فوجد نفسه فى ظلام دامس . وحدثته نفسه أن يتحسس موضع الزر الكهربائى ليضىء الحجرة ولكن سرعان ما عدل عن خاطره ، ووقف مستندا الى الباب منتظرا أن تألف عيناه الظلام . وساد صمت شامل حينا ، ثم مضت أذناه تلقطان حس أنفاس تتردد ، فصغى اليها مبتسما ، وتوقع قولا أو فعلا ولكن لم يحدث شىء . واتجه على مهل الى يساره متسمتا الأنفاس المترددة حتى مست ركبته شيئا صلبا ، جسه بيده ،

فأدرك أنه حافة فراش خشبى ، ووقف ينظر الى أسفل بعينين براقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم . وهوى بإبهامه رويدا رويدا حتى انغرست أنملته فى لحم طرى ثم انبعثت تحت أصبعه رجفة وندت عن الظلمة ضحكة مكتومة ..

***

ثم أضاء النور وأخذ يرتدى ثيابه . وأخرج من جيبه نصف ريال ووضعه على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين ، ثم وثبت الى أرض الحجرة وسارت بجسمها العارى الى صوان ففتحته وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشا وحطتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة ، فتساءل ضاحكا :

ـ أهو الباقى ؟

فقالت بهدوء :

ـ أجرك !

وأتم ارتداء ثيابه فى هدوء متظاهرا بعدم الاكتراث ضابطا عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه ، ثم تناول النقود ودسها فى جيبه . وسألته وهى ترمقه بنظرة عميقة :

ـ ترافق ؟

فقال مستعينا بالكذب :

ـ لى رفيقة !

فتساءلت فى اهتمام بدا فى لمعة عينيها :

ـ فى هذا الدرب ؟

ـ فى الآخر .

ـ أفرنجية ؟

ـ بنت عرب !

وساد السكون دقيقة ، ثم سألته :

ـ ألا تزال لك فيها رغبة ؟

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم ، قانعا بابتسامة ذات معنى . فسألته ضاحكة :

ـ أين تقطن ؟

ـ شبرا .

ـ ما أبعدها عن مكان عملك ، هل ثمة ما يضطرك الى المبيت هناك ؟

ـ كلا . .

ـ مسكنى قريب فى عطفة جندب بكلوت بك . تعرفها ؟

ـ سوف أعرفها من الآن فصاعدا . . .

٤١

كانت الشمس تميل الى الغروب حين غادرت نفيسة بيت احدى زبائنها بشارع الوليد ، وكان يلوح فى وجهها الضيق ، وهى حال لا تفارقها اذا خلت الى نفسها ، ولكن زادها تعاسة انهالاتجنى من عملها الا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة أسرتها الشديدة فلا تكاد تبقى لها على شىء . وكانت الى هذا تبدو فى مظهر جديد ينم عن تغير ذى بال ، فتزيت فى فستان برتقالى مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل ، وأخذت زينتها فى غير تحفظ . وسارت وشارع الوليد حتى انتهت الى شارع شبرا ، وانعطفت مع الطوار وهى ترمى ببصرها الى الجراج عن بعد فدبت فى قلبها يقظة وحيوية . وأعادها منظر الجراج ـ وصاحبه محمد الفل ـ الى ذكريات صراع عنيف نشب فى نفسها فى غير مارحمة ولا هوادة

طوال الأسابيع الماضية . وجعلت تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماما ، وعقل الخوف قدميها ، ومع انها كانت قد انتهت من ترددها المعذب الى نهاية ، الا أن الخوف ركبها وهى تخطو الخطوات الأخيرة . « ألا يحسن بى أن أستزيد من التفكر ؟ كلا ، كلا ، لن أجنى من التفكر الا وجع الدماغ . سيعترض سبيلى كما يفعل كل مساء . لا أستطيع أن أنكر اننى ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا ؟ . فات أوان التراجع . وهو لا يخفى دواعيه ولا مقاصده ، ولست أجهلها ، انى أدرك كل شىء ، أدرك لماذا يدعونى الى سيارته ، لا يحاول خداعى كما فعل غيره ، فالأمر واضح ، فهل أقدم على هذا ؟. لماذا يتعلق بى ؟ لست جميلة ، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئا . ولكن الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها فى سوق الخلاعة ، وعشاق اللذة ــ أو بعضهم ــ لا يرعوون عن مطلب . هذه هى الحقيقة . الزواج أمره مختلف أما اللذة فلا اختلاف عليها . هل أدع نفسى تهوى ! ولماذا أمنعها ؟. لن أخسر جديدا . ليس ثمة ما أخاف عليه . ولكن ألا يحسن أن أمد لنفسى حبل التفكير ؟ » وعاودتها ذكريات اليأس الذى أمرت غصصه ريقها ، وكيف لم يعد ثمة أمل على الاطلاق . على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب ، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التى تشتعل فى دمها ولا حيلة لها فيها . وكلما استنامت الى قبضة اليأس شكتها فى الأعماق كشوكة مستعرة . هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها . بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها ، وأنكرتها ، وقالت لنفسها انها ترضى «الهوان» فى سبيل النقود التى تمس حاجة أسرتها اليها . ولم تكن فى هذا كاذبة ، فانه حق لا شك فيه ، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ، وسرها ــ أن كان ثمة سرور ــ أن تبدو لعينيها شهيدة ، وضحية لليأس والفقر . وبرز الفتى عند ذاك من

الجراج ووقف يحادث بعض العمال فخفق قلبها ولم تتحول عنه عيناها . وأدركت بغريزتها انها لن تتراجع فسلمت ـ على البعد ـ وهو موليها ظهره ، سلمت تسليما نهائيا ، وأنتهى فى تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذى نشب فى قلبها منذ أسابيع . وزفرت فى يأس وحرارة وغادرت موقفها . واقتربت منه فى خطوات وئيدة متجاهلة اياه ، حتى أحست به يعترض سبيلها قليلا بجرأته المألوفة :

ـ الصخر نفسه يلين يا ست ، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال .

ثم سار الى جانبها متشجعا بابتسامتها وهو يقول :

ـ كفاك تدللا ، لو كان لى صبر أيوب لنفد ..

ما ألذ الغزل ولو كذب . حال مخزية ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح . « ليته يدرى من أنا ، ومن كان أبى » . ثم سمعته يقول بلهجة تنم عن وعيد :

ـ هاك السيارة فاذا لم تصعدى اليها رفعتك بذراعى أمام الرائح والغادى .

وكانا بلغا موقف السيارة فى العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة ، وازدردت ريقها واندفعت الى الداخل فى حركة عصبية ، وجلست ، فأغلق الباب وراءها ، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهى لا تكاد تدرى به ، ومالت الى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق ، ثم غشيتها غرابة . بدا لها كل شىء غريبا خياليا لايمت للواقع بسبب ، الطريق الذى تساقط عليه ظلمات المساء وأشباح المارة ، والسيارة الهرمة المهلهلة ، ونفسها ، وأصوات الناس ، ودوى عجلات الترام ، واستعدت ارادتها بقوة لتعود الى وعيها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارع ووجه معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخم صخرى

وفم عريض غليظ كفم البولدج فأعادها منظره الى عالم الحقيقة ، والوعى والأعصاب ، والدم والخوف . واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفض سدادتها ثم نظر فيما حوله فى شيء من الحذر ، ورفع فوهتها الى فيه وأفرغ فى جوفه جرعات غزيرة ، والتفت اليها بوجه متقلص العضلات وسألها :

- لا تشربين قليلا من النبيذ ؟

فقالت بعجلة واضطراب :

- كلا ، لا أتعاطى الخمر ..

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص ، وأعاد القارورة الى موضعها ، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول :

- من الحكمة أن أشرب الآن حتى اذا بلغنا مقصدنا بلغته فى سلطنة ...

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة ، وعجبت نفيسة من جرأته وبدا لها قويا جسورا ، وفى الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف . ولكن ما حاجتها الى الرجل الشريف ؟ لم تعد أهلا له ، ولم يعد ضالتها ، ولا تخاف شيئا فى الوجود قدر ما تخافه على نفسها . وسمعته يقول ضاحكا فى زهو :

- ما أطول نفسك فى التدلل !.. ولكن طالما قلت لنفسى مصير الحلو أن يقع ، وها هو قد وقع ..

ورحبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وتساءلت :

- ومن أدراك انى وقعت ؟!

فضحك ضحكة ضخمة وقال :

- سنرى ما يكون فى صحراء الماظة ..

وتساءلت فى قلق :

- صحراء الماظة ؟.. هل نغيب طويلا ؟

ـ حتى منتصف الليل . . !

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها وشقيقيها ، وقالت بلهجة المستصرخ :

ـ يا خبر أسود ، يجب أن أعود الى البيت قبل العشاء ؟ . . أوقف السيارة بربك . .

فقال بدهشة وفتور :

ـ حقا ؟!. لاتخافى ، سنعود قبل العشاء ، ولكن ماذاتخافين ؟

ـ أهلى . . .

فلحظها بارتياب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى :

ـ أهلك !. . ألا يعلمون ؟!

ووخزها قوله حتى خـــرم قلبها كالطعنة الحادة . أهلها يعلمون ؟ ، ماذا يظن بها ؟! واندفعت تقول :

ـ كيف يعلم أهلى !. اخوتى طلبة بالجامعة ، وكان أبى موظفا .

وهز رأسه متظاهرا بالتصـــديق ، وقال لنفســـه ساخرا : « لا أم غسالة الا أمى . ، ولا اخوة صعاليك الا اخوتى ، الأمر لله » وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه فى أقصر وقت ، ومضى يستشعر حميا النبيذ فطاب نفسا وسألها :

ـ ما اسمك ؟

ـ نفيسة .

ولم يعجبه الاسم فسألها :

ـ لماذا لم تنتقى اسما أرشق منه ؟

ولم تفهم قصده ، وأساءت فهمه فقالت باستياء :

ـ انه يعجبنى !

ـ عاشت الأسماء يا ست نفيسة ، لا مؤاخذة . .

وأخيرا مالت السيارة الى الطريق الصحراوى تغوص فى ظلمة شاملة ، ولاحت المدينة عن بعد فى أنوارها الموصوصة كأنها مارد جبار ذو أعين نارية لا حصر لها ، وأخذ يهدىء من سرعة السيارة

حتى أوقفها ، وأطفأ مصابيحها ، وبغتة مد ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقعه . فاندلقت عليه متأوهة ، ففغر فاه العريض وأطبق على فمها حتى منتصف ذقنها ، وضمها الى صدره بوحشية وأنفاسه تتردد فى أنفه فى نخير محشرج ، فشعرت بادىء الأمر بألم وقلق ، ثم مضت آلامها تغيب فى ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحاهما فى الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بأنها مدينة للظلام بالشىء الكثير ، فقد شجعها ، وفى الوقت نفسه أخفى عيوبها ، وبذلت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز فطرى - لارضائه . ولعلها وجدت بادىء الأمر حياء الى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء .

ثم قال لها باغراء :

- ألا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى ؟

فقالت بضراعة وهى تجفف العرق المتصبب من جبينها :

- لا أستطيع ، أرجو أن نعود فى الحال . . .

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعات ، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد ، وظل صامتا حتى بلغا ميدان المحطة ، وقال بغلظة :

- توجد ثمرة دانية ، ألا نعود ؟

فقالت برجاء وجزع :

- كلا ، كلا . . لا أستطيع . .

وقطب ساخطا فجأة ، وقال بفظاظة لم تتوقعها :

- الله يقرفك ، هذه رحلة لاتستاهل البترول الذى احترق .

ووقع قوله من نفسها موقع السوط ، فانعقد لسانها ، وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلا ، ونظرت نحوه فى ذهول ، ولكنه لم يلتفت اليها ، ودفع السيارة صامتا ساخطا الى شبرا . عسى أن تكون رغبته فى المزيد عذرا ولكن أما كان يجمل به أن يترفق

بها أو فى الأقل أن يمسح خشونته بكلمة رقيقة ؟. وواصل انطلاقه صامتا ، ثم عرج الى شارع جانبى لينزلها فى أمن من الأعين . وأوقف السيارة الى جانب الطوار . وتساءلت وهى تغادر موضعها عما تفعل اذا سمى لها موعدا آخر أتقبل رغم اهانته أم ترفض على رغمها ؟ وجابهتها حيرة لم تستعد لها ، بيد أنه مد لها يده بنصف ريال وهو يقول :

ـ هذا يكفى لمرة واحدة ..

ولما رأى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفا وراءه ذيلا من دخان خانق ، وقرقرة مزمجرة . وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت فى موقفها وجسمها ينتفض . واتصل انتفاضها وهى تعض على نواجذها ، ثم مضت تزفر فى عجلة كأنما تنفس عن صدرها أن ينفجر . لم يتكلف موعدا آخر . مرة عابرة . كأننى .. رباه ، مرة عابرة . ثم يرمى لى بنصف ريال ! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد ، وحل محله خجل وخيبة ، أجل ، ألا يجوز أنها لم ترق له ولم تعجبه ؟ ! هذا محتمل . هذا مرجح . هذا مؤكد ! . وأمضها شعور أليم بالحزن والقهر ، ثم تنبهت لموقفها من الطوار فهمت بمغادرته ولكنها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت اليها بغرابة دون أن تدرى ما هى فاعلة ، ثم ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التى اقترضها سلمان منها يوما على محطة الترام ، ثم يوم قادها الى مسكنه ، والظلام الدامس وشجارها معه فى الطريق ، وتغزل أبيها بخفة دمها ، ثم عاد انتباهها الى القطعة الفضية تحت عينيها ، فرنت اليها طويلا دون أن تتحول عنها . أى شىء ثمة يدعوها الى تركها ؟ ! ..

٤٢

وفى ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقعة بعد انقطاع غير قصير ، وكانت الأسرة مجتمعة بحجرة الاخوة التى تتخذ منها مجلسا مختارا فى شهور الصيف . جاء هذه المرة وبيده قفة فوضعها وراء الباب وأقبل عليهم مسلما ضاحكا فاستقبلوه بترحاب كالعادة ، أعلنه الاخوة فى غير تحفظ ، أما الأم فرمقت القفة بنظرة متسائلة وغمغمت ساخرة « ايش جاب الغراب لأمه » فقال ضاحكا وهو يتخذ مجلسه بينهم :

ـ لاتتعجلى . الصبر طيب ..

بيد أنهم لم يلقوا بالا لقفته . ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيرا منه ، قالت له نفيسة :

ـ لا نراك الا كالزائر !

ـ أخوك سائح فى أرض الله الواسعة ، يلتقط رزقه فى جهد ومشقة ، ولكن لا تعجبى اذا لم ترينى الا زائرا فقد وجدت لنفسى مسكنا !

وتطلعت اليه الأبصار فى اهتمام وسألته أمه :

ـ هل هداك الله اخيرا ووجدت عملا ؟

ـ تخت على صبرى ولاشىء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا .

فقالت الأم بامتعاض :

ـ لا يدخل عقلى بحال ان هذا عمل بالمعنى الصحيح ..

فقال حسن مستنكرا :

ـ لم لا يا أماه ؟! ، انى فى التخت أغنى بينا فى المهن الأخرى أتشاجر كما تعلمين ..

وسأله حسين :

ـ وهل وجدت لنفسك مسكنا حقا ؟ .. أين ؟

فسكت مليا ثم سأله :

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟

ـ كى نزورك بدورنا !

ـ كلا . ليس مسكنى معدا للزيارة ، وليس هو خاصا بى اذ يقطنه أفراد التخت جميعا ، دعونا من هـذا وخبرونى متى أكلتم اللحم آخر مرة ؟

فقال حسين ساخرا :

ـ الحق انا نسينا ، دعنى أتذكر قليلا ، .. تتخايل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا أدرى أين ولا متى ..

وضحك حسين قائلا :

ـ نحن أسرة فلسفية على مذهب المعرى .

فتساءل حسن :

ـ ومن يكون المعرى هذا ؟ ... أحد أجدادنا ؟

ـ كان فيلسوفا رحيما ، ومن آى رحمته أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان ...

ـ انى أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس ، أنها تفعل كى تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس ..

ونهض حسن وذهب الى حيث ترك القفة وعاد بها ووضعها أمام أمه ، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنزة تتصل على سطحها حمـرة اللحم ببياض الدهن . والى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم . وصاح حسنين :

ـ لا أصدق عينى ، وما هذا داخل العلبة ؟

ـ سمن !

ودبت فى الاخوة حيوية ولمعت أعينهم ، وسرت عدوى الفرح الى قلب الأم فابتسمت وتمتمت :

ـ ضمنا للغد غداء فاخرا !

وهتف أكثر من صوت :

ـ بل عشاء فاخرا الساعة .

ـ متى ينتهى طهيه ؟

ـ ننتظر حتى الفجر ...

ونهضت نفيسة فحملت القفة وسبقت أمها الى المطبخ . وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضا فغادرت الحجرة وهى تومىء الى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسما ابتسامة ذات معنى ، فانتبذت به ركنا فى الصالة وسألته بلهفة :

ـ هل تيسرت سبل الرزق لك حقا ؟

ـ بعض الشيء ! لا أدرى ما يأتى به الغد ..

ـ هل أطمئن الى أنك ستمد لنا يد المعونة ؟

ـ كلما واتانى الرزق . أرجو هذا ..

وصمتت لحظة ثم سألته :

ـ أين تقطن ؟

وكان يعلم أنها تفهمه فهما لا يجدى معه الكذب فقال :

عطفة جندب بكلوت بك رقم ١٧

فسألته بعد تردد :

ـ امرأة ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ نعم .

ـ زواج ؟

فضحك مرة أخرى وتمتم :

ـ كلا ...

ولم ير فى الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات الامتعاض ، ولكنها كانت قد يئست منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه ، بيد أنها سألته باهتمام وحرارة :

ـ أليس رزقا شريفا ؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد :

- بلى ، لا تشكى فى هذا ... اننا نحيى أفراحا كثيرة ونغنى فى المقاهى والصالات ...

٤٣

وانقضى عام آخر . وواصلت الحياة سيرها لا تلوى على شيء ، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة فى سبيله بما يلقى من خير وشر . ولو اتيح للأب أن يعود الى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين ، ولكن كان حتما سيعرفهم ، سيعرف أن المرأة هى زوجه وأن الأبناء أبناؤه ، أما الذى كان ينكره ، ولا يعرفه مهما أجهد ذاكرته فهو البيت . اختفى الأثاث أو كاد ، فلم يبق بحجرة الاستقبال الا كنبة وبساط باهت ناحل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها ، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين يستعملان نهارا للجلوس وليلا للنوم ، وخلت الصالة - حجرة السفرة قديما - فبيع البوفيه والمائدة والكراسى ، وانتهى بهم الحال الى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض ، بل بيع فراش حسن . ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان . كانت حياة شاقة عسيرة ، ولولا حزم الأم ، وحسن تدبيرها ، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكل . أما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل ، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلبابا أو منديلا أو بعض الثياب الداخلية ، وفيما عدا هذه الأويقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد . وكان يعتذر لأمه بشاق الكفاح وقلة الرزق ، ولم يكن فى اعتذاره غلو دائما . والحق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور . كان يغنى فى تخت

على صبرى ، وينبرى للعراك اذا دعا الداعى ، ويتجر بالمخدرات فى حدود ضيقة ، وفى حوزته امرأة لا بأس بجمالها ونقودها ، ولكن ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير ،فضلا عما أوجبته حياته عليه من الانفاق السخى ليظفر بقلوب أعوانه ، وليظهر بالمظهر اللائق به. وكان النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه ، يتغلب ذاك حينا ، ويتغلب هذا فى أغلب الأحيان ، يمسك يده مستسلما لتيار حياته الجارف ، ثم يجود بما فى طوقه ، ويتمنى كثيرا لو يرد أسرته الى سابق عهدها بالحياة ، ثم ينسى أسرته فى خضم مغامراته ، ثم يعود الى تذكرها فى ندم وألم ، وهكذا الى غير نهاية . ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذى يقيل عثرتها أو يأخذ بيدها وان تنسمت فى زياراته نسائم الترفيه والراحة . الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة ، وفى سبيل الأسرة انهد حيلها وهرمت فى عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان ، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلدا وعظاما . بيد أنها لم تسلم للمحنة ، ولم تعرف الشكوى ، ولم تتخل عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة . وكانت تعمل النهار كله ، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو ، وترعى ابنيها خاصة ، تراقب لهوهما ، وتحثهما على العمـل ، وتفض نزاعهما التافه ، وتكبح من نزواتهما ، خصوصا طفلها المتقلب حسنين . وبين هذا وذاك تعكف على التفكير فى الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيرا من الآلام التى تبعثها فى نفسها ابنتها نفيسة فى تجوالها الدائم بين بيت وبيت ، تعمل كثيرا وتربح قليلا وتواصل سعيها فى مشقة ويأس . لشد ما تتجرع غصص الألم فى سكون متجملة بصبر لا يهن ، لائذة بايمان لا يتزعزع ، متشبثة بأهداب أمل لا بد أن يتحقق وان طال انتظاره . وبفضلها عرف الشقيقان سبيلهما . فلم يحد أيهما عن جادته ، وأمكنهما — على ما يكتنفهما من تقشف وحرمان — أن يواصلا اجتهادهما فى مثابرة تدعو للاعجاب . وكان

حسنين يعد ما يلقاه من ظروف العيش أهون مما يجد فى حبه من حرمان ، ولكن فتاته لم تكن دون أمه عنادا ، فأرغمته على الرضى بحب طاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامى . وأوشكت الحياة الخاصة أن تلهى الشقيقين عما انتاب حياة الوطن فى تلك الفترة من التطورات الهامة . والحق أن حسين لم يبد اهتماما يستحق الذكر بالسياسة العامة ولعل حسنين كان أكثر اهتماما بالسياسة من أخيه ، ولكن ليس الى القدر الذى يجعل منه تلميذا سياسيا ، واقتصر اهتمامه فى الغالب على النقاش الحزبى أو الاشتراك فى المظاهرات السلمية . وكانت الأم أيضا الحائل بين ابنيها وبين الاشتراك فى الحياة السياسية ، فلم تكن لتفقه حرفا فى السياسة ، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية . ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول مخاطبة الشابين :

- قتلوا يا ولداه فهل تغنى عنهم السياسة أو المظاهرات ؟!. فجعوا أهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا هباء ..

وقال لها حسنين منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين :

- ان الأوطان تحيا بموت الأبطال ...

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن مواصلة حديثه الحماسى . ثم جدت أحداث فتكونت الجبهة الوطنية ، وشرع فى المفاوضات ، وانتهت المفاوضات الى الاتفاق ، وسرى فى البلد ارتياح عام ، وحينذاك عاد حسنين الى حديثه ، وكان أجرأ على أمه من أخيه ، فقال لها يوما :

- أرأيت أن الأرواح التى زهقت لم تذهب تضحياتها عبثا .

ولم تغضب هذه المرة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محله السلام ولكنها لم تنثن عن رأيها فقالت :

- هيهات أن يعوض شىء عن هلاك روح شابة .

فقال حسنين ضاحكا :

ـ لقد عشت يا أماه نصف قرن فى ظل الاحتلال فلندع الله أن يمد لنا فى عمرك نصف قرن آخر فى كنف الاستقلال ..

فقالت الأم ممتعضة :

ـ احتلال ، استقلال ، لا أدرى أى فرق بينهما . خير لنا أن ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبدلنا من عسرنا يسرا ..

فقال حسنين بحماس وايمان :

ـ لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبى بلا معين ! (ثم مخاطبا حسين) أليس كذلك ؟

فقال حسين بأمل :

ـ أعتقد هذا !

ورددت الأم نظرها بينهما فى شك كثير . لم تكن تحفل بهذه الأحاديث العامة التى تساق اليها أحيانا من حيث لا تدرى ، أمر واحد يهمها ، وتنسى من أجله الدنيا وما فيها ، هو أن تبلغ بهذين الشابين اللذين تحبهما أكثر من الحياة نفسها بر لأمان ، وأن تراهما رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شر الحياة ، وآوت الأسرة منهما الى ركن ركين ..

٤٤

وفى نهاية العام حصل حسين على البكالوريا . وقد ذاقت الأسرة فى فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة مرارة الاشفاق والشك . ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتكهن بما يجد فيما لو أخفق حسين وحرم من المجانية . ولم تكن الأم تتصور أن ينتهى صبرها هذه النهاية ، ولا أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندما تناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ فى صفحاتها باحثا عن نمرته ، التف به أخوه وأخته وأمه بقلوب خافقة ينبض

فى أعماقها الأمل ويظلها الخوف والعذاب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم الى الأبد . ثم كان يوم سعيد ، أول يوم سعيد منذ عامين كئيبين ، فطابت النفوس ، ولهجت الألسن بالشكر لله ، وراحوا يفصحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف حينا ، وبالصمت المطمئن الباسم حينا آخر . ثم وجدوا أنفسهم يطرقون باب المستقبل ، ويفكرون فى الغد القريب والبعيد معا ، فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون ، وتخايلت لأعينهم مرة أخرى الصعاب التى تكتنف حياتهم ، فحل التفكير وهمومه محل السعادة الصافية العابرة ، وعرف حسين حقيقة جديدة فى حياته وهى أن السعادة قصيرة الأجل وانها لا تعمر فى النفس طويلا كالحزن أو الحسرة . ولم يكن التفكير فى مستقبله بالأمر الجديد عليه ، كان بطبيعة الحال ذا آمال وأحلام ، ولكن الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك ، وكأنه أراد أن يستدرجهم الى اعلان آرائهم فتساءل :

ـ ماذا لديكم عن الخطوة التالية ؟

وكان للأم رغبة ، فهى تود أن تنتهى الحال التى يكابدونها بأى ثمن . وكانت تعلم ـ وقد خلا البيت مما يمكن الانتفاع بثمن بيعه ـ انهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن . بيد أنها لم ترتح الى املاء رغبتها عليه ، ونفرت من التحكم فى مستقبله كما تتحكم فى حياته . أجل لم يعد طفلا ، فاذا وافق على رأيها مختارا فبها والا فليقض فى أمر نفسه بما هو قاض ، وليمدوا هم فى حبال التصبر والتجلد ، بل والجوع حتى يأمر الله بالفرج . لذلك قالت باقتضاب :

ـ فلنتدبر الأمر طويلا .

ولكن حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعا بعواطفه كعادته ، وكانت أنانيته تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام ، فقال :

ـ لم تعد الحياة تطاق . غذاؤنا سيىء ونحن فى حكم الجياع ، وثيابنا متداعية ممزقة أو مرفوة ، وبيتنا عار ، فلا يصح أن نطيل

أمد العذاب . لا سبيل الا أن نبدأ حياتنا العملية ..

وكان حسـين يفهم أخاه خير الفهم ، فأدرك لتـوه ما يرمى اليه ، وكان مقتنعا بما يريد أن يذهب اليه ولكن ساءه مكره فتغيظ عليه وقال :

ـ لماذا تقول « نبدأ » ؟ .. لماذا تستعمل صيغة الجمع بينا الأمر يتعلق بى وحدى ؟

وأدرك حسنين أن أخاه نفذ كعادته الى ما وراء كلامه فقـال باشفاق :

ـ انى أقرر مبدءا عاما يجوز عليك اليوم وعلى غدا .

ـ تعنى أنه يجب أن أجد وظيفة ؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل :

ـ ما رأيك أنت ؟

فالتفت حسين صوب أمه وسألها مبتسما :

ـ ما رأيك أنت يا أماه ؟

وأثرت ابتسـامته فى نفسها تأثيرا عميقا ، وأدركت أنه يضع مصيره بين يديها . وأنه يحملها وحدها مسـئولية مستقبله . ولكنها لن تقضى عليه بما لا يحب ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربع سنوات أخرى . انه الوحيد الذى يذعن لمشـيئتها بلا تردد أو تذمر فهل يكون جزاؤه الفداء ؟ ! . وقالت الأم بوضوح :

ـ رأيى رأيك يا حسين ..

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعا برغبة عابثـة فى مضايقة حسنين :

ـ أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالى ..

فقالت نفيسة بسرور :

ـ أحسنت ...

وقال حسنين بعد تردد :

ـ أمامنا أربعة أعوام عجاف أخرى ..

فقال حسين مبتسما :

ـ عام واحد فحسب ثم تتوظف أنت فى نهايته ان شاء الله ..!

فضحك حسنين مغلوبا على أمره وقال بلهجة المعتذر :

ـ لعلك تظن أننى أريدك على أن تتوظف لتتيح لى فرصة أكمل فيها تعليمى العالى فى هدوء وطمأنينة ، ولكن الحقيقة أننى أود أن أرحم أسرتنا مما تعانيه ، وفضلا عن هذا وذاك فاذا كان على أحدنا أن يضحى بذاته ـ اذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية ـ فأنت الذى يجب أن تبذل هذه التضحية ، لا لأنى أريد لك ما لا أريد لنفسى ، ولكن لأن أسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاما آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتى أنا .

فضحك حسين قائلا :

ـ منطق زائف . انى أعلم علم اليقين أنك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذى بعده ..

وقالت الأم حسما للجدل :

ـ افعل ما تشاء يا حسين ، ولا اعتراض لنا ..

فابتسم اليها فى صفاء وقال :

ـ لم أعن مما قلت حرفا واحدا ولكنى أردت أن يعرف حسنين انى أحسن فهمه . ولست ألومه أيضا على تفكيره فله عذره . ينبغى أن يضحى أحدنا ويرضى بالتوظف الآن ، وهذا هو واجبى أنا ، أنا أخوه الأكبر ، وأنا صاحب البكالوريا . انى أدرك الحال على حقيقتها ، وأعلم أنه من القسوة الشريرة أن أفكر فى تكملة تعليمى ، فلأرض بحظى ، ولندع الله جميعا أن يوفقنا الى ما نريد ..

وقرأ الارتياح فى أعينهم جميعا رغم ما تنطق به ألسنتهم من عبارات الأسف ، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه . « أسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمأنينة . ها أنا أعيد الى نفوسها بعض هذه المعانى . علام آسف ! . مدرس

أو كاتب سيان . لو كنا نقتصد فى أحلامنا ، أو كنا نستلهم الواقع فى خلق هذه الأحلام ، لما ذقنا طعم الأسف أو الخيبة » ...

٤٥

وقالت الأم :

- لدينا أحمد بك يسرى صديق المرحوم والدكم ، وهو يستطيع أن يوظفك فى غمضة عين ..

وتفكرت الأم مليا ثم واصلت حديثها قائلة :

- لن أستطيع الذهاب اليه بنفسى لأن معطفى لم يعد لائقا للظهور أمام الناس المحترمين ، فامض اليه أنت ، وخذ معك أخاك تتشجع به . وما عليكما الا أن تقولا للبواب انكما ابنا المرحوم كامل افندى على ...

وذهب الشقيقان عصرا الى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابلته كما أوصتهما أمهما فغاب البواب دقائق ثم جاء ليدعوهما الى حجرة الاستقبال . ودخلا يسيران فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران الى شتى الأزهار التى كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة ، ثم صعدا الى السلاملك ، ثم الى بهو الاستقبال الكبير ، واتخذا مجلسهما بارتباك على كثب من الباب بالموضع الذى اختارته أمهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعا على البساط الغزير الذى يغطى أرض الحجرة الواسعة ، والمقاعدالكثيرة الأنيقة ، والطنافس والوسائد ، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة ، والنجفة المتدلية فى هالة لألاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية . وأشار حسنين الى النجفة وقال بسذاجة :

- مثل نجفة سيدنا الحسين !

وكان حسين يفكر فى أمور أخرى فقال :

ــ نعم ... دعنا من النجفة ، ما عسى أن نقول ؟ .. ينبغى أن تساعدنى بلسانك !

فقال حسنين هازئا :

ــ أتظن أنك ستحادث شيطانا ؟ .. تكلم بشجاعة ، وسأتكلم أنا أيضا . ملعون أبوه !

وندت عنه اللعنة ــ لا لحنق ــ ولكن ليشجع أخاه ، وليتشجع هو نفسه . وألقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء ثم تساءل بصوت منخفض :

ــ هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا فى نفوس ورثته ؟

فقال حسين بنصف وعى :

ــ أما كنا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنيا ؟

فقطب الشاب متفكرا ثم قال :

ــ أعتقد هذا . ولكن لعل الحزن أنواع ودرجات . آه .. لماذا لم يكن أبونا غنيا ؟ !

ــ هذه مسألة أخرى ..

ــ ولكنها كل شىء . خبرنى كيف صار هذا البك غنيا ؟

ــ لعله وجد نفسه غنيا ...

فالتمعت عينا حسنين العسليتين وقال :

ــ يجب أن نكون جميعا أغنياء ...

ــ وإذا لم يكن هذا ؟ !

ــ اذن يجب أن نكون جميعا فقراء ..

ــ وإذا لم يكن هذا ؟ !

فقال بحنق :

ــ اذن نثور ونقتل ونسرق ..

فابتسم حسين قائلا :

ــ هذا ما نفعله منذ آلاف السنين ..

- يعز على أن أتصـــور أن أن تمضى حياتنا فى عنـــاء وقذارة الى الموت ...

فقال حسين مبتسما :

- لا قدر الله ...

وقبل أن يفتح حسنين فمه سـمعا وقع أقـدام آتية من الفراندا ، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض فى بذلة بيضاء جريرية ، وسلم عليهما مرحبا وهو يتفرس فى وجهيهما بعينين ضاحكتين ، ثم سألهما وهو يجلس :

- أهلا بابنى الحبيب المرحوم ، كيف حال والدتكما ؟

فشكرا له بلسان واحد ، وقد نسى حسنين فى طيب اللقاء حنقه على حين عاود حسين ارتباكه . وتوجس أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذى لا بد أن يسفر عن بذل وعطاء ، وكان يسلم سلفا بأنه لن يستطيع أن يرفض لهما رجاء اذا سـألاه . والحق انه لم يكن بخيـلا ، بل كان جوادا ولكن لا عن طيب خاطر ، كان يجود فى برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول « لا » . وتغلب حسين على ارتباكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغنى نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة .

- حصلت يا بك على البكالوريا ، وظروف أسرتنا تضطرنى الى البحث عن وظيفة ، لذلك رأت والدتى أن ترسلنى الى سعادتك لما لنا جميعا فيك من عظيم الرجاء ..

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ ، ثم قال :

- وظيفة ؟! .. باب الحكومة ضيق فى أيامنا هذه ، ولكنى سأبذل ما فى وسعى يا بنى . لا أعتقد أنى سـأجد لك وظيفة فى الداخلية ولكنى صديق لوكيل المعارف ، وكذلك وكيل الحربية ، جهز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية ..

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلما وغادرا الفيللا ، وألقى حسنين على الفيللا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها ، وعاد ببصره الى وجه

أخيه فوجده راضيا حالما فساءل نفسه فى دهشة : ترى هل يفرح الآن بما عده بالأمس تضحية ؟ . ثم قال :

ـ أيقنت الآن فحسب ، وبعد أن تنسمت عبير الحياة الحقة فى هذه الفيللا ، أنه من الظلم أن نعد أنفسنا بين الأحياء . .

وكان حسين مشغولا بالتفكير فى طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعن بالرد على أخيه ، فقال حسنين حانقا :

ـ انى أعجب لما تتحلى به من رضى وهدوء ! . . ولكنه تظاهر لا يمكن أن يخدعنى . .

فغمغم حسين مبتسما :

ـ وما جدوى الحنق ؟ . . لن نغير الدنيا !

ـ يجب أن تتغير . من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف والمأكل الصحى والمركز المرموق . ولكنى أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيرا أبدا . .

فحدجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له :

ـ ولكنك تتمتع بالحب ، وستكمل تعليمك . . أليس هذا خيرا ؟

ونظر اليه ثم نظر فيما أمامه ، ترى ماذا يعنى ؟ . وشعر بعدم ارتياح ، وتضاعف ضيقه . ثم روح عن صدره متسائلا :

ـ ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟ . . ان لنا حقوقا بديهية ولا يجوز أن يضيع شىء منها ، فأين نحن من هذا ؟ . . كيف تعيش ؟ . . ماذا تكابد أمنا ؟ . . أين أخونا حسن ؟ . . كيف انقلبت أختنا خياطة ؟ . .

وقطب حسين وقد تنغص عليه صفوه ، وتناسى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقا ، وصاح بأخيه فى لهجة تنم على العتاب :

ـ خياطة . . .

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

ـ نعم خياطة ، هل تكره هذا حقا ؟ . أتتمنى حقا لو كانت

تزوجت كأمثالها من الفتيات ؟ ! .. كذب . لو كانت تزوجت ، بل لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا الى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة . هذه هى الحقيقة ..

واشتد الغضب بحسين ، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه ، ولكن لأنه يسلم به فى أعماقه ، ولأنه ما كان يرحب حقا بزواج الفتاة وسعادتها . « اننا نأكل بعضنا بعضا ، ينبغى أن نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغى أن نسر بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهذا الشاب المتذمر ينبغى أن يسر بانقطاعى عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . يأكل بعضنا البعض . أى وحشية . أى حياة ! لعلى لا أجد الا عزاء واحدا وهو أن قوة أكبر منا جميعا تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما ، واننا نصمد ونقاتل . » وتركز تفكيره فى الخاطر الأخير ، فيما سماه العزاء الوحيد ، فسكنت نفسه ، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— نحن لا يأكل بعضنا البعض . لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفطن لهذا) .. لا تقل هذا أبدا . نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر . وواجب كل واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية .. !

ثم طلب الى أخيه فى حزم أن يمسك عن الجدل ، وكانا بلغا محطة الترام ..

٤٦

وتبين لحسين أن الوظيفة - أو التضحية التى رضى ببذلها عن طيب خاطر - لم تكن منالا يسيرا ، فقد انصرمت ثلاثة أشهر وهو يتردد فى هم ويأس مابين ڤيللا أحمد بك يسرى ووزارتى المعارف والحربية . وأخيرا أخبره البيك بأنه أمكن الحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية ، وحثه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله فى أول أكتوبر . وسر الفتى ، وسرت الأسرة ، ولكنه سرور لم يكن خالصا ، وشابته مرارة . كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كى تنتشل الأسرة من وهدتها وتبدلها حالا بعد حال ، فجاء السفر مخيبا لهذا الرجاء ، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها ، وأيقنت أن الوظيفة لن ترفه عن الأسرة الا قليلا ، وأن خيراتها ستتبدد ما بين طنطا والقاهرة . والى هذا كله فقد لاح فى أفق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه فتوجعت قلوبها ، وعجبت الأم لهذا الحظ الذى يأبى أن يمنحها إبتسامة الا تحت عبوسة متجهمة ، والذى يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذى لا يخلق لها المتاعب . كانت ترى فى حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة ، وكانت تجد عنده من الأنس والراحة ما لا تظفر به عند غيره . أجل لم يكن أحب الجميع الى قلبها ، اذ كان حسنين الطفل المشاكس الذى يحظى بهذه المنزلة ، ولكنه بدا لعينيها وقتذاك كأنفس ما تملك فى حياتها . ووقع الفراق من نفس حسين موقعا سيئا ، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوما واحدا فى حياته ، وضاعف أثره فى نفسه تعلقه الشديد بأمه واخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم . وكان يقول لنفسه كثيرا « سأعيد نفيسة الى بيتها سيدة

محترمة حال تسلمى أول مرتب من الحكومة » ولكنه رأى حلمه يتبدد ، وغدا يذهب الى بعيد مخلفا أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست أفضل كثيرا مما كانت عليه . ولعل هذا ما جعله يمضى الى أحمد بك يسرى مستشفعا بنفوذه على ابقائه فى القاهرة ولكن البيك - وكان ضاق به - أخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق فى الوقت الحاضر . ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التى يجب أن تتوافر له ليقيم بها أسباب معيشته فى طنطا حتى يتسلم أول مرتب له فى نهاية الشهر ، من أين له بهذه النقود ؟ واتجه نحو أخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمها عن جل أرباحها المحدودة ولا تكاد تبقى لنفسها على شىء الا ما يلزم لكسائها ، والى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفى ثمنه - اذا بيع جميعه - بمطلبه ، فلم يجد من ملاذ أمامه الا أخاه حسن . وخاطب أمه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك فى نجدة ابنها الأكبر اذا وسعه ذلك ، وأطلعته على عنوان أخيه لأول مرة فمضى من توه الى شارع كلوت بك وراح يبحث عن عطفة جندف . وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق الى نفسه رويدا رويدا حتى تساءل فى النهاية ترى هل يعطينى حسن ماأريده حقا ؟! واذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها ؟!. ثم اهتدى الى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة ، ووجدها عطفة ضيقة متعرجة ، تقوم على جانبيها بيوت متداعية ، وتسطع فى هوائها الفاسد رائحة السمك المقلى ، وتكتظ بالمارة وعربات اليد ، وتتجاوب فى جوها نداءات الباعة تتخللها شتائم ونحنحات محشرجة وبصقات غليظة ، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب فى الصعود تدريجا حتى خيل اليه فى النهاية أنها مقامة على سفح تل . ومضى الشاب الى البيت رقم ١٧ ، وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنه عمود ضخم ، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة

دوم ولب وفول سودانى فدخل كالمتردد وارتقى سلما حلزونيا بغير درابزين وقد زكمت أنفه رائحة نتنة صاعدة من بئر السلم ، حتى انتهى الى الدور الثانى وطرق الباب . كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا ، وكان أخوف ما يخافه ألا يجد أخاه فى الشقة ، وزاد من خوفه أن أحدا لم يلب الطارق . وعاود الطرق بشدة ويأس حتى كلت يداه ، ثم وقف يائسا لا يدرى ماذا يصنع ، وقبل أن يتحول عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يهتف بحنق :

ــ من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة ؟!

ودق قلبه بسرور ، وقال يجيب الصوت الذى عرفه حق المعرفة :

ــ أنا حسين يا حسن ...

وقال الصوت بدهشة « حسين » ، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يرفع ، وفتح الباب فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمرتين منتفختين فمد له يده وهو يهتف بدهشة :

ــ حسين !.. أهلا وسهلا ، ادخل ، خيرا ان شاء الله ، ماذا وراءك ؟

فدخل حسين فى شىء من الارتباك ، وسرعان ما تطاير الى أنفه عرف بخور طيب بدا عذبا مريحا عقب رائحة السلم ، ووجد نفسه فى دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة الى يمين الداخل والأخرى فى مواجهته والى اليسار المرافق . وابتسم حسين الى أخيه وقال كالمعتذر :

ــ هل أتيت مبكرا ؟.. الساعة الحادية عشرة !

فتثاءب حسن طويلا ثم قال ضاحكا :

ــ انى أستيقظ عادة حوالى العصر . المغنون ليلهم نهار ونهارهم ليل . ولكن خبرنى قبل كل شىء كيف حالكم ؟

ــ بخير والحمد لله .. وكيف أنت ؟

فقال وهو يسير به الى الحجرة التى الى يمينه :

ـ نحمده ..

دخلا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما الى الجدار الداخلى كنبة علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكتين ، فثبتت عينا حسين عليها فى دهشة لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكا :

ـ ماذا يدور برأسك ؟

فسأله حسين بسذاجة :

ـ هل تزوجت يا أخى ؟

فأجلسه على الكنبة ووثب الى الفراش وتربع عليه وهو يقول :

ـ تقريبا ...

ـ خطبت ؟

ـ الثالثة ...

ـ الثالثة ؟ !

ـ أعنى الفرض الثالث !

فرفع الشاب اليه عينين داهشتين فى وجوم ثم ابتسم ابتسامة آلية على الرغم منه ولاح فى وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عاليا وقال باستهانة :

ـ هى زوجة فى كل شىء الا العقد ...

فسأله حسين فى خوف :

ـ ألست وحدك الآن ؟

فحنى رأسه دلالة الايجاب ، ثم تثاءب بصوت مرتفع كالنهيق ، ثم قال محذرا :

ـ طبعا لن تخبر أحدا ؟

ـ طبعا ...

فضحك حسن وقال :

ـ لا أحب ايذاء مشاعرهم ، هـــذا كل ما هنالك . وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء ؟

فهز الشاب رأسه سلبا فى حياء ، فسأله مستطردا :

ـ وحسنين ؟

فارتج قلبه فى خوف وألم لم يدر لهما سببا ، ثم قال :

ـ ولا حسنين ...

فتفكر حسن مليا ثم قال :

ـ هــذا أفضل بالنسبة لكما .. (ثم ضاحكا) اذا نويت الزواج يوما فاقصدنى أزودك بنصائح عظيمة .

فقال حسين بهدوء :

ـ لست أفكر فى الزواج كما تعلم ...

ـ أمن الممكن أن يتزوج حسنين قبلك ؟

فخفق قلبه ، ولكنه قال بهدوء :

ـ هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم ...

فقال حسن بتأثر :

ـ على أية حال اذا انتهى حسنين من دراسته فليس ثمة عائق .. آه ، على فكرة ، ماذا جد من أنباء الوظيفة التى تبحث عنها ؟

وسر حسين بما هيأ له من فرصة يلج بها موضوعه فقال :

ـ لقــد جئتك لأخبرك بأننى تعينت كاتبا بمدرســة طنطا الثانوية ، وبأننى سأتسلم عملى فى أول أكتوبر ...

فقال حسن بدهشة :

ـ هل تسافر الى طنطا ؟... وما الفائدة التى تجنيها أمك اذا فتحت بيتا جديدا فى طنطا ؟

ـ فائدة قليلة ، ولكن ما الحيلة ؟

ـ هذا سوء حظ قارح ، وهذه هى نتيجة المدرسة !

فابتسم حسين يغالب ارتباكه ، ولم أطراف شجاعته وقال :

ـ سأسافر فى نهاية سبتمبر ، وأنت تعلم أن الحكومة تصرف المرتبات مؤخرا !

وأدرك حسن ما يعنيه قبـل أن يتم كلامه ، فتفكر دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور فى نفسه . ثم سأله :

ـ وما المرتب الذى تنتظره ؟

ـ سبعة جنيهات .

ـ يا خيبتها يوم أرسلتك الى المدرسة ! .. وطبعا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليما ؟

فابتسم حسين فى تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو أخيه ـ فى هذا الموقف ـ من الارتباك والحياء كأنه يسأل رجلا غريبا . وجعل حسن ينظر اليه صامتا وعقله لا ينى عن التفكير . « جاء حسين فى ظرف غير مناسب . انى أنتظر نقودا لا أدرى متى تأتى ولكن يدى الآن فارغة . مصفاة لا يبقى فيها شيء . تباً لها ! لايمكن أن أصارحه بالحقيقة ، لتقم القيامة قبل ذلك . انه فى حاجة ملحة الى النقود ، ولابد أن يحصل عليها . مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات ، وليست فى الواقع بالكثيرة ، ثمن أوقيات حشيش، وينفق مثلها أى فتى أرعن فى أسبوع بدرب طياب . سناء مفلسة أيضا ، لم أعد أبقى لها على شيء . ولكن لابد أن أعينه ، كيف ؟ لماذا لم يحضر الا اليوم ؟ ، الام تبقى أسرتنا شوكة فى جنبى ؟! » . وظل ينظر الى أخيه صامتا حتى امتلأ حسين قلقا وخوفا . ثم غادر حسن الفراش فجأة وذهب الى الصوان ففتح درجا وعكف عليه دقائق ثم عاد الى مجلسه ومد يده الى أخيه فاذا فيها أربع أساور ذهبية ، وقال بسرعة :

ـ خذ هذه الأساور ، وبعها فى الحال وانتفع بثمنها ..

وجمدت يد حسـين فلم تتحرك ، واتسعت عيناه انزعاجا وانكارا ، وهتف وهو لا يدرى :

ـ ما هذا ؟! . . . أساور من هذه ؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر :

ـ أساور سناء ، امرأتى !

ـ وبأى حق آخذها ؟

ـ ان أخاك يعطيك اياها . لا شأن لك بصاحبتها ..

واشتد انزعاجه وتساءل فى امتعاض كيف يعيش أخوه ؟ ثم تمتم :

ـ لست مرتاحا الى أخذها . أما من سبيل آخر ؟

وحنق حسن على هذا « التعفف » فقال بجفاء :

ـ اذا كنت حنبليا حقا فما عليك الا أن ترفضها ، وليس عندى غيرها ! ..

فرمقه بارتياب ، ولكنه قرأ فى وجهه الصدق فأحس بضيق وقهر . « أساور امرأة !.. وأى امرأة !. محال . شىء لا يصدق . ولا يمكن أن يدور لى بخلد ، ولم أعلم – ولو فى كابوس – بأنه واقع لى . كيف يمكن أن أحترم نفسى بعد ذلك ؟!. أرفض ؟. والعمل ؟!. ليس لديه نقود أخرى ، ينبغى أن أصدقه . ولكن محال أيضا أن أضيع الوظيفة ، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة ؟ كلا لا يمكن أن أرفض . لايمكن أن أقبل . لايمكن أن أرفض . لايمكن أن أقبل . أرفض . أقبل . أرفض . أرفض . أقبل . أقبل . شىء واحد يستحق اللعنة ، هو الحياة . الحياة والحظ ... والوالدان اللذان أتيا بنا الى هذه الدنيا . كان يلعب بأوتار العود ولا يبالى شيئا !. سحقا لى ، كيف أفكر ؟. هيهات أن تذهب من مخيلتى صورة جثمانه . رحمه الله ، ليس الذنب ذنبه . كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات . حجرة الدجاج على السطح ملتقى حسنين وبهية . شىء تشمئز منه النفس ؛ فلأرفض . ولكن لا حياة الا بالاذعان . لن يدرى أحد . ولكنى سأذكره ماحييت ، وسأخجل منه ماحييت . انه ينتظر الجواب فاما الاذعان واما الموت . فلآخذها كدين ثم أقضيه عند الميسرة . انك تخادع نفسك . بل انى صادق ولأقضين

ديني . أرفض أو لا تزعم بعد الأن أنك رجل شريف . انى جائع . شريف وجائع . ولن أرفض . تباً للحياة . انى أدرك الآن ماذا ساق أخى الى هذا الوكر . أسرة ضائعة وحياة قاسية . يجب أن أبت فى الأمر والا انفجر رأسى . كالدجاج ...

ـ ماذا قلت ؟

ورفع اليه عينيه فى ذهول وقد أثر فيه صوته تأثيرا مخيفا . وكانت الأساور ما تزال فى يده ، فخفض عينيه وقال بخجل :

ـ انى أشكر لك كرمك ، وأقبله على العين والرأس ، وأرجو أن تعده دينا أقضيه عند الميسرة باذن الله ..

ـ اقبله هدية اذا شئت ، ولا تنس أن تخبر أمك باننى اقترضت النقود من الأستاذ على صبرى ..

وأثار ذكر أمه ألماً حادا فى نفسه فوجد امتعاضا ، وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها فى جيبه ، ثم قال :

ـ يؤسفنى اننى أزعجتك ، وأظن أنه ينبغى أن أذهب كى تواصل نومك ..

فمد حسن له يده بالسلام ، وضغط على يده باسما ، ثم قال :

ـ مع سلامة الله . بلغ تحياتى للجميع ، وقل لأمك بأننى سأزورها قريبا ...

وغادر الشقة شاعرا بغرابة وانكار . وهبط السلم الذى لا درابزين له فى حذر ، ولكنه لم يتنبه للرائحة النتنة من شدة اغراقه فى تيار أفكاره ..

٤٧

كانوا يجلسون بحجرة الاخوة التى ستصبح من الآن فصاعدا حجرة حسنين وحده . ورنت نفيسة الى وجه حسين فغمر الألم قلبها وهتفت :

ـ رباه ، هذه آخر ليلة تجمعنا معا !

وأحست الأم بطعنة تصيب فؤادها الذى علمه الدهر من الصبر فنونا ، ولكنها ابتسمت ، أو رسمت ابتسامة على شفتيها الجافتين ، وقالت بعطف :

ـ حسين رجل كامل ، وسيعرف كيف يعيش وحده دون ارتبـاك أو اضطراب . وانى مطمئنة كل الاطمئنان الى أنه لن ينسانا ، فسيذكرنا دائما كما سنذكره دائما . هذه هى الحياة يا عبيطة ، ومصير كل أسرة الى التفرق السعيد ـ على ما به من حزن ـ حيث ينهض كل بدوره الجديد . .

وكان حسين يعـرف أمه جيدا فأدرك أنها تدارى حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائما ، فصمم على أن يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك . لقد بكى مرة كالأطفال ولكنه لن يبكى مرة أخرى ، وتمتم مقلدا أمه فى ابتسامتها :

ـ سوف نلتقى فى الاجازات ، ولعلى أنقل يوما الى القاهرة .

فقال حسنين بأمل :

ـ لا بد أن يحدث هذا يوما ما . .

وكان حسنين يجد كآبة وحزنا . لم يفترق عن شقيقه مذ رأى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقى الحياة بدونه . كان شقيقه وصديقه معا ، أجل كثيرا ما نشب النزاع بينهما ، وبلغ الشجار أحيانا ،

ولكن لم يكن لأحدهما غنى عن الآخر . لو كانت بهية أقل عنادا لما شكا الوحدة قط ، بيد أنه بوسعه أن يتعزى عن الفراق بالرسائل يحبرها له من آن لآن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب العشرة والحديث ، ولعله يستطيع أن يسافر اليه فى العطلة . ترى هل يمكنه أن يجرى عليه راتبا شهريا ؟ خمسون قرشا أو ثلاثون خصوصا وهو يعلم بأن راتب الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية ! ليت شجاعته تؤاتيه الآن فيحدثه بأمانيه !.. ولكن صبرا ، وليؤجل هذا الى فرصة أوفق .

وكانت الأم تواصل التفكير بلا توقف . لقد وفقت الى الظهور بالمظهر الذى تحب أن تظهر به ، أو الذى اعتادت أن تظهر به ، ولكنها كانت تعانى ألما عميقا بلغت شدته ذروتها هذا المساء ، كانت تكابد تأنيبا خفيا لشعورها بأنها تؤثر حسنين بأكبر جهاد ، والآن ماذا ترى ؟ .. ترى الأخ الوديع يضحى بمستقبله ويرمى بنفسه بين أحضان النوى فى سبيل الأسرة ، بل فى سبيل حسنين بالذات . وضاعف من آلامها أنها كانت ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون عن العواطف ، حديث ان دل ظاهره على الحدب على الفتى المسافر فباطنه يرمى الى الدفاع عن الأسرة قبل كل شىء . وجعلت تؤجله وهو يلح عليها حتى اقتنعت بأنها اذا لم تسبقه الآن فقد تفلت منها الفرصة الى الأبد ، ونظرت الى حسين باشفاق وحنان ــ وكان يرتب ثيابه فى حقيبة أبيه ــ وقالت :

ــ انك رجل عاقل ، وهذا ما يجعلنى جديرة بالاطمئنان . ولست أطمع فى شىء أكثر من أن تواصل سيرتك الحميدة فى بلدك الجديد ، وأن تحذر صحبة السوء ...

فابتسم حسين قائلا :

ــ اطمئنى كل الاطمئنان يا أماه ...

على أن عبارة « صحبة السوء » استدعت الى مخيلته صورة

عطفة جندب والبيت الذى لادرابزين له والأساور الذهبية فشعر بفتور أغاض الاشراق الذى رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليوارى وجومه عن الأعين ، أما الأم فاستطردت قائلة باهتمام :

ـ ولا تنس أسرتك . حقا ليس ثمة حاجة الى تنبيهك لهذا ، ولكننى أحب أن أذكرك بأننا سنظل فى حاجة الى رعايتك حتى يتوظف حسنين وتتزوج نفيسة !

ـ ما توظفت الا لهذا .

وسرت فى نفس نفيسة قشعريرة رعب ، ونفذت كلمة «تتزوج» الى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من خبيئتها . ألا يزال هذا الأمل يداعب أمها ؟ .. ألا تدرى أن الموت أحب اليها منه ؟ . ونظرت الى وجه حسين بغرابة ، انه لا يدرى ، وهيهات أن يخطر لهم هذا على بال. هيهات هيهات . وغابت الحجرة عن عينيها فخيل اليها انها تراهم وقد أحدقوا بها فى ثورة جنونية وقد جحظت أعينهم ملتهبة بنار الغضب ثم انقضوا عليها كالوحوش . وهزت رأسها لتطرد عنها أشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت الى حاضرها، ولكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها ساعات ضعفها تلك الساعات التى تذهل فيها عما يدفعها الى تسليم نفسها من دواعى اليأس والفقر ، هنالك تنسى كل شىء الا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها أفظع تمثيل . تذكرت ساعات الضعف هذه وهى بينهم صامتة فعلاها خجل أليم وخوف لا قبل لها به ، وعادت تردد بصرها بين أمها وشقيقيها بغرابة . ما يزال أمامها فرصة للتراجع ، لا لرأب الصدع طبعا فقد ولى أوانه ، ولكن ... ، رباه لا تدرى ماذا تقول ، ما الفائدة ؟ ، أى أمل قد بقى لها فى الحياة ؟ .. لقد قضى عليها بأن تقضى على نفسها ..

واصلت الأم حديثها قائلة :

ـ انظر ماذا يلزمك من نقود كى تنهض بضرورات المعيشة

وأرسل الينا الفائض من مرتبك . لابد من هذا يا حسين لأنه لم يعد يبقى لدينا ما يستحق البيع .

ـ سأبذل قصارى جهدى .

وتبدد أمل حسنين ـ أو كاد ـ من الفوز براتب شهرى من أخيه بعد أن طالبت الأم بالفائض من مرتبه . أجل لا يبعد أن تحس الأسرة بشيء من الترفيه ولكنه لن يروى جفاف يده ، خاصة فى العطلة الصيفية الطويلة . ترى هل تطالبه أمه اذا وظف يوما بما تطالب به حسين ؟. غير معقول . اذا انتهى هو من دراسته فستتخفف أمه من أثقل وأجبات الأسرة ، ويسعه وقتذاك أن يتزوج وأن يعنى بأمر نفسه . ان نفيسة وحسين يتصديان للزوبعة فى ابانها ، وقد وجد نحوهما عطفا ورثاء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظه .

ولم تفرغ الأم من الافصاح عما يدور بنفسها كله ، فودت لو تحذره من أن يستدرجه أحد الى الزواج . ولم تكن تجهل أن كثيرا من الآباء والأمهات يتصيدون العزاب أمثاله فى غربتهم بسهولة : ولكنها لم تدر كيف توجه اليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذا ! . عدلت عن رغبتها كارهة ، ولكن مطمئنة فى الوقت نفسه الى رجاحة عقله وحسن تقديره . وتحدثوا طويلا ماشاء لهم الحديث . ثم جاء فريد افندى محمد وأسرته لتوديع حسين ، واستقبلوهم كما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور ، فليس ثمة أحد الا ويقدر مودتهم وكرمهم وحسن جيرتهم . أجل لعله طرأ على بعض النفوس تغير باطنى منذ تمت خطبة حسنين لبهية غير الرسمية ، فالأم مثلا آمنت بأنهم رموا شباكهم حول الفتى قبل أن ينهض ، وانهم راموا باستئثارهم أشد آمالها تألقا ، أما نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحب شخصا يطمح الى امتلاك حسنين خاصة . ولكن هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثر فى رابطة الود والاخاء التى تجمع بين الأسرتين ، ولم يكن

من الهين أن تنسى الأم أيادى فريد افندى ومروءته . وقد سر حسين بزيارة التوديع سرورا كبيرا ، ووجد نحو الأسرة التى يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق - امتنانا عميقا . وجرى الحديث بين ذكريات الماضى وآمال الحاضر لطيفا صادقا ، مباركة عليك الوظيفة ، تسافرمصحوبا بالسلامة ، ستترك وراءك وحشة ، لقد خسر سالم أستاذا لا يعوض ، ألخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت برقة « تعود بالسلامة قريبا ان شاء الله » فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه « فتاة حسناء حقا ، مهذبة محتشمة ، وحسنين شاب رائع وسيكون زوجا رائعا . ترى ألم يقبل هذا الثغر ؟ . طالما شكا تحصنها متذمرا فيالها من فتاة نادرة حقا . سأسافر غدا وتمسون صورا وذكريات ، وستجتمعون كاجتماعكم هذا ، وربما لا تذكروننى الا قليلا ، أو لا تذكروننى بتاتا ، ولكن كيف أكون ؟ وأين ؟ وهل أملك مع وحدتى الا أن أذكركم ؟ كلما اشتد الدهر ازددت قوة وصبرا ، ولأظلن هكذا الى الأبد ! .. »

٤٨

غاب وجه حسنين فى زحمة المودعين ، وتراجع سقف محطة مصر الهرمى حتى بدا من الداخل مظلما ، كل شىء يتراجع بسرعة متزايدة ، وداعا يا مصر . وعاد حسين برأسه الى الداخل واعتدل فى جلسته وهو يغمض عينيه ليخفى دمعة رقيقة غالبت ارادته طويلا ورمش سريعا لينفض نداها عن أهدابه . وكان الى يساره أفندى يتصفح جريدة على حين جلس قبالته قرويان يتجاذبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممتلئة الا أن ضجة الراكبين كادت تعلو على صلصلة عجلات القطار ، وذكر فى حزن مرطب بسرور أنه رأى دمعة فى عينى حسنين ، أجل لقد تجلدا وهما

يتحادثان على طوار المحطة ، ولكن حين تحرك القطار وأخذ الفتى يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع . وفى البيت كانت نفيسة تبكى صراحة حتى التهبت عيناها ، لشد ما يذكر وجهها ــ الذى حرمه الله نعمة الحسن ــ بعطف ورثاء وحنان . أما أمه ــ وقد ابتسم على رغمه ــ فقد ضمته الى صدرها وقبلت خديه ، ولعلها تفعل هذا لأول مرة ، أو فى الأقل فهو لا يذكر انها قبلته قبل هذه المرة ! . لشد ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم ، هذا طبعها ، ولكن هيهات أن يطمس حنانها العميق . ولم تشأ أن تبكى وهى تودعه اذ أنها تتشاءم من دموع التوديع ، ولكنه قرأ فى تقلص جفنيها نذيرا بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعا اذا واراه الباب عن عينيها . وقال لنفسه لعلها بكت طويلا ، ولعلها لا تزال تبكى ، وشعر لهذا بكآبة وحزن . ولم يكن رآها تبكى قبل وفاة والده فاشتد تأثره ، « يا لها من امرأة عظيمة . شاء الله أن يبتلى أسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر أن تكون هذه المرأة أمنا . ماذا يكون مصيرنا لولاها ؟ . كيف غذتنا وكستنا ؟ كيف سيطرت على توجيهنا ؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا فى هذه الظروف القاسية ؟ يا لها من معجزة تحير العقول . حتى حسن أخى ففى ظنى أنه لولا المرحوم أبى لأمكن أن تجعل منه رجلا غير الرجل . آه . . لأقتصدن فى الكلام عن حسن . لولاه ما عرفت سبيلى الى وظيفتى ، نقوده هى كل مالى حتى آخر الشهر . الأساور ؟ . يا للذكرى ! . انس ، ينبغى أن أنسى كى أعيش . سأقضى الدين يوما وأسدل الستار على أسوأ الذكريات » . وأرسل بصره من النافذة فارا من أفكاره فرأى الحقول تترامى حتى الأفق ، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء فى موجات متصلة ، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض ، وسوائم ترعى ، وفوق هذا كله سماء الخريف متلفعة ببياض شاحب ينحسر فى أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية . ومر

القطار بجدول صاف ذابت أشعة الشمس على سطحه زئبقا يبهر الأعين . ورأى أسلاك البرق فى أمواجها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح فى الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة . ثم مد بصره كرة أخرى الى الأرض المنبسطة ، الصامتة الصابرة ، الخيرة ، فذكر دون وعى أمه ! .. كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه !. لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنها لا تجد الثياب اللائقة ! . وتغيمت عيناه فغابت عن ناظريه بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتى يرفه عن أمه المتصبرة وأسرته المتجلدة . « يا للعجب . أن مصر تأكل بنيها بلا رحمة . ومع هذا يقال عنا اننا شعب راض . هذا لعمرى منتهى البؤس . أجل غاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا . هو الموت نفسه . لولا الفقر لواصلت تعلمى هل فى ذلك من شك ؟. الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هـــذا وراثية . لست حاقدا ولكنى حزين . حزين على نفسى وعلى الملايين . لست فردا ولكننى أمة مظلومة ، وهذا ما يولد فى روح المقاومة ويعزينى بنوع من السعادة لا أدرى كيف أسميه . كلا لست حاقدا ولا يائســـا أيضا ، واذا كانت فرصـــة التعليم العـــالى قد أفلتت من يدى ، فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب . ســوف ترد الروح الى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار » . ولاحت منه التفاتة الى يساره فوجد الأفندى الذى كان يتصفح الجريدة قد طواها ونظر اليه نظرة من ضاق بالوحدة والصمت ، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داع ولا تمهيد وهو يلوح له بالجريدة المطوية :

ـ لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء ، من كان يتصور أن يجلس صدقى مع النحاس على مائدة واحدة ؟

ورحب حسين بالحديث ليريح رأسه من أفكاره وقال :

ـ هذا حق يا سيدى .

ـ ومن كان يصـــدق أن يعترف الانجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وأن ينزلوا عن التحفظات الأربعة ؟.. أتظن أن تلغى الامتيازات حقا ؟

ـ أعتقد هذا .

فقال الرجل بسرور :

ـ سيحكم النحاس الى الأبد . انتهى عهـد الانقـلابات . حضرتك وفدى ؟

ـ نعم ...

ـ قرأت هذا فى سماحة وجهك . الوطنى هو الوفدى ، وما الأحرار الدستوريون الا انجليز بطرابيش بصرف النظر عما يقال عن الائتلاف وفوائده .

ـ هذا حق لا شك فيه ...

ـ حضرتك مسافر الى الاسكندرية ؟

ـ الى طنطا فقط .

ـ شى لله يا سيد يا بدوى ، لقد عشت فى طنطا أعواما ..

ولاح الاهتمام فى وجه حسين فسأل :

ـ انى موظف جديد ، فهلا دللتنى على فندق معتدل الأسعار يصلح للاقامة ؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرا ثم قال :

ـ عليك بفندق بريطانيا بشـارع الأمير فاروق لصـاحبه ميشيل قسطندى .

يمكن أن تقيم فى حجرة نظير جنيه ونصف شهريا ..

ثم تحدثا طويلا عن الاقامة فى الفنـادق وسكنى الشـقق والمفاضلة بينهما ...

٤٩

كانت حجرته بالفندق صغيرة ، ذات فرش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبى ومشجب . وكان جوها يشى بالرطوبة الكامنة ، اذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم ، فلم تجد الشمس سبيلا اليها . وكان يوجد بالفندق حجرات تطل على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الايجار فعدل عنها الى هذه الحجرة البسيطة قائلا لنفسه : « من العدل أن أعيش كمايعيشون فى عطفة نصرالله » . وكان أول ما فعل أن فتح النافذة وأطل منها مدفوعا بحب الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذى تتفرع منه ، ثم رأى جدار البيت الذى يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وأيقن بأنه لن يظفر فى وحدته بتسلية . وتحول عن النافذة الى مرآة الصوان فطالعته صورته فى هيئة غريبة ، بدا وجهه طويلا وقسماته شائهة الى ما تناثر على صفحتها الباهتة من افرازات الذباب ، فتضاحك وقال مخاطبا صورته « انى أجمل منك بفضل الله ورحمته » ثم مضى يخلع ثيابه ، وارتدى جلبابه ، ورتب ملابسه القليلة فى الصوان الذى بدا على صغره فارغا ، والواقع أنه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية من نسختين ، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع ، وعلى سبيل الاطمئنان دس يده فى جيب الجاكتة وأخرج رزمة الجنيهات وعدها ثم أعادها الى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة ، ثم ذهب الى الفراش وتربع عليه . لا يدرى ماذا يفعل فى بقية النهار ، ولما لم يجد أحدا يحادثه ولا عملا يعمله فقد استسلم بكليته الى التأملات

والأحلام . وشعر بالوحدة والدهشة ، وأدرك أنه سيعانى مر العناء من فراغه . أجل انه يحب القراءة ولكن حتى اذا أمكنه ابتياع ما يريد من الكتب فسيظل لديه من الفراغ ما يضيق به . لم يألف الحياة فى هذا الصمت الثقيل ، وشعر فى وحدته الصامتة بأنه شىء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يأبه له أحد . أين صوت حسنين الحاد العصبى الذى لا يفتأ يضج بالضحك أو بالشكوى ، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث . ولكنه لم يشأ الاستسلام لشعوره ، وآثر أن يبحث شئون ميزانيته التى سينظم معيشته على أساسها . مرتبه سبعة جنيهات ، مبلغ لا بأس به فى ذاته لولا ما يحدق به من ظروف ، منه أجرة سكن ١٥٠ قرشا ، و ٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعداها بحال ، فول للفطور ، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للغداء ، وحلاوة طحينية أو جبن للعشاء ، واذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين ، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرا للمتاعب والارتباك ، انه أعظم من هذا وبوسعه أن يقرر هذه الحقيقة الآن ، وهو فى مأمن من معارضة حسنين ، وان تحمل المضايقة فى سبيل الحياة التى يرضى فيها عن نفسه لألذ من شهوة الطعام . ثم ٢٠٠ قرش لأمه ، وهو قدر زهيد ، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبق لنفقاته النثرية وكسائه الا ١٥٠ قرشا فيما عدا الضرائب التى تخصم عادة من المرتب . ثم تساءل فيما يشبه الحيرة ألا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغا قليلا فى صندوق التوفير ؟ ! . انه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أى قدر كان ، ولا يظن أن انسانا احتضنته أم كأمه يستطيع أن يمارس الحياة بلا اقتصاد . والحق أن أمه بين النساء كألمانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شىء ولو كان زبالة ! . كانت ترقع البنطلون حتى اذا بلغ اليأس قلبته ، فاذا أدركه اليأس مرة أخرى قصت أطرافه وجعلت منه سروالا داخليا ، ثم تصنع من

بعضه طاقية وتستعمل بقيته ممسحة ، ولايلفظه البيت الا فتيتا ! لابد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر ، وأن قسوة الحياة التى عضتهم بلا رحمة لحرية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم . وعندما بلغ هذ الحد من التفكير تداعت الى نفسه مشاعر الخوف التى كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب ، والتى لم يكن من باعث لها الا الفقر . أجل كانوا فى خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الايراد المحدود ، كأن يتعرض أحدهم للمرض ، أو يجد من ناحية المدرسة طلب ، أو تتعطل نفيسة عن الكسب ردحا من الزمن أو أو أو ، مما لا يقف عند حد ، أواه لشد ما يشعر بغمز الألم فى صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات ، ومن خلالها يتراءى لعينيه وجه أمه المعروق الجاف كمثال حى للصبر والألم ، أحب الوجوه الى قلبه على بؤسه ودمامته ، ومن عجب أن نفذت الى نفسه - وقتذاك - نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنه بات قادرا على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها . أجل انه من الغد موظف من موظفى الدولة ، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظفا أيضا من درجة أعلى ، وسيفاخر هو مدى الحياة بأنه قنع بشهادة متوسطة لييسر لأخيه الحصول على شهادة عليا . ترى هل يذكر حسنين هذه العبر ؟ . انه يبدو مشغولا بأمر نفسه عما عداها ، ذكى بلا ريب ، ومجتهد ، بيد أنه ... آه فليمسك عن نقده فى غربته ، فما أشد حنينه اليه ، وما أكبر شوقه حتى الى عناده وملاحاته . ومزق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه . وكان الفندق غير بعيد من المحطة ، فلم يكن بد من أن تذكره القطر بين آن وآن بالقاهرة وأهلها . وعاودته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حنينا دافقا . ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال لنفسه يصبرها ويعزيها : لعلها ضريبة اليوم الأول للفراق ثم يهون الأمر رويدا رويدا . وتحير ماذا يفعل ، هل يقضى سحابة اليوم

فى هذه الحجرة أو ينطلق الى الخارج ليجول جولة فى المدينة الجديدة ، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط أداة النجاة على المتخبط بين الأمواج ، وهو أن يكتب رسالة لأخيه . وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندى وحجرته وأشواقه ثم حمله تحياته الى أمه ونفيسة ، ثم توقف متسائلا هل يهدى تحية لى بهية ؟ هل يذكرها بالاسم ، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندى ؟ ثم آثر الأخيرة بعد تردد طال أكثر مما ينبغى ..

٥٠

وغادر حجرته فى الصباح الباكر ، ولكنه وجد الخواجا ميشيل قسطندى جالسا الى مكتبه البالى عند أسفل السلم . وقد سأله الرجل عما اذا كان يحتفظ بشىء ثمين فى حجرته ، فابتسم حسين على رغمه وقال له « الأشياء الثمينة فى جيبى » . وانطلق الى الطريق ، ثم قصد مطعم فول فى نهايته كان عرف موقعه فى أثناء جولته أمس بالمدينة ، وتناول فطوره ، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة حمص لم يعرف لها نظيرا فى القاهرة . وتمشى فى المدينة حتى التاسعة ثم ذهب الى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه الى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميا . وقد اهتزت نفسه لمرأى المدرسة ، وعاودته ذكريات قريبة حية لاحت فى عينيه كالحلم . وعرف البواب بشخصيته فمضى به الى حجرة الباشكاتب وطلب اليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل . وجلس حسين على كرسى قريبا من المكتب وجعل ينظر خلل الباب المفتوح الى فناء المدرسة فى جو يثقل عليه الصمت . بعد أسبوع يبدأ العام الدراسى وتمتلىء هذه المدرسة بحياة حارة . وذكر كيف كان

- منذ أشهر - يقضى أسعد أوقاته بالمدرسة فى مثل هذا الفناء ، وكيف كان يمتلىء خشوعا حيال أى موظف من موظفيها . انه الآن أحد هؤلاء الموظفين ، بيد أنه لم يستسلم للزهو . ان التلميذ حلم أما الموظف فحقيقة ، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أما الموظف فدرجة ثامنة لا أكثر . ولم يطل به الانتظار فما عتم أن صكت أذنيه سعله غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة ، ورأى على الأثر رجلا يقتحم الحجرة مهرولا ، قصير القامة ، رقيق الجسم ، كروى الوجه ، أعمش العينين . تعلوه صلعة ناصعة البياض ، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يجفف صلعته بمنديل باليد الأخرى ، وما أن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به :

- بسم الله الرحمن الرحيم ، كيف طلعت هنا ؟ .. هل بت ليلتك فى حجرتى ؟ .. تلميذ مستجد ؟ !

فوقف حسين مرتبكا وقال :

- أنا يا بيك الكاتب الجديد حسين كامل على ..

فقهقه الرجل ضاحكا ، ولكن أدركه السعال وعاودته النحنحة فامتلأ فمه مرة أخرى ونظر حوله فى حيرة ، ثم جرى الى الخارج ، وغاب نصف دقيقة ثم عاد أحسن حالا وهو يقول كالمعتذر :

- لعن الله البرد ، أصاب به كل مطلع فصل من فصول السنة ، فتجدنى فى حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة ، لا مؤاخذة يا حسين افندى السلام عليكم أولا ..

فمد حسين يده مبتسما وهو يرد تحيته بأحسن منها ، ثم جلس الرجل الى مكتبه ودعاه الى الجلوس فجلس ، وأنشأ الباشكاتب يقول :

- اسمى حسان حسان حسان . العادة فى أسرتنا أن يتسمى الابن الأكبر باسم أبيه ، ألم تسمع بأسرة حسان بالبحيرة ؟ ... كلا ؟! ... كلا كلا يا سيدى ، الله الغنى ، التلاميذ الكلاب يدعوننى بحسان أس٣ .

فضحك حسين ملء قلبه ، ولكن الرجل حدجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال :

— علام تضحك ؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ ؟ وبهذه المناسبة أقول لك انى رجل عصبى جدا ولكن قلبى طيب . وكثيرا ما ألعن أبا أحسن واحد ، بلا قصد سيىء ومع الاحترام الكلى للشخص الملعون ! . فافهمنى ولا تنس أنى فى سن والدك !

فقال حسين فى ارتباك شديد :

— لن يحصل بيننا ما يثير الغضب ان شاء الله .

— ان شاء الله . أحببت أن أعرفك بنفسى ، هذا كل ماهنالك . انى ألعن نفسى كثيرا . اللعن مريح فى أحايين لا حصر لها ، ولولاه لمات كثيرون كمدا . ستعلم عما قريب معنى العمل فى مدرسة « ثم متنهدا » وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه فى أوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ . وقد جئتنا ونحن فى أشد الحاجة اليك ، وستبدأ الآن فى مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات . لقد تزوج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة الى القاهرة . حضرتك متزوج يا حسين افندى ؟

فقال حسين مبتسما :

— كنت تلميذا حتى الربيع الماضى !

— وهل تظن التلمذة مانعة من الزواج ؟ لقد تزوجت وأنا تلميذ بالثانوى ، وهذه أيضا من عادات أسرتنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه . وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صدقى باشا لا سامحه الله ..

فنظر حسين متسائلا فاستدرك فى حزن قائلا :

— والدى حسان بك وفدى كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفدية . وقد طالبه صدقى باشا أثناء حكمه المشئوم بالانفصال عن الوفد ،

ولما أبى كما ينتظر منـــه حرمه معونة بنك التسليف فى عز الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة .

فقال حسين :

ـ ولكن النحاس قد عاد الى الوزارة ؟

ـ ولكن الأرض ضاعت . والأدهى من هذا كله أن صـدقى انضم الى الوطنيين وقد خطب أول هـذا العـام فى مسـتقبليه بدسوق فبلغهم تحيات « زعيمى النحاس » يا خسارتك يا حسان حسان حسان !

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم :

ـ ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيرا ..

فهز الرجل رأسه ، وسكت دقيقة ، ثم قال :

ـ حظك سعيد اذ عينت فى المدرسة بعد أن ولى عهد الاضراب. كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقى باشا . أين تقيم يا حسين افنـدى ؟

ـ فى فندق بريطانيا .

ـ فندق ؟ ! . خيبك الله ، معـذرة ، أعنى سامحك الله . الفندق مقام غير صالح للاقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورا عن شقة صغيرة ..

ـ ولكنى لم أحمل معى أثاثا ؟

فتفكر حســان افندى وهو يقرض أظافره باهتمام طارىء ثم قال :

ـ فرش حجرة لن يكلفك كثيرا ويمكن أن تؤدى ثمنه مقسطا بضمانتى اذا شئت ...

وعاود التفكير وهو يتفرس وجه الشاب واستطرد :

ـ توجد شقة مكونة من حجرتين على سـطح البيت الذى أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك ؟

وثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الايجار فقال :

ـ سأفكر فى الأمر جديا ..
ـ الأمر واضح مثل ١ + ١ = ٢ والآن هلم الى العمل فان الأورق أكوام مذ تزوج ابن القديمة ونقل الى القاهرة ..

٥١

وقرر حسين افندى أن يبقى فى الفندق حتى يتسلم مرتبه أول الشهر الجديد ، وأخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال الى شقة خاصة يتهيأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل . وكان حسان افندى دائبا على تزيين فضائل الاقامة فى شقة له ، حتى هل الشهر الجديد فابتاع له فراشا وصوانا صغيرا ومقعدا بحوالى الجنيهين تم الاتفاق على أدائها على أربعة أقساط بضمان حسان افندى ، ولما كان ايجار الشقة جنيها فلم تزد نفقاته شيئا . وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذى يقيم حسان افندى بطبقته الوسطى ، وكانت مكونة من حجرتين غير المرافق . فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة اليها وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع ولى الله ـ حيث يوجد مدخل البيت ـ وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عما حولها ، فشعر الفتى ـ بعد ضيق ـ براحة الفضاء وطلاقة الجو ، وسر لذلك كثيرا . وكان يوم انتقاله الى الشقة الجديدة يوما سعيدا حقا ، اذ أنه وجد نفسه ـ لأول مرة فى حياته ـ صاحب بيت وأثاث ومرتب . ولم يكن نسى ذلك الاحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذى انبعث فى نفسه وهو يتسلم مرتبه صباح ذلك اليوم ، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه الى شفتيه حياء أن يطلع الصراف على فرحه ، ولكن هذا السرور كله لا يعد شيئا الى السرور الذى امتلأ به قلبه وهو

يبعث بالجنيهين الى أمه ، كانت لحظة عظيمـة عرف أثنـاءها أن صبره الطويل لم يذهب سدى . وما كاد يستقر به المقام حتى زاره حسان افندى مهنئا وقال له « لن تكون غريبا مادمت بيننا » فشكر له فضله وحفظ له فى نفسـه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور ، وغفر له ما يلقى منه فى المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك فى العمل ، والحق أنه قد ألف هوسـه متعزيا بطيبـة قلبه وخفة روحه ، ولم يرض حسـان أفندى أن يتركه منفردا ودعاه الى قضاء سهرته بشرفة شـقته فذهب معه مغتبطا وجلسا معا وحسان افندى يقول :

ـ يبدو لى أنك لا تحب المقـاهى فاجعل من هـذه الشرفة ناديك الليلى ..

وكانت الشرفة مهيأة للجلسة الطيبة ففى جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش بينهما خوان وفى الجانب الآخر شلتة كبيرة تقوم وراءها وسادة ، وعلى خوان فى ركن من الشرفة وضعت صينية صفت بهـا قلتان وابريق وقد عام على المـاء المتجمع فى وسطها الليمون البنزهير . وراح حسان افندى يتحدث بلا توقف تقريبا وكيفما اتفق ، وقد بدا فى جلبابه الفضفاض أصغر منه فى البدلة فلم يكن شيئا يذكر ، أو كان لسانا فحسب . ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ فى الأسابيع الماضية ، فلم يكن يدرى ماذا يفعل بالوقت ، ولم تنفع القراءة فى تزجية فراغه الا قليلا ، لا لأنه كان يضيق بها ولـكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فاكتفى مضطرا بكتاب غير الجريدة اليومية . وجرب الاختلاف الى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف أن يجره الى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدى . وكان بطبعه حريصـا ، لهذا كله رحب بدعوة حسان افندى وصدقت نيته على أن يجعـل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا . وتأدى الحديث الى الشقة الجديدة فقال حسان افندى :

- لا يهمك تنظيف شقتك فقد أمرت الخادم بأن يتعهدها بالتنظيف كل صباح ، وسوف أوصى غسالة تعرفها « الجماعة » بأن تذهب اليك كل يوم جمعة .

فشكر حسين صنيعه فى حياء وتأثر ، ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه ، ولأن قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذى لا يمكن أن يتقبله بارتياح . وضحك حسان افندى بسرور ثم قال :

- أما مفاجأة المفاجآت التى أعدها لك فهى النرد ... هل تجيد لعبها ؟

فقال حسين بسرور :

- بعض الاجادة ..

فغادر الرجل الشرفة بحماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبيانى :

- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحرى ، وربما بالقبلى أيضا ..

سر حسين حقا بهذه التسلية التى لم يكن يتوقعها وتساءل :

- عادة أم حبس ؟

فقال حسان افندى بثقة :

- اختر لنفسك ما تشاء ، انك على الحالين لمغلوب ..

وبدءا يلعبان . وقد اتضح لحسين أن حسان افندى يرش وجه المستمع اليه عن قرب برذاذ ريقه اذا حادثه فأمل أن يلهيه اللعب عن الكلام ، ولكنه كان يواصل اللعب والكلام معا ، وكان اللعب نفسه يهيىء له فرصا لا تنتهى للثرثرة فكان يعلق على أية نقلة للقطع مزهوا بلعبه ساخرا من لعب الشاب ، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة :

ـ العن ســوء الحظ الذى رمى بك بين يدى ، وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حيا ..

وعاودا اللعب بحماس وتحفز ، وانهمك فيه حسين انهماكا شديدا فلم يفق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة ، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فرأى فتاة تحمل بين يديها صينية شاى ، وسرعان ما استرد بصره فى حياء وارتباك لأنه أدرك من أول نظرة أن الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة . وأحس بشخصها احساسا غامضا وهو ينحنى قليلا ليضع الصينية على كرسى خيزران ، ثم به وهو يذهب مبتعدا . ولم يكن بصره قد ارتد عنها فارغا ، أجل علقت به صــورة وجه ممتلىء يميل الى البياض ، وعينين سوداوين ـ أو لعلهما عسليتان ؟ ـ ذواتى نظرة مليحة . ولبث فى ارتباكه مورد الوجه على حين أمسك حسان افندى عن ثرثرته بغتة ، ثم عاد يقول بصوت منخفض :

ـ هذه ابنتى احسان ، لم أر بأسا فى أن تقـدم لنا الشــاى ما دمت أعدك كأحد أبنائى ..

وحرك حسين شفتيه كأنه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة ، وقال حسان افندى وهو يصب الشـاى فى القدحين :

ـ البنت فى البيت نعمة كبرى ، لقد تزوج اخواتها واحدة فى القاهرة واثنتان فى دمنهور ولم يبق غيرها !

تمتم حسين فى ارتباك :

ـ ربنا يفرحك بها ..

ومضيا يحتسيان الشاى فى صمت . وأخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفا وراءه شعورا بالحرج لم يدر له سببا واضحا ، أو لعله تهرب من الســبب وتجاهله . ووجد الى هذا انه لا يزال متأثرا بما علق فى مخيلته من صورة الفتاة على غموضها ، تأثرا يعرفه فى نفســه حيال أية فتاة ولا دلالة خاصــة له سوى أنه انفعال مكتوب على كل شاب بصفة عامة ، وكل شاب بكر بصفة

خاصة ، ولعل انبعاثه هذه المرة فى بيت - لا فى الطريق ولا فى الترام - هو الذى أشـاعه فى جو من الحيرة والبهجة والعمق . وكان حتما أن يفكر فى أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر ، ولبث حسان افندى يراقبه صامتا ، ثم ضاق بالصمت فقال :

- اشرب شايك وتأهب للعشرة الآتية ، وقعت فى مخالبى ولا نجاة لك .

٥٢

كانت على درجة من الحسن تسوغ تأثره ، وقد صـدق ظنه فيما تلا من أيام وأسابيع فرآها فى الطريق بصحبة أمها ، ولمحها فى البيت أكثر من مرة . ومن حسن الحظ أنها لم ترث من هيئة أبيها الا خديه المتنفخين ، ولكنهما جعلا لها طابعا خاصا ولم يقبحا وجهها . وأدرك بسهولة أن شقة حسان افندى باتت تجذبه اليها بقوة لا يبررها نشدان التسلية وحـده . وكان يمتلىء شبابا وحيوية ، فكأن قلبه كان ينتظر أول طارق ، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب ، فرامها أنسا لوحشته وريا لظمئه ، ولكن لم تغب عنه دقة موقفه لحظة واحدة من بادىء الأمر ، فلم يكن يغفل عن متاعبه ، ولم يدر له بخلد أن يتراخى فى القيام بواجبه ، بيد أنه لم يعالج أمره بالحزم ، وكان هذا فوق طاقتـه ، وكان عليه أن يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء فى حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل . واشتدت به الحيرة ، وفكر مرارا فى العودة الى الفندق منتحلا عذرا من الأعذار ، ولكنه لم يفعل ، ثم وجد نفسه يسلم للأقدار تاركا لها الأمر كله تقضى فيه بقضائها . وتواصلت الأيام دون أن

يجد جديد ، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قط ، أما حسان افندى فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كله . وفى أثنـاء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضـل رسائل حسنين التى لا تترك كبيرة ولا صـغيرة ، فكأنه يواصل حياته بينهم ، ويشاركهم عواطفهم جميعا . وقد أخبره بأن أمه قررت أن ترصد النقود التى يرسلها لضرورات الكساء وحده ، وأنه ظفر منها بجاكتة جديدة يرتديها مع البنطلون القديم ، وانها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسبها دفئا تستغنى به عن الملابس الصوفية ، وكان من نتائج ذلك ـ رصد نقوده لضرورة الكساء ـ انهم لم يستطيعوا الانتفاع بها فى تحسين حالهم الغذائية التى ظلت على مايعلم من التفاهة والسوء . وحدثه عن نفيسة فقال انها تظفر من آن لآن بتقدم يسير وأن الأم لم تعد تستولى على جل كسبها كما كانت تفعـل قبل ورود نقوده ، فتوفر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كى تظهر أمام الناس بالمظهر اللائق بهم . أما حسن فيبدو أن حياته الجديدة تستأثر به استئثارا شغله عنهم ، أو لعله ظن بعد توظفه ـ حسين ـ انهم لم يعودوا بحاجة اليه فانقطع عنهم انقطاعا كليا . وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا فى نهاية العام قائلا أنه يستبسل فى مذاكرته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه . وفى آخر رسالة وردت منه تودد الى أخيه توددا كبيرا ثم سأله فى ختامها هل يطمع أن يمده بثمن بنطلون منجما على أشهر ثلاثة نظرا لأن الجاكتة الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل ؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرا ، لا يدرى ان كان يستطيع أن يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذى يودعه صندوق التوفير . ولكن فيم يفكر وهو يعلم بأنه لن يخيب لحسنين رجاء ؟ . ربما كان بوسعه أن يزجره لو لم يفرق بينهما هذا البعاد ، ولكن البعاد رقق قلبه وجعل حنينه الى أهله قوة لا تقاوم . أجل انه حريص لايرحب بتاتا

ببعثرة النقود ، ولكن حرصه يتخلى عنه بلا عناء كبير اذا كان البذل لأهله . ولن يضيره التقتير على نفسه ثلاثة أشهر كثيرا فى سبيل ارضاء حسنين . انه يعرفه حق المعرفة ، ويعلم بأنه يعد ما يقدم له من خير واجبا على الآخرين ، فاذا لم يسعفه بالبنطلون نسى فى حنقه صنيع الجاكتة . ووجد الى هذا شعورا غريبا يدفعه الى أن يغمر بجميله الفتى الذى يؤمن بأنه سيكون له مستقبل باهر غدا . لقد ضحى بمستقبله فى سبيله وينبغى أن تكون التضحية كاملة . وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنه الضحية الصابرة على الأقدار التى تجهمت لهم ، وأنه الدرع الذى يتلقى الضربات دون أن يتحطم ، انه عزاء يستمد منه قوة وسرورا ، ويضفى على حياته معنى خلقيا باهرا .

ثم حدث ما لم يقع له فى حسبان ــ هكذا قال لنفسه وان لم يكن صادقا ــ اذ كان يوما يجالس حسان افندى ويتنازعان الحديث كالعادة ، فسأله الرجل :

ــ ألم تفكر فى الزواج ؟

فاضطرب الشاب ، وشعر بما يشبه الذعر ، ثم غمغم قائلا :

ــ كلا ....

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرا وقال :

ــ وفيم تفكر اذن ؟ ولماذا تعيش ؟ هل تظن للرجل من غاية ، خاصة اذا اطمأن جانبه بالوظيفة ، سوى الزواج ؟

وتردد حسين قليلا ثم قال :

ــ على واجبات خليقة بالتقديم عما عداها .

ثم صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة أحيانا حتى يقوى مركزه حياله . وأصغى الرجل اليه باهتمام حتى انتهى من قصته ، ولكنه لم يبد عليه الاقتناع ، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانيه ، ثم هز رأسه الأصلع باستهانة وقال :

ــ أراك تبالغ فى تقدير خطورة الحال . حسبك الصبر حتى

يحصل أخوك على البكالوريا ، ثم تكون فى حل من التحرر من مسئوليتك ، وعليه هو أن يتوظف بدوره . النحاس باشا نفسه تزوج فهل ترى نفسك أكبر مسئولية منه ؟!

فضحك حسين فى ارتباك وقال :

— ولكن أخى مصمم على استكمال تعليمه ..

فعاد الرجل يقول هازئا :

— اسمع اذا كانت لك أهداف فى الحياة كاعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلا فالأخلق بك أن تؤجل زواجك ، ولكن دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوج ؟.. يجب أن تتزوج فى نهاية هذا العام حال توظف أخيك ، أما اذا أصر على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحق لها أن تعارض فى زواجك ، أجل لا يحق لها أن تدلل واحدا على حساب حرمان الآخر من حقه الأول فى الحياة ..

ووجد حسين حديث الرجل مؤثرا أكثر منه مقنعا ، ولكنه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة ، فقال :

— أعتقد أنه من الممكن أن أحقق آمالى دون أن أقضى على آمال أخى ..

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معين فى الظاهر ولكن التفاهم الصامت عن الهدف كان تاما بينهما ، وسبقت اليه أشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كل مساء ، وكأن حسين لم يشأ أن يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال فى حياء شديد :

— وأظن آنسة احسان لم تعد أولى خطى الشباب ...

فضحك الرجل عاليا وقال :

— احسان صغيرة طبعا ولكن الزواج لم يخلق للكبار ..

لم يتقدم الموقف عن هذا الحد فيما تلا ذلك من أيام حتى اقترح حسان افندى أن يقدمه لبعض أقاربه فى حفل عائلى فلم

يسع حسين الا القبول . وخجل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذى لا يسر حبيبا ، وركبه فجأة مايشبه الجنون ــ هكذا وصفه فيما بعد ــ ففصل بدلة جديدة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا الى هذا كله بعواطفه ونزوته الطارئة حتى اذا جاء أول الشهر أدرك أنه من المستحيل أن يرسل النقود الى أمه ، وأرسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه أن مرضا ألم به وأنه أنفق فى العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة . وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعا فى أعماقه بأنه هوى من خطأ الى خطأ ، وأن تعاقب الأخطاء قد أفقده اتزان التفكير وسداد الرأى فلم يحسن حتى اختلاق العذر ...

٥٣

ثم كان يوم الخميس ، وكان حسين مستلقيا على فراشه يقرأ جريدة الصباح التى يحتفظ بها عادة لوقت العصر ، فسمع دقا على الباب فظنه خادم حسان افندى ومضى الى الباب وفتحه واذا به يرى أمه أمامه . أجل أمه دون غيرها ، ففغر فاه دهشة ، ثم أخذ يدها بين يديه هاتفا :

ــ أماه !.. فى طنطا ؟! لا أكاد أصدق عينى !

وشد على يدها ، ثم قبل خديها أو تبادلا بالأحرى قبلتين ، وفى طريقهما الى حجرته سألها بدهشة :

ــ لماذا لم يخبرنى حسنين بحضورك كى أنتظرك فى المحطة ؟

فجلست المرأة على الكرسى الذى قدمه لها وهى تقول مبتسمة :

ــ لم أجد صعوبة تذكر فى الاهتداء الى مسكنك ، ان الاهتداء الى مسكن فى شبرا أشق من هذا بكثير . وقد اقترح حسنين على أن أنتظر حتى يخبرك عن حضورى برسالة خاصة ولكنى لم أجد

داعيا لازعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء فى القاهرة وأنا أعلم انك هنا وحيد ومريض ...

مريض !.. أيقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه ، ولكنه قاوم الخوف بقوة نفسه فضحك وقال:

ـ يؤسفنى اننى أزعجتك يا أماه ، ولكنى ما كنت أطمع فى هذه النتيجة السارة وهى حضورك بنفسك .. !

وجعلت تتفحصه بعناية بوجه ينم عن اشفاق ورحمة ثم قالت :

ـ ماذا بك يا بنى ؟.. كيف حالك ؟ .. حدثنى عن مرضك ؟!

وداخله ارتباك بذل قصاراه كى لا تلوح اماراته فى وجهه . وكان واثقا من أن مظهره لا يشى بمرض ، بل لم يكن يخفى عليه أن صحته تقدمت تقدما ملموسا منذ توظفه لتحسن حالته الغذائية بصفة عامة ، قال ببساطة :

ـ لا شىء ذا بال . أصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم تلازمنى أكثر من يوم وبضع يوم ...

فقالت وعيناها لا تتحولان عنه :

ـ لشد ما انزعجنا جميعا خصوصا وانك طمأنتنا على صحتك فى خطابك الأسبق ...

ثم استدركت بعد وقفة قصيرة :

ـ وتوهمنا فى الأمر خطورة ، والعياذ بالله ، لما رأينا من اضطرارك قطع نقود هذا الشهر عنا ...

وشعر بمثل شكة الابرة فى نفسه ، وقال بعجلة مبتسما ابتسامة باهتة :

ـ اضطررت الى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهين ، وأنت تعلمين أنه ليس لدى احتياطى للطوارىء !

ـ لا عليك من هذا انى مسرورة لأنى وجدتك فى صحة جيدة ، ويحسن بك أن تبعث برسالة فى الحال الى أخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما فى أشد حالات القلق ..

ثم ألقت نظرة متفحصة على حجرته ، فعلق بصره بالبدلة الجديدة على المشجب فى خوف وقلق وتهيأ عقله لاختلاق كذبة جديدة ، ولكنها قالت :

- حجرتك نظيفة وأثاثها جيد . هلم أرنى شقتك ..

فضحك حسين قائلا :

- ليست شقتى الا هذه الحجرة ، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة اليها .

- كأنك تستأجر حجرة بايجار شقة !.. ألم يكن الفندق أفضل ؟...

- على العكس فان ايجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشا .

- أخبرتنا بأنك لم تحتج الى خادم أفلا يتعبك تنظيفها ؟

- كلا ، هذا على هين كما تعلمين !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

- يبدو لى أنك مرتاح ومسرور يا بنى ، ولذا فأنا سعيدة ..

وخيل اليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق :

- أنا السعيد يا أماه ، وسأستأثر بك شهرا كاملا .

فما تمالكت أن ضحكت وقالت :

- بل هذه الليلة فحسب . ليس لى مكان أنام فيه ، وسأكلفك أكثر مما تحتمل ما دمت تجىء بطعامك من السوق ..

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام اليه ، وسمعت الأم صوتا يقول بلهجة ريفية « سيدى حسان يسأل عما أخرك اليوم » ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة ، وأغلق الباب وعاد الشاب الى مجلسه من الفراش فوجد أمه تنظر اليه بعينين متسائلتين فقال :

- خادم جارى حسان أفندى باشكاتب المدرسة ..

وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذى أقنعه بالانتقال الى الشقة وعاونه على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت :

ـ يبدو لى من قول الخادم انك تمضى عنده فراغك .

وتوهم لحظة انها مطلعة على سره كله فقال دون أن ينظر اليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعابه وتعترض زوره :

ـ كثيرا ما أفعل . انه رجل طيب وهو الى هذا رئيسى وقد وجدت فى صحبته ما أغنانى عن المقاهى و « مفاسدها » .. لابد للانسان من تسلية يزجى بها فراغه ...

ثم قامت الأم الى الحمام فغسلت وجهها ، وخلعت معطفها فتناوله حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر الزيارة بسلام . أجل قد تولاه القلق وخاف على سره الافتضاح واضطرب لوجودها فى موطن هذا السر فلعن الظروف السخيفة التى أجبرته على منع النقود عنها . وعادت المرأة الى مجلسها وأخذت تسائله عن أحواله وحياته ، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلا لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحنق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها:

ـ الست الكبيرة ترغب فى أن تحيى الست والدتك .

ونهضت الأم مسرعة وخرجت الى الردهة وقالت للخادم :

ـ لا يوجد مكان هنا لاستقبالها ، سأزورها بنفسى ...

وذهب الخادم فعادا الى الحجرة وحسين يقول :

ـ لا داعى لهذه الزيارة ، ولا يجوز أن نفترق دقيقة واحدة فى المدة القصيرة التى تمكثينها هنا .

فتنهدت قائلة :

ـ مجاملات لابد منها ، ولا يخفى عليك أنه يهمنى أن أجامل أسرة رئيسك ..

وعاودا حديثهما ردحا من الزمن حتى خفضت حدة النور وأقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدى معطفها قائلة « آن لى أن أزور حرم جارك » ، وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتى غادرت

الشقة ، ثم تنهد من الأعماق وتساءل « ترى هل يساورها شك ؟ ... كيف تنتهى هذه الرحلة ؟ ! » .

٥٤

ولبث وحده مغتما قلقا ، وتزايد قلقه بمرور الوقت ، ثم لم يعد يشك فى افتضاح سره ، ثم تساءل مدافعا عن نفسه فيم هذا الوهم كله ؟! عسى أن يمر كل شىء فى سلام ، لايمكن أن يلمحوا الى شىء ، هذا مؤكد ، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة اذا رأت احسان؟ . وتنبه الى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازى ، ثم سمع الباب يدق فدق قلبه معه فى عنف ومضى اليه ففتحه فدخلت أمه وهى تقول :

ـ لا أظنني غبت كثيرا .

وعادا الى الحجـرة فوقف هو مسـتندا الى حافة النافذة وراحت هى تخلع معطفها وحذائها فى صمت ، وجعل يقول لنفسه « وراء هذا الوجه شىء ، بل أشياء ، انى أعرف هـذا . أراهن على أنها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتى . ليست أمى بالأم الضعيفة ، انها حنونة حقا ولكنها قوية ما فى هذا من شك . ما أفظع هذا الصمت ، متى ينقطع ؟ » وسألها متظاهراً بعدم الاكتراث :

ـ كيف وجدتهم ؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت باقتضاب :

ـ لا أدرى لماذا لم يرتح قلبى اليهم !

انه يدرى لماذا ، برح الخفاء ، ووقع المحذور . وقال :

ـ الحق ان حسان افندى رجل طيب ...

ـ ربما . لم أقابله بطبيعة الحال ..

لن يسألها عما لم ترتح اليه منهم . فليتجاهل المسألة ، ولن يطول هذا طويلا على أية حال . ووجدها تنظر الى يديها اللتين شبكتهما على حجرها . انها تفكر فيما ينبغى قوله . لشد ما أخطأ . ما كان ينبغى أن يستسلم لاغراء الظروف التى انتهت بمنع ارسال نقوده هذا الشهر . كيف ضل عائل الأسرة ؟!. ورأى أمه ترنو اليه بطرف واجم ثم تقول :

ــ أما وقد اطمأننت عليك فلا أظن أن يخجلنى أن أصارحك بأن منع النقود عنا قد أخافنى . اعذرنى يا بنى اذا اعترفت لك بأنه ساورنى بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار !

فصاح وهو لا يدرى :

ــ أماه !

ــ معذرة يا بنى ان بعض الظن اثم ، ولكنى كنت أفكر طويلا فيما يمكن أن يلقى شاب وحيد فى بلد غريب . أجل انى أومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فخفت أن يكون أضلك ، ولا تسل عن حزنى وأنت تعلم بأنى أعتمد بعد الله عليك . أخوك حسن لم يعد منا ، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ ، وحسنين تلميذ وسيظل تلميذا طويلا ، وأنت أدرى به ؟ وأنا لنشقى ونجوع فى مغالبة حظنا ، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب أخيك منه .

فقال حسين بانفعال :

ــ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا يا أماه ، لقد أخطأ .. اضطررت الى منع النقود اضطرارا لا حيلة لى فيه . انى جد حزين يا أماه .

فقالت برقة وكأنها تحدث نفسها :

ــ أنا الحزينة ..

ثم استطردت بعد لحظة صمت :

- أنا الحزينة لأنى أبدو كثيرا وكأنى أحول بين أبنائى وبين سعادتهم !

فقال بقلق :

- لشد ما تظلمين نفسك ، أنت أم رحيمة كأحسن ما تكون الأم رحمة ..

- يسرنى انك تفهمنى يا بنى .

وتنهدت وهى تنظر فى عينيه ثم قالت :

- لا يقلقنى شىء فى حياتى كما يقلقنى مستقبل أختك نفيسة . أود لو أغمض عينى ثم أفتحهما فأجدها فى بيت زوجها . ولكن كيف ؟ ! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها . أنتم رجال أما هى فمن الولايا اللاتى لا نصير لهن .

فصاح حسين مستنكرا :

- لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة ..

فتنهدت مرة أخرى قائلة :

- مد الله فى أعماركم ، ولكن الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج !

ولاحت فى عينيه نظرة ذات معنى . انه يفهم ما يقال . اذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج ، وما دام حسنين فى حكم المتزوجين ، فلا يجوز له أن يتزوج !. منطق معقول ! ورحيم أيضا ! ، بيد أنه ينطوى على حكم بالاعدام . ما عسى أن يقول ؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضربا كما كانت تفعل أحيانا ، ولكنه لن يتخذ من هذا الأمان مسوغا لاغضابها ، وعلى العكس سيتخذ منه دافعا بريئا للمبالغة فى اكرامها . وقال بهدوء :

- اطمئنى يا أماه . أرجو ألا تجد نفيسة نفسها يوما فى هذا المأزق !.

فهزت رأسـها هزة كأنها تقول له لنـدع المداراة جانبا ولنتكاشف ثم قالت :

ـ الحق لقد ألحت على بعض الخواطر فلم أجد فرجة الا فى أن أسافر اليك على مشقة السفر وكثرة النفقات .

فابتسم قائلا بلا وعى تقريبا :

ـ اذن لم تحضرى كى تطمئنى على صحتى !

وندم فى اللحظة التالية على افلات هذا القول منه ، ولكنها ابتسمت اليه ابتسامة حزينة وقالت :

ـ اصغ الى يا حسين ، أترغب فى أن تتزوج ؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفى اضطرابه وقال :

ـ انى أعجب لما يدعوك الى هذا الظن !

ـ ليس أحب الى من أن أراكم أزواجا سعداء ، ولكن هل ترغب فى أن تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها ؟

ـ لم أفكر فى هذا مطلقا . .

ـ ألا يضايقك تطفلى هذا ؟

ـ مطلقا !

ـ واذا اقترحت عليك أن تؤجل التفكير فى الزواج ، ألا تجد فى اقتراحى ظلما ؟

ـ هو عين العدل والرحمة . .

فخفضت عينيها قائلة فى حزن :

ـ ليس شقائى الحق فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجبا مما يبدو لعين المتعجل قسوة وأنانية . .

ـ لست هذا المتعجل على أية حال !

فترددت لحظة ثم قالت :

ـ ان ما أراه من حسن تقبـلك لكلامى يشـجعنى على أن أنصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود الى حجرتك بالفندق .

برح الخفاء ! وأصيب بذهول ، ثم غمغم متسائلا :

ـ الفندق ؟ !

فقالت بحزم :

ـ أنت لا تدرى من أمر الناس شيئا . ولعل جيرانك أناس طيبون ولكنهم لا يحفلون الا بمصلحتهم . واذا حافظت على جيرتهم كرهتنا وأنت لا تدرى ؟.

٥٥

ولم يعودا الى هذا الحديث مرة أخرى فلم تكن الثرثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء . وقد قضيا صباح الجمعة فى سعادة شاملة ، حينا فى البيت ، ثم انطلقا فى المدينة لزيارة السيد البدوى ، ولكنها صممت على الذهاب الى المحطة مع الضحى فلم يسعه الا الاذعان لها مرغما . وذهبا معا وقطع لها تذكرة ، وفى أثناء انتظار القطار قال لها :

ـ سأبقى فى البيت حتى نهاية الشهر لأنى دفعت الايجار كما تعلمين ...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد ، ثم جاء القطار فودعته وصعدت الى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين ، وغشيته كآبة ثقيلة ، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة فى حياته ، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قوية ، ولأنه عز عليه أن يراها منزوية فى العربة الحقيرة وسط البؤس والبائسين ، وعاد الى البيت كثير الهم والفكر . « أنا الملوم .. انى أدفع ثمن حماقتى . أى شيطان يخصنى بعنايته ؟. هذه هى المرة الثانية ، الخيبة تلاحقنى دائما . لا مفر » . وجاءه خادم حسان افندى يدعو والدته الى الغداء فأخبره بأنها سافرت الى القاهرة . وجاءه مرة أخرى فى المساء

يدعوه الى السهرة المعتادة فلم يسعه الا الذهاب .

وجلسا حول خوان النرد فى الحجرة بعد أن أحكم الشتاء اغلاق الشرفة . وسأله حسان افندى :

ــ كيف عادت والدتك بهذه السرعة ؟

فأجاب حسين مبتسما :

ــ لا يمكن أن يستغنى عنها بيتنا أكثر من يوم ..

ــ تجىء الخميس وتذهب الجمعة ؟ !.. رحلة لا تستحق مشقة القطار !

ــ ولكنها حققت لها ما تريد فاطمأنت على وتبركت بزيارة السيد ..

وأشار الرجل الى داخل الشقة قائلا :

ــ قالوا لى أنها ست طيبة جدا .

ــ بعض ما عندكم ..

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيه العمشاوين .

ــ كنا نود لو زارتنا قبل الرحيل !

ــ كانت متعجلة ، وقد حاولت أن أؤخر سفرها الى العصر ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا اليها ..

فقال الرجل بأسف :

ــ وأعددنا لها غداء طيبا فاخترت لها بنفسى ثلاث دجاجات مسمنة ...

فابتسم حسين فى ارتباك وتمتم :

ــ بالهناء والشفاء لكم ..

وضحك الرجل ، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلا من أن يشرع فى اعداد القطع للعب سأله باهتمام :

ــ ألم تفاتحها بما « اتفقنا » عليه ؟

فشعر حسين بحرج ولكنه قال :

ــ كلا ...

ـ لمه ؟

ـ انها تعدنى رجل بيتها فكيف أفاتحها بهذا ؟

فتناول الرجل زهر النرد فى قبضته وهزه ورماه ، ثم قال :

ـ أنت رجل خواف . كانت أمك خليقة بأن تفرح لهذا النبأ .

ـ انه خليق بالفرح اذا جاء فى حينه ..

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببط :

ـ لى فلسفتى الخاصة فى الحياة ، ألق بنفسك فى عبابها ولا تخش شيئا . هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعا ؟

فقال حسين مبتسما :

ـ أصل شعبنا اعتاد الجوع !

فضحك حسان افندى واستطرد قائلا :

ـ كل الناس يعيشــون . أغمض عينيك ثم افتحهما تجد الصغير كبيرا والتلميذ موظفا والأعزب متزوجا ولا تجد خاسرا الا من كان خوافا مثلك . هذه هى الحياة ..

خواف ؟! وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطنية . ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته . أكان يكون شجاعا حقا لو تخلى عن المرأة وتركها تعود مهيضة الجناح خائبة الأمل ؟!. ليس الخوف . الرجل الأحمق يسىء فهمه . انه مصاب فى آماله ولا يجد من يرحمه ولا من يفهمه . وعندما بلغ هذه النقطة من أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة ، أجل وجد سرورا فى أن يكون على حق وان أساء الناس فهمه ، بل أكثر من هذا تركز السرور فى أن يسىء الناس فهمه وهو على حق ، سرور غامض كذلك السرور الذى يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء . وقال مبتسما :

ـ أنت يا حسان افندى من أسرة كبيرة فلا يمكن أن تدرك متاعب أسر كأسرتنا ...

وندت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة مصطنعة وتمتم :

ـ عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وكل آت قريب ، ما هى الا أشهر معدودات ثم يحصل أخوك على البكالوريا فيتغير الموقف . ارم الزهر لنرى من يكون البادىء باللعب ..

٥٦

وبعد مضى أسبوعين جاءته رسالة من حسنين ينبئه فيها بأنه أدى رسوم الامتحان وانه يذاكر ليل نهار لضمان النجاح . وكان عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرته فلم يداخله شك فى النتيجة المأمولة . ونزعت به نفسه الى الأحلام مع انه لم يكن من الذين يستسلمون لسحرها عادة ، الى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام بالذات . ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته . واقتنع بأنه ينبغى أن يتوظف ليحمل العبء عنه ، ثم تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن ! . انه لا يطمح الى أكثر من حياة مطمئنة هانئة فى ظل الزوجية . وقد علمته هذه الحياة التى حملها منفردا فى شقته المقفرة معنى الأسرة فحن الى حضنها الدافىء حنين المقرور تحت مطر منهمر الى المأوى . لم يعد يطيق الاختلاف الى المطاعم العامة لتناول غذائه ، وبات وكأنه يخاف الانفراد بنفسه فى حجرته ولو الى حين قصير ، وأتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه ، وكل هذا يهون الى جانب ما يعانى من جوع قلبه وأشواقه . ولم يكن يحب الفتاة بالذات بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة الزوجية ، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا اليها قلبه وحنينه . وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها الا فى القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة ، وحسب حسين أنهم يتعمدون اخفاءها ، ولكن تبين له أن حسان افندى رجل محافظ حقا وأنه قد يتسامح ولكن بالقدر

الذى لا يخدش حياء ولا يجاوز حدا . ولو أن حسنين رضى بالوظيفة لمضى من توه الى فتاته وضمها الى نفسه وحيى الحياة الحقة . هذا حلمه ، ولكنه مجرد حلم ، ولا يدرى متى يتحقق . وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغى له أن يحنق لهذا ، أجل فليدع الأمور تجرى كما يشاء الله ولينتظر . ولكن تبين له ذات مساء أنه لن ينعم بالانتظار فى هدوء وطمأنينة ، اذ قال له حسان افندى عقب فراغهما من احتساء الشاى مباشرة :

— جد أمر هام يستحق أن أشاورك فيه .

رفع اليه حسين عينيه متسائلا فقال الرجل باهتمام :

— الأمر أن ابن عم احسان — وهو تاجر ومزارع بالبحيرة — يرغب فى طلب يدها ، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البت فى الموضوع برأيى !!

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب فى قهر وحيرة كأنه لايصدق . والحق أن بعض الشك ساوره ولكنه وجد نفسه فى مأزق لايخرجه منه تشككه . وشعر بحنق انسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام ، فما عسى أن يقول ؟ ! اذا قال نعم خان أسرته ، واذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان افندى . وتراءى لعينيه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التى تعلقت بها آماله فشعر بقبضة اليأس تشد على عنقه ، ورمق الرجل الذى يعذبه بنظرة باردة تخفى وراءها حنقا متزايدا . وكان الآخر يتفرس فى وجهه صابرا فلما طال الصمت غمغم متسائلا :

— ما قولك يا حسين افندى ؟

ولم يجد بدا من الكلام فقال بلهجة تنم عن الرجاء :

— لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج الى مزيد .

فقال الرجل فيما يشبه الضجر :

— سيفرغ أخوك من دراسته فى أوائل الصيف القادم .

— ولكنه فيما أرى مصمم على مواصلة تعليمه ..

فقال الرجل بضيق :

ــ فكرة سخيفة لا يصح أن تذعن لها وتتحمل مسئوليتها ..

وأراد أن يتفادى من الخطر الماثل فقال متهربا كما يتهرب الفأر وراء رجل كرسى لن تغنى عنه شيئا :

ــ بوسعى أن أعلن الخطوبة فورا على أن أنتظر بعد ذلك ..

فتساءل حسان افندى بفتور :

ــ كم عاما ؟

آه ، ان الرجل يظنه لا يحسب حسابا الا لأخيه ، ولا يكاد يدرى شيئا عن نفيسة ومشكلتها المستعصية ، ليته كان بوسعه حقا أن يصارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء ! .. وأجابه قائلا فى اشفاق شديد :

ــ أربعة أعوام .. ؟!

ونظر اليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلا :

ــ لن يضيرنا الانتظار شيئا ، ألا تثق فى ؟!

ومط الرجل بوزه وهو يهز رأسه ثم قال بهدوء مخيف :

ــ أربعة أعوام ! ، يا ترى من يعيش ! .. أتريدنى على أن أقول لأمها انى رفضت ابن عمها الذى يرغب فى الزواج منها الآن كى تنتظر أربعة أعوام ؟! ... يبدو لى يا حسين افندى انك لم تكن جادا فيما أظهرت من رغبة !

وانتفض حسين فى ألم بالغ وهتف :

ــ سامحك الله يا حسان افندى ! .. انى رجل مخلص ولا زلت عند رغبتى الصادقة ، ولا أرى سببا وجيها يحول بينى وبينها ..

فقال الرجل بفتور :

ــ لست أبا ولا أما فلا عجب ألا ترى وجاهة السبب ، والآن فلندع النقاش جانبا وأجبنى باختصار ألا تستطيع الاقدام على الزواج فى هذا العام ؟

وساد الصمت ، وطال ، دون أن ينبس حسين بكلمة . لم يجد

شيئا يقوله ، وتفكر طويلا فى حيرة ، ثم أطبق شفتيه فى يأس وقهر. وابتسم حسان افندى ابتسامة باهتة ، وأطبق شفتيه بدوره وقد نم وجهه البيضاوى الصغير على الجمود والكدر . وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخصام كالغبار فى يوم خمسينى فلم تعد تحتملها الأعصاب . ومع ذلك لم يحتمل حسين أن تجىء القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان يتنبأ الجواب سلفا :

ــ ألا يمكن الانتظار ؟

فقال الرجل بنرفزة :

ــ كلا ...

ومكث حسين قليلا فى خجل وألم ثم نهض مستأذنا فى الانصراف فأذن له . وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس ، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود اليها مرة أخرى . وذهب الى حجرته فأوقد المصباح الغازى وارتمى على الفراش . وألقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة ، عداوة لكل شىء ، كان فى تلك اللحظة عدوا لنفسه وللبشر جميعا . « أضعيف أنا أم قوى ؟ وما صنعت بنفسى أهو اقدام أم فرار ؟ ! كل شىء بغيض مقيت ، هذه الحجرة التى أودعها وحجرة الفندق التى تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان افندى وطنطا وحسنين وأمى وأنا . ربما تصور الرجل أنه يستطيع أن يضايقنى فى عملى بالمدرسة ! . . تبا له ، سيجدنى أصلب مما يتصور . ولكن ما قيمة هذا كله ! الموت أرحم من الأمل . لست أعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا . الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضى على أن أمنى بالخيبة مرة بعد أخرى ؟ لماذا لا يتوظف بالبكالوريا ؟ ! لماذا لا يحب لنفسه ما أحب لى ؟ ! » وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام الى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت ، وجعل يخبط على وجهه من شارع الى شارع فى ليل بارد حتى أعياه المشى فمضى الى مقهى . وأنعشه المشى والبرد من حيث لا يدرى فاتخذ مجلسه

وهو أهدأ نفسا . وراح يتسلى بمنظر الجلوس ويستمع الى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة أو لفتة تدعو الى الابتسام . وخبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادىء وصامت . ولايخلو فى الوقت نفسه من ندم . أكان يؤثر حقا أن يوافق الرجل على رأيه ؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار ؟ يا له من أحمق !. من حقه أن يحزن ، ولكن ليس من حقه أن يغضب هذا الغضب الجنونى . وليس من الحكمة أن يستسلم للحزن ، أجل انه يعلم أنه سيحزن طويلا ما دام الشعور لا يخضع للعقل ، ولكنه يؤمن أيضا بأن لكل شيء نهاية ، حتى هذا الحزن الخانق لا بد أن يدركه العزاء . وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة . انه آت لا ريب فيه كما علمته المحن ، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره . ان شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى ، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف ، ويحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعده الأمل والعزاء ، وافتر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعانى مرارة الحزن الراهن ..

٥٧

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة ـ بعطفة نصر الله ـ يوما سعيدا حين نجح حسنين فى امتحان البكالوريا . وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء ، فمرت ساعة لا يشوبها كدر ، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب . وجاء فريد افندى محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسنين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها . وكان كعادته مرحا لطيفا فتحدث طويلا منتشيا بالفوز

والضحكات تنطلق من فيه تباعا ، وكان منظر بهية مما يستثير سعادته وألمه معا ، كان يسعده أن تلتقى عيناهما خفية فيقرأ فى نظرتها الصافية المحبة العميقة المهذبة ، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها الا قليلا ثم يندلع فى قلبه لسان لهب ، ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه ، ويرمق العامين المنطويين بحسرة وأسف . واسترق اليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض ، وتخيلها ـ كما كان يطيب له أن يتخيلها كثيرا ـ متجردة الا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان . وجعل يتساءل صامتا ألا يمكن أن تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا ؟ أليس من العدل أن تهبه قبلة على سبيل التهنئة ؟!. . . وظل وعيه متنقلا بينها وبين أخيلته وبين الحاضرين ، وكان السرور شاملا بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه فى محضرها .

ثم خلت الأسرة الى نفسها مرة أخرى فداخلها احساس جديد ـ غير السرور الصافى ـ بالمسئولية ، لأنهم تعلموا أن الظفر بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب . وكان اتمام تعليمه العالى أمرا مفروغا منه فيما بينهم ولكن الرأى لم يستقر على اختيار بعينه . وقد قالت نفيسة :

ـ عليك الآن أن تختار المهنة التى تريدها .

فقال حسنين الذى كان قد قتل الأمر بحثا :

ـ التعليم العالى مرحلة طويلة شاقة ، ومستقبله مجهول .

فنظرت اليه المرأتان فى دهشة فاستطرد قائلا :

ـ لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وانتهيت من تفكيرى الى أنه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحربية !

وهتفت نفيسة بسرور :

ـ ما أجمل هذا !

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر فى الصعاب التى تعترض آماله فقال :

ـ دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطا . والنجاح مضمون تقريبا لأنها دراسة باللعب أشبه ، والوظيفة فى النهاية لا شك فيها . هذه ميزات لا يستهان بها !

فهتفت نفيسة بالحماس نفسه :

ـ دراسة عامين ثم تصير ضابطا ! .. ما أشبه هذا بالأحلام !

وتساءلت الأم باشفاق :

ـ والمصروفات ؟ !

ونظر اليها طويلا كالحائر ثم قال :

ـ البوليس غالية جدا ، ولكن الحربية معقولة ... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيها .

فتطلعت اليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلا :

ـ ليس الأمل فى المجانية معدوما أو على الأقل فى نصف المصروفات ، ولنا فى أحمد بك يسرى شفيع عظيم القدر فى هذه الحال ...

ولم يذهب الوجوم عن نظرة الأم وبدت قلقة حيال هذا الأمل . فقالت :

ـ حدثنى فريد افندى محمد عن معهد التربية الابتدائى فوجدت فيه ميزات تستحق التقدير ، فمدة دراسته ثلاث سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرس .

فقال الشاب بامتعاض :

ـ انى أكره أن أعمل مدرسا ، وأكره أكثر أن ألتحق بمعهد بالمجان .

ـ ولكنك لا ترى مانعا من دخول الحربية بالمجان .

ـ ثمة فرق كبير بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفينى من مصروفاته كلها أو نصفها . سيقول الناس عن الحال الأولى انى تعلمت بالمجان أما فى الأخرى فهيهات أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة !

فهزت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتمت :

- المسألة أخطر من هذا !

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا ، انى أكره الفقر وسيرته ، ولا أحب أن أخفض رأسى بين أناس مرفوعى الرءوس !

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقى الى هذا الاختيار ، والواقع أنه طمح الى المدرسة الحربية مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب ، بيد أن أمه ظلت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت :

- واذا لم يتيسر اعفاؤك من المصروفات ؟

ففكر متجهما ثم قال :

- سأحتاج بادىء الأمر الى الدفعة الأولى من المصروفات وفى مرجوى أن أنالها من أخى حسن ! لا أظنه يتخلى عنى كما لم يتخل عن حسين ، أما الباقى فليس بمتعذر توفيره اذا نزلت لى عن نقود حسين ، الى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ثم ناظرا الى أخته) ولا أظنها تبخل على خاصة وان عملها يجيئها بكسب لا بأس به ..

ونقل بصره بين أمه وأخته ليسبر وقع كلامه ولكنه لم يحظ بما يشجعه فاستطرد يقول برقة :

- عاما شدة يمران كما مر غيرهما وبعدهما الراحة والهناء !

وثابر على ترديد بصره بينهما فى رجاء ، ثم قال باغراء :

- أم ضابط وأخت ضابط ! .. تصوروا هذا ؟ ! تصوروا مغادرتنا لهذه العطفة الى شقة محترمة بالشارع العام !

ورقت نفيسة لنظرته المتوسلة فاجتاحتها موجة ايثار وكرم فقالت :

- لا تحمل هما من ناحيتى ، سأهبك أقصى ما يمكننى أن أهبه !

فتجلت فى عينيه نظرة امتنان وغمغم :

- شكرا لك يا نفيسة ، ولن تكون أمى دونك كرما ، وسيمضى كل شىء على الوجه الذى نحب جميعا ...

ودعت له الأم بالتوفيق ، لم تكن ترجو من ورائه خيرا كثيرا ، وكان أقصى ما تطمح اليه أن يؤجل زواجه ــ بعد توظفه ــ عامين حتى ترمم ما تهدم من أسرتها ، ولكن لم يسعها الا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التى يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أعماق قلبها . وتأثرت نفيسة بما غمرها من ايثار وكرم ارتقيا بها الى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس ، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية . ولكنها لم تدم طويلا ، اصطدم تيارها الدافق بعقبة كئود من الذكريات السود فتوقف عن الجريان الساجع وتجمع وتطين ، وفتر الحماس فخفضت عينيها فى خمود ، ليس الفرح الصافى من حقها ، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء ؟ .

٥٨

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار الى شارع كلوت بك « سيقول حسن اننا لا نسعى اليه الا اذا طمعنا فى نقوده ! » وتألم لهذا الخاطر ، ولكنه خفف من وقعه قائلا انه هو ــ حسن ــ الذى لم يشأ أن يتردد أحد منهم على بيته . وجعل يتساءل فى حب استطلاع عما سيجد فى هذا المسكن المحرم ! ثمة شىء « غير طبيعى » ، ولكنه لا يستغرب من حسن !

ثم ذكر النقود التى يريدها فهاله الأمر ، ماذا لو عجز حسن عن أن يمد له يد المعونة ؟ ، وشعر بأصابع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بآماله . واهتدى أخيرا الى عطفة جندف وأخذ يرتقى أرضها القذرة باحثا عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى اليه ، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالسا القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيرا الى البيت :

ـ هل يقيم هنا حسن افندى كامل ؟

فسأله الرجل بدوره :

ـ تعنى حسن الروسى ؟

فقال حسنين بدهشة :

ـ حسن كامل على المغنى ؟

فقال الرجل :

ـ هذا بيت حسن الروسى الذى يعمل بقهوة على صبرى بدرب طياب . . .

وأغضى حسنين فى حياء منزعجا انزعاجا فظيعا ، لم يعد يشك فى أنه حيال بيت أخيه وقد توكد ذلك بذكر على صبرى ، ولكنه لم يتصور أنه يعمل بهذا الدرب الذى فرقع اسمه فى أذنه كالقنبلة . وهذا اللقب : الروسى ما معناه ؟ ودخل البيت وكأنه يفر فزكمته رائحة بئر السلم النتنة وارتقى السلم الحلزونى وهو يشعر بأنه يهبط الى هاوية ما لها من قرار . وطرق الباب فجاءه صوت امرأة يصيح فى ابتذال « من ؟ » ثم فتح الباب عن امرأة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجمال وقح . حدجته بنظرة نافذة وسألته :

ـ ماذا تريد ؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب :

ـ حسن كامل . . .

ـ من أنت ؟

ـ أخوه . . .

فانبسطت أسارير المرأة وتنحت جانبا وهى تقول :

ـ سى حسين ؟

فتمتم فى ذهول :

ـ حسنين !

ودخل فى تهيب وحياء . من تكون هذه المرأة ؟ وكيف عرفت

أسماءهم ؟ هل تزوج حسن ؟ وشعر بقشعريرة باردة ، أيمكن أن يقال عن هذه المرأة أنها زوجة أخيه ؟ وأن أمه حماتها ؟ ! ... وتمنى من أعماق قلبه أن تكون مجرد رفيقة . ومضت المرأة الى باب فى نهاية الدهليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على العتبة ، وكأنه شعر بوجوده فاتجه ببصره اليه ثم هتف بدهشة وسرور :

ـ حسنين ..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق ، وقبل أن يتكلم أحدهما تسلل من الحجرة نفر من الرجال متتابعين ، ألقوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم مخاطبا حسن :

ـ سنسافر عصر اليوم الى السويس باذن الله ، وتلحق بنا غدا ...

ثم غادروا الشقة . كانوا من ذوى الجلاليب ، تلفت سحنتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من تشويه . وداخل حسنين شعور بالقلق ، من يكون هؤلاء الرجال ؟ ... أفراد التخت ؟ .. ما أبعد هذا عن التصور . لقد ذكره منظرهم برجال العصابات كما يظهرون على الشاشة ، وطرأت عليه فكرة مرعبة بأن شقة أخيه تناصب القانون العداء ! . وألقى على حسن نظرة متوجسة فرآه يرتدى جلبابا مقلما فضفاضا ، ويبدو فى صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر وفى صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنهما أثرا طعنتين شديدتين . رباه ، ان أخاه لا يخلو من تشويه اجرامى أيضا ! ولعله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة الأسباب التى حجبته عن عالمهم . وأومأ حسن الى الحجرة فى نهاية الدهليز وقال للمرأة :

ـ رتبى الحجرة واجمعى الأشياء ...

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتجه الى حجرة النوم ، ثم أغلق الباب وراءهما وأجلسه الى جانبه على الكنبة وهو يقول :

- كيف حالكم ؟ .. كيف الوالدة ؟ .. ونفيسة ؟ .. وما أخبار حسين ؟

وحدثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم من أخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب :

- انقطعت عنا كأنك لست منا ولسنا منك ، وباتت أمنا فى حزن شديد ...

وهز حسن رأسه فى كآبة وقال :

- انى غارق فى حياتى حتى قمة رأسى ، ولكن توظيف حسين طمأننى عليكم ...

وتساءل حسنين متأثرا بما طرأ على أخيه من تغير فى مظهره ترى هل أبقى على حبه القديم لهم ؟ ، وانساق بغريزته الى التودد اليه قبل أن يتطرق الى مهمته وتساءل فى قلق :

- ما هذا يا أخى ؟!

فقال حسن ضاحكا :

- مخلفات معارك . لم تكن حياتى لتخلو من عراك وقد أصبح العراك من أهم واجباتى فى الحياة الجديدة ..

وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى ذلك بغريزته أيضا ، لقد قصد هذا البيت المحرم فى سبيل الحياة ، وحسن يتخذ من العراك واجبا فى سبيل الحياة أيضا ، فما أفظع ماتسيمنا الحياة من خسف ! « من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب ! ، كان حسن طفلا حاذقا شاطرا ، وكان أبى يحبه أكثر من أى شىء فى الوجود ، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوا ، ولكن لم يكن يتصور أحد أن ينتهى به المطاف الى هذا البيت ! . لا شك أن حسين أدرك الحقيقة فى زيارته لهذا البيت فى سبتمبر الماضى ، ولكن ترى هل تعلم أمى بكل شىء ؟ ! » . لم تواته شجاعته على السؤال الصريح ولكنه تساءل فى مكر :

- ما العلاقة بين الغناء والعراك ؟

فقهقه حسن ضاحكا ثم قال :

ـ هما شيء واحد فى عرف الكثيرين ..

وهنا جاءهما صوت المرأة من خارج وهى تقول :

ـ انى ذاهبة ، هل تريد شيئا ؟

فقال لها باقتضاب :

ـ مع السلامة ..

ولم يستطع حسنين أن يقاوم حب استطلاعه فسأله بقلق :

ـ هل تزوجت يا أخى ؟

ـ كلا ..

فلاح الارتياح فى وجه حسنين غير خاف فتساءل حسن :

ـ أسرك هذا ؟

ـ نعم ..

ـ لماذا ؟

فقال الشاب بسذاجة :

ـ أفضل أن تختار زوجك من وسط كوسطنا ..

فقطب حسن كالمستاء وقال :

ـ انها أفضل من سيدات كثيرات ، تحبنى وتخلص لى ولا تضن على بمال ..

وأوشك أن يقول له « ومن مالها الخاص أعطيت حسين ما احتاجه من نفقات » ولكنه أمسك رحمة بأخيه ـ لم يستطع التغير الذى لحق بطبعه أن يؤثر فى عواطفه نحو أخيه حتى حين استيائه ـ ولما رأى القلق والندم يلوحان فى عينى الشاب قال برقة :

ـ ان اخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة وراءه أما هذه المرأة فاخلاصها غير مشوب . سوف تعلمك الحياة أمورا كثيرة تجهلها ..

فهز حسنين رأسه متظاهرا بالاقتناع ، وابتسم الى أخيه ابتسامة رقيقة متوددا . ثم ذكر أمرا كاد ينساه فرحب به ظنا

منه أنه خليق بأن يضفى على الجو الذى كاد يتوتر روحا من المرح فسأل أخاه ضاحكا :

ـ علمت وأنا أسأل عن بيتك انهم يدعونك الروسى فما معنى هـذا ؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة الى نفس الآخر وقال وهو يشير الى رأسه :

ـ نسبة الى هذا !.. انى أكسب بعرق جبينى على نحو ما (وبسط يده ونطحها برأسه ثم نظر الى أخيه نظرة ذات معنى ضاحكا) أو بالأحرى بدم جبينى . لا بد من العرق كى تعيش ولكن يختلف العضو الذى يعرق بين فرد وآخر .

وشعر حسنين بغرابة نحو أخيه ، وفكر مليا ، ثم قال بحزن :

ـ ثمة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين !

وبدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال بحماس :

ـ هذه غاية الشطارة .. أن تكسب بعرق جباه الآخرين !

وسئم حسنين هذا الحديث الذى يجرى بلا ضـابط فصمم على أن يطرق الموضوع الذى جاء من أجله . وصمت قليلا ثم قال بصوت منخفض :

ـ أظن يسرك أن تعلم بأنى نجحت فى امتحان البكالوريا .. ؟

فهتف حسن بسرور :

ـ مبارك . أسر طبعا بسرورك وسرور أمنا !

تفرس فى وجه الشاب ثم استطرد فى لهجـة لا تخلو من اشفاق وسخرية :

ـ وظيفة ، ثم طنطا أو الزقازيق ، أليس كذلك ؟

فقال الشاب منتهزا هذه الفرصة التى هيأها الآخر كى يتقدم خطوة جديدة فى سبيل غرضه :

ـ كلا ، فى نيتى أن ألتحق بالكلية الحربية !

ـ الحربية !.. عظيم جدا !.. الحمد لله على أنك لم تختر مدرسة البوليس !.

ـ مصروفاتها كبيرة ..

ـ لا أعنى هذا ولكنى لا أستلطف ضباط البوليس !.

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسما :

ـ ضباط الجيش رجال أفراح ، نراهم أمام المحمل وفى الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا تراهم الا عادين وراء خراب البيوت !..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات ، حسنين فى قلق وحياء وحسن فى ابتسام له معناه ، ولبثا كذلك طويلا حتى انفجر حسن ضاحكا فضحك الآخر وهو يغض بصره حياء ، وواصلا الضحك حتى تعبا ، ثم سأله حسن بلهجة ذات مغزى :

ـ كم ؟!

فضحك حسنين مرة أخرى وقد احمر وجهه من الحياء . ثم قال :

ـ الدفعة الأولى من المصروفات . يؤسفنى أن أقول انها مبلغ لا يستهان به ولكنى سأدبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثانى من نقود حسين وما وعدتنى به نفيسة !

وذكر حسن كيف كان يعد فيما مضى الخائب الفاشل فى الأسرة جميعا : الآن يرونه ملاذهم فى الملمات ! وأحس زهوا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتأصل فى نفسه نحو أسرته بل لعله ضاعفه . وساءل أخاه مبتسما :

ـ كم هذا المبلغ الذى لا يستهان به ؟

فقال حسنين فى خوف :

ـ عشرون جنيها !

ولاح الانزعاج فى عينى حسن وقال وهو لا يدرى :

- عشرون جنيها ؟.. ان جيشنا كله لايساوى هذا المبلغ ! .. هل تنوى الالتحاق بمدرسة اللواءات ؟

وانتظر حسنين فى اضطراب وقلق ولم ينبس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجد واهتمام :

- هذا مبلغ جسيم حقا ، ولا يمكننى أن أعطيك - اليوم على الأقل - أكثر من عشرة جنيهات !

وسادت فترة صمت أليم ، ثم نفخ حسن فى ضيق وقال :

- لو جئتنى قبل أسبوع !.. وعلى أية حال سأسافر غدا الى السويس ولعلى أعود بما يكفيك !

وتفكر مليا على حين قال حسنين بصوت منخفض :

- يؤسفنى أنى أزعجتك !

فقرصه فى أنفه ضاحكا وقال :

- كيف تعلمت هذا الأدب وعهدى بك طويل اللسان !.. لا تنزعج سآتيك بما تريد ولو قتلت قتيلا ونشلت محفظته .

ثم أعطاه عشرة جنيهات ، وحمله السلام الى أمه وأخته ، وطلب اليه أن يستمسك بالحكمة اذا تحدث عما رآه فى بيته . وشد حسنين على يده شاكرا وغادر الشقة. وما أن انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كئيب « حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها ، ولعل ما خفى منها أدهى وأفظع » . وقطع الطريق متفكرا مغتما يلفه احساس بالاشمئزاز والخوف . لم يكن بوسعه أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخوى ، ولكنه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والندبين الخطيرين ، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز والرعب . رباه ، لقد انقلب حسن الى نوع آخر من الآدميين ، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذى يعرفه . انه يترنح كأنما ضربة هائلة قد هوت على رأسه فأفقدته وعيه ، وكلما جد فى السير امتلأ شعوره بفداحة الخطب . وذكر حاجته اليه التى جعلته يستوهبه نقودا لا يدرى من أين

أتت ، فاشتد اشمئزازه وحنقه ، ولعن هــذه الحاجة من أعماق قلبه فى يأس وقهر . وأمر من هذا كله أن حاجته هذه لم تنته ، فسيعود اليه بعد أيام ويمد اليه يده سائلا ! ترى من أى سبيل تأتيه النقود فى السويس !. ان قلبه لا يكذبه ، وفيما رأى بعينيه الكفاية لمن ينشد الدليل ، ورغم هذا كله سيعود اليه ويسأله أن يتم صنيعه له ! هــل يستطيع أن يغضب لكرامته حقا ؟ هــل يستطيع أن يرد هذه الجنيهات الى أخيه ويصيح فى وجهه انى لا أرضى عن حياتك القذرة ؟ وندت عنه ضحكة مبحوحة مرة .. انه يعلم أنه يهذى هذيانا سخيفا . سيعود اليه راضيا ويأخذ النقود ـ اذا تفضل بها ـ شاكرا ممتنا . ولو علم انه ذاهب الى السويس ليسرقها ما وسـعه الا أن يدعو له بالتوفيق . وقال وكأنه يحاور ضميره المتوجع « مهما يكن من أمره فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم ! » .

٥٩

وفى عصر اليوم نفسه مضى الى ڤيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . والواقع أنه كان يندفع بحيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فاما الحرية أو الموت . وجلس فى السلاملك ينتظر البك مسرحا طرفه فى أطراف الحديقة أو فى الشطر الأمامى منها على الأصح . وكان مشتت اللب فرآها رؤية غامضة ، وتنقل بصره الشارد بين نخيلها الرشـيق المنغرس وسـط دوائر من الحشائش المنسقة سورت بنبات الشـيح وانتثرت فى رقاعهـا شجيرات الورد على هيئة أهلة . وارتاح لحظة من أفكاره فاستقر ناظرة على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخـل الڤيلا والسلاملك فاستسلم اليها فارا من قلقه . وكانت تنبثق

من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليهاروح الطفولة، وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست أغصـــانها وتعانقت أزهارها فامتزجت فى هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة فى وئام وائتلاف وسلام . وابتسم وهو لايدرى. وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المـائلة فى أعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلا للسخونة مفعما بعرف الياسمين الجاثم على سور الڤيلا. وورد على خاطره هذا السؤال : «هل يمكن أن أقتنى يوما ڤيلا كهذه ؟ » وتخيل الحياة فيها ما بين المخدع والحديقة وما يتبعهما عادة من سيارة وأسرة محترمة . هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها ڤيللا أحمد بك يسرى ، وفى كلتا المرتين انفجر فى صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان أخوف مايخافه أن ينحصر فى حياة كحياة حسين فيقطع عمره ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر . فى الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغى أن يأخذ نصيبه منها كاملا . وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة . وكانت الفتاة توجه الدراجة فى حذر على مماشى الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقها الحذر عن النظر فيما حولها . كانت فى السادسة عشرة ، ترتدى فســتانا أبيض هفهافا وتعصب رأسها باشارب منمنم ، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية . وقد أعجله النظر الى ساقيها المدمجتين اللتين تتناوبان الارتفـاع والانخفاض فلم يكد يتبين وجههـا ، واختفت وراء جناح الڤيلا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاته منها . وثار فى عينيه اهتمام ويقظة . اذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون ؟. وابتدرت مخيلته تستدعى صورة بهية بجسمها اللدن الممتلىء ووجهها البدرى ، شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة فى شىء ! ثم ذكر أخته نفيسة فعجب للاختلاف البين

بين مخلوقات من جنس واحد ، ثم شعر فى قلبه بغمز ألم وعطف وعاد الى نفسه فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرا يشبه الأثر الذى تركته الحديقة والڤيلا ونجفة بهو الاستقبال ، طموحا وثورة وسخطا ! » ما أجمل أن أملك هذه الڤيلا وأنام فوق هذه الفتاة » . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدى فى تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا « سيدى ... هـذه هى الحياة . اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها ! » ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والخجل . وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعا عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادما فى بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق فى عروة الجاكتة وردة حمراء فانتفض قائما وأقبل نحوه فى أدب وانحنى على يده مسلما فى اجلال وابتسم البك مرحبا وسأله وهما يجلسان :

ـ كيف حال الأسرة يا بنى !

فقال حسنين بتودد :

ـ يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك .

فغمغم البك :

ـ استغفر الله ..

وأيقن البك أنه سيتلقى عما قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه الى القاهرة الخ .. لم يكن يومه يخلو من مثل هذا ، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان فى قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يوما من صاحب حاجة . وقال :

ـ خير يا بنى ؟

فقال حسنين بحرارة :

ـ جئتك يا سعادة البك مستنجدا بشفاعتك فى الحاقى بالكلية الحربية ...

ودهش البك وكأنه كان يتوقــع كل شيء الا هــذا الطلب الأرستقراطى وتساءل دون أن يخفى دهشته :

— ولماذا اخترت هذا الباب الضيق ؟!

وتألم الشاب لما لاح فى وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء ، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة :

— يبدو لى يا ســعادة البيك أنه توجد فرصة ذهبية هذا العام لم يوجد مثلها فى السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة عدد الجيش ، ومهما يكن من أمر فشفاعتك أهم من كل شيء !

وتساءل البك باقتضاب :

— والمصروفات ؟!

وكرهه مرة أخرى . وسرعان ما تناسى رجاء المجانية أو صمم على أن يؤجله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة :

— انى على استعداد لأداء المصروفات كاملة !

ففكر البك مليا ثم قال :

— ان وكيل الحربية صديق قديم وسأحدثه بشأنك ...

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائما — ربما أنهــاء للزيارة — فقنع حســنين بالانحناء على يده مســلما وكرر الشكر وغادر الســلاملك مرح الصدر بالأمل . وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتمثلت صورتها وهو يرنو الى أثر العجلتين فى المشى ، ولكنه لم يدم هذا الا لحظة قصيرة ، ثم استأثر بوعيه كله مستقبله وآماله ...

٦٠

فى نفس الساعة كانت نفيسة فى ميدان المحطة .. كانت السماء تتخشع لهبوط المساء على حين واصل الميدان فى حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيارات . وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيارات لتعبر الطريق الى محطة الترام فلاحظت أن رجلا واقفا على بعد أذرع منها ينظر اليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حق فهمها . وتولتها دهشة وتساءلت ؛ حتى هذا ؟!. كان رجلا فى الستين ! ، يجمع فى جسمه بين ترهل العمر ووقاره ، مرتديا بدلة صوفية على حرارة الجو ويقبض بيده على مذبة أنيقة عاجية المقبض ، ويضع على عينيه نظارة زرقاء . وقد انحسر طربوشه المائل الى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حز الطربوش ، أما سوالفه وما لاح من قذاله فشديد البياض . وثار فى أعماقها حب استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيارات ، وحولت نحوه عينيها فوجدته ما يزال يحدق فيها ، وكأنه تشجع بنظرتها فتقدم منها فى خطوات ثقيلة وهمس وهو يمر بها :

ـ اتبعينى الى سيارتى ...

ثم واصل سيره الى سيارة واقفة لصق الطوار مثله فى الهرم والوقار ، يكاد يعلو سلمها عن الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال . وصعد اليها دون أن يغلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة . ماذا يريد الشيخ ؟ وابتسمت خواطرها فى تشوف ، ثم عادت تنصت الى همس الطمع . وكأنه استبطأها فخلع نظارته ثم أومأ لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت ،

وألقت على ما حولها نظرة متفحصة ثم اتجهت نحو السيارة ، يحدوها الطمع وحده لأول مرة . وأوسع لها فجلست الى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفائحة من فيه ، فاستحوذ عليها القلق ، وقالت :

— لا أستطيع أن أتأخر .

فقال بلسان ثقيل :

— ولا أنا أيضا !

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيارة . ولم يفارقها شعورها بالغرابة فى أثناء الطريق ، ثم غشيتها سحابة حزن وخوف لاحساسها بأنها تتدهور الى ما لا نهاية . لم يسبق لها قبل هذه المرة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير ، ولو بعد رؤيته مرتين أو ثلاثا ، الى أنها لم تكن تخلو من رغبة . أما هذه المرة فها هى تستسلم لعابر سبيل ، مدفوعة بالطمع وحده ، وبلا أدنى رغبة . أى تدهور وأى نهاية ! ترى كيف عرف أنها ضالته ! هل انقلب وجهها — على دمامته — يشى بتدهورها ؟ وتقبض قلبها فرقا ، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معا ، بين أن تتزين فتبدو فى هذه الهيئة المبتذلة أو أن تتعطل فتكشف عن دمامتها النقاب ؟!. ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعثم :

— جميلة كالقمر !

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديما وتمتمت :

— لست من الجمال فى شىء ...

فقال مستنكرا :

— لا تخلو امرأة من جمال !

كاذب أو مخدوع فلشد ما يعمى الفسق العيون ، وقالت ببساطة :

— الاى ! ...

فنقر بأصبعه على ثديها وقال :

ـ لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة !

ودت لو تستطيع أن تصدق قوله ، ولكن هيهات ، فلم تظفر بأحد يحبها أكثر من ساعات . لعله يعربد أو يخرف أو يعانى مرارة اليأس مثلها سواء بسواء . لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تخمد لهذا رغبة جسدها الذى يسيمها الهوان فكرهته كما تكره الفقر . ما هى الا أسيرة للجسد والفقر ولا تدرى كيف تستنقذ نفسها منهما . جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير فى أن تأوى الى الشاطىء عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم ، ثم سمعت صوته يقول متنهدا « وصلنا » فالتفتت الى الخارج فرأت السيارة تدور مع طريق دائرى تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجرى النيل رقعة عظيمة من الظلمة الا ما انغرس فى جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح ، وقالت كالمتسائلة :

ـ الجزيرة ؟

فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى :

ـ تعرفينها طبعا ...

وتريث ريثما غادر السائق موضعه واختفى فى الظلام فخلع نظارته وهو يقول :

ـ أرينى شطارتك فكل شىء يتوقف عليها ...

كان هرما مجنونا ، يكاد ينز خمرا . وانهال عليها بمداعبة غليظة فعضها بوحشية وراح يقرصها حتى أوشكت أن تصرخ . ولاحت فى الجو نذر هزء وسخرية ، ثم تعب حتى اليأس ، انفرج عن احساس بالغرابة ومغالبة الضحك . وأخيرا ارتمى مخمورا وقال بصوت غليظ :

ـ مدى يدك الى مقعد السائق وناولينى الزجاجة ...

ورفع سدادتها وعل منها ثم أسلم ظهره الى المسند وراح

يتنفس تنفسا ثقيلا غليظا . ولم تعد تحتمل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشبع بالتودد لأنها تعلمت أن تخاف هذه الآونة أكثر من أى شىء آخر :

ـ آن لنا أن نعود .

فقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ليتنى لا أعود أبدا ...

ولم تدرك ما يعنى ولكنها استجمعت شجاعتها وغمغمت :

ـ تسمح !

ودس يده فى جيبه وأخرجها فى تكاسل ثم ترك ريالا يسقط فى حجرها فتناولته فى دهشة وانزعاج وحدجته باستنكار وتساءلت وهى تتميز غيظا :

ـ ما هذا ؟

فقال بجفاء مباغت وعيناه تعكسان بريق الخمر :

ـ نعمة كبرى ! اذا لم ترضى به عاد الى موضعه السابق الى الأبد ...

فقالت بحنق :

ـ أظن مقامك أعلى من هذا بكثير ...

فصب فى فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطبا وقال :

ـ هذا حق ، ولكن الريال أعلى من مقامك بكثير ! أراهن على أنه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع فى مثله !

وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهى تغالب الغضب بالخوف :

ـ لماذا تحدثنى بهذه اللهجة ؟

ـ لأنك طماعة ... ولأنكن السبب فيما يقع لى . اعلمى أنى لا أحمل معى الا الفكة ، وحتى هذه تحاسبنى زوجى عليها عقب عودتى الى البيت ، وأهون على أن أضربك من أن تضربنى هى !

ولاذت بالصمت وهى تنتفض غضبا وغيظا فعاد هو يقول :

ـ ضايقتنى امرأة ذات مرة فى مثل موقفنا هـذا فصفعتها وقذفت بها خارج السيارة نصف عارية ، ماذا فعلت فيما تظنين ؟

... لا شىء ! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطى أخطر عليها منى . ومع ذلك فهى مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضا ، والظالم الحقيقى هى زوجى ...

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت :

ـ نعود من فضلك ...

فقال وهو يتثاءب :

ـ لك هذا . افتحى النافذة ونادى السائق ...

وانطلقت السيارة فى طريق العودة فتزحزحت حتى نهـاية المقعد ، وسهمت الى الظلمة بعين خابية .

٦١

وكان يوم قبول حسنين طالبا بالكلية الحربية أسـعد الأيام جميعا . وكان يحسبه مطلبا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثم أخذ يتبين عسره وعناده حتى اقتنع آخر الأمر بأن تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان أخف متاعبه . وقد طال تردده الى ڤيللا أحمد بك يسرى وكاد الرجل ييأس من قبوله فنصحه بالعدول عن اختياره ولكن تصميم الشاب وتقدم ترتيبه وحسن هيئته وتفوقه فى الكرة والعدو ثم شفاعة أحمد بك قبل كل شىء . كل أولئك ساعد على أحداث المعجزة ـ على حد تعبيره بعد اليأس ـ وتم القبول . وكاد يجن من الفرح ، والحق أنه علق آماله كلها على هذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعل أو كيف يولى وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه . كان طموحه الى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تعاسة حياته وضعتها ، وبدت

الكلية لعينيه كمصنع سحرى قادر على تحويله من انسان مهزول مغمور الى ضابط مرموق فى ظرف عامين ، وبأقل جهد . وكان سمع مرة صاحبا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه » فهامت بالحربية نفسه وقوى حلمها فى روحه . ولما علم بقبوله فى الكلية أبى أن يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذى لعبته فى قبوله فقال لأمه ان الفضل الأول راجع لمزاياه الجسمية وتفوقه فى الرياضة. وقال لنفسه فى زهو « أستطيع أن أعد نفسى من الضباط منذ الآن » وراح خياله المختال يستعرض الآدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسمية تأثيرها السحرى ــ الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسرى نفسه ــ وهو مرح نشوان . وحمل الخبر السار بنفسه الى أسرة فريد افندى محمد فاستقبلته بفرحة تجل عن الوصف : وقال له فريد افندى ضاحكا « شرفتنا يا حضرة الضابط » . وقال الشاب على مسمع من بهية لغرض فى نفسه « سأغيب عنكم أربعين يوما قبل أن يسمح لنا بالخروج مرة كل أسبوع » . وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حرم عليه عامين ولكنه لم يتح له أن يخلو الى الفتاة الا دقائق ، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنها لم تتزحزح عن تعففها حتى فى هذه اللحظة . وغلبها الحياء كعادتها ، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثرا بالوداع . وقال لها بعجلة فى صوت لا يكاد يسمع « أريد قبلة حارة من شفتيك » ولما رأى حياءها وجمودها قال بجزع « أتأبين على هذا حتى فى هذه اللحظة ! .. لا يمكن أن أتصور انك تحبينني ! » وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة فى قلق « بل لهذا أرفض أن أذعن لك ! » وتساءل فى انكار « لا أفهم ما تعنين » فقالت بشجاعة مؤثرة « أرفض لأنى أحبك » وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثر حد السكر وهم بالاقتراب منها ولكنها أشارت اليه

محذرة وهى تومىء برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح ، وما لبث أن عاد فريد افندى وزوجه فقضى بقية الوقت ممزقا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ ، ثم ودعهم ونزل الى شقته وهو يقول لنفسه « هذا حب عاقل ! حب يسيطر عليه الحزم والتدبير . كأنها رسمت خطة حكيمة كى تضمن زواجى بها . ولكن هل يعرف الحب الحقيقى هذا المنطق البارد ؟ ! » وكان حديثه لنفسه فى الواقع خاضعا لما استحوذ عليه من غيظ وحسرة ، وعد وداعه لها أسوأ وداع منى به عاشق . ثم أمضى شطرا من الليل بين أمه وأخته . ولم تستطع نفيسة ـ كعادتها ـ مغالبة مشاعرها فدمعت عيناها وقالت فى حزن « قضى علينا بأن نعيش وحدنا » ولم يخل هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هون من وقعها أن روحه كانت تهفو كثيرا الى الحياة المستقلة ، فى بيت غير البيت ووسط غير الوسط . أما الأم فحافظت على هدوئها الظاهرى ، ولم تشجع نفيسة على الاسترسال فى حزنها وقالت لها بحدة « لا تبكى كالأطفال ، سنراه كثيرا ، وحسبنا سرورا أنه نال ما تمنى » . بيد أن قلبها كان فى واد آخر ، حرك الفراق الوشيك أشجانه فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية ، فذكرت وداع حسين ، وتخيلت خلو البيت من أبنائها جميعا ، وتداعت الى ذهنها ـ على كره ـ ذكرى رحيل زوجها ، فعجبت لحياتها التى لا تجود لها بسعادة الا مصحوبة بوداع وفراق . فهل قدر لها أن تمضى البقية الباقية من حياتها وحيدة ؟ وهل فى سبيل هذه النهاية تصبرت وتجلدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح ؟ ! . ولكنها لم تستسلم لحزنها الا بمقدار يسير . ونادت قوتها الكامنة ، وذكرت ما صادف ابنها من آى التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها . مهما يكن من أمر فانها تؤمن الآن بأن ما بذلت من صبر وكفاح لم يضع سدى ، وأن سفينتها الضالة فى سبيل الهداية الى مرفأ آمن . ويحق لها أن تفرح فما

من ثمرة تجنى فى هذه الأسرة الا وهى غرس يديها وعصارة قلبها .
وفى الصباح الباكر ودع حسنين أمه وأخته ومضى فى سبيله الى الكلية الجديدة ..

٦٢

ثم وجد نفسه فى فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة . وبحثت عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحبا قديما من التوفيقية فيلوذ من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم ، وضايقه هذا وان أحس زهوا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذى قبل فى الحربية . وتمنى كثيرا أن يبدأ أحد بالكلام ، وطال انتظاره . ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادىء . ثم مضى يتسلى بمشاهدة الكلية فجرى بصره مع الفناء الشاسع وأبنيتها الفخمة المترامية ، ثم ثبته طويلا على تمثال المدفعين المقامين عند مدخلها فهاله المنظر وبث فى نفسه اعجابا وخيلاء . وكان بادىء الأمر مطمئنا الى مزاياه الجسمانية من طول قامته ورشاقة قده ووسامته ولكنه تخلى عن كثير من اعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شبابا غضا وفتوة ناضرة وجمالا رائعا ، الى ما لاحظ على بعض الأفراد من مخايل الأرستقراطية . ثم وقعت عيناه على شاب قادما من حجرة تطل على الفناء عرف فيه زميلا قديما فى التوفيقية سبقه الى الالتحاق بالكلية بعام أو يزيد وكان يرتدى قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكى وعلى ذراعه اليسرى أربعة شرائط . لم يكن من أصدقائه ولكنه تعرف به فى فناء المدرسة ، ومع أنه لم يكن يذكر من اسمه الا « عرفان » ولم تكن هذه العلاقة الواهية لتغريه بالاقبال عليه فى غير هذا الظرف ، الا أنه رحب بالتسليم عليه ليعلن صداقته بهذا الطالب القديم أمام الطلبة المستجدين .

ونفذ فكرته فمضى اليه حتى واجهه ومد اليه يده مبتسما وهو يقول فى ألفة :

ــ كيف أنت يا عرفان ؟

وسرعان ما ماتت الابتسامة على شفتيه للنظرة الجامدة التى رماه الآخر بها فى تجهم وصلف ، وقد أطال تفحصه فى تكبر وما يشبه الغضب ، ثم لمس يده بيده واستردها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون أن ينبث بكلمة ! . وشعر حسنين بانهيار شامل وذهول قاتل ، وظنه نسيه أو أساء فهمه فقال كالمستغيث :

ــ ألا تذكرنى ؟ .. أنا حسنين كامل على .. !

فلم يؤثر الاسم فى الآخر أيما تأثير ولم يطرأ على صلابته أى لين ، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء :

ــ لا صداقة هنا . أنت طالب مستجد وأنا باشجاويش ..

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب . ووجد حسنين نفسه فى موقف خزى لم يقفه فى حياته فأثلجت أطرافه وتوترت شفتاه ، وانتبذ موضعا بعيدا متحاميا النظر الى أحد أقرانه وأن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون . ماذا دهاه الأحمق ! ترى هل أهانه لضغينة اضطغنها عليه أو فقد رشاده ؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع فى هذه الكلية ؟ ! . ولبث مستغرقا فى أفكاره لا يرى مما حوله شيئا حتى نودى على الطلبة المستجدين ودعوا الى أول طابور لهم بالملابس المدنية . ووقفوا صفين متوازيين بارشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود ، وقد تجنب النظر الى صاحبه القديم الذى وجده معلقا فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر فى وجهه . ثم جاء ضابط عظيم محاطا ببعض الضباط من رتب أقل ، وألقى عليهم نظرة ثاقبة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التى آثروها . وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على

أساريره من الصلابة والعنف ، وكان يفصل بين كثير من جمله بهذه العبارة « العقاب الصارم » حتى صارت كضربات الايقاع وملأت القلوب رهبة وحذرا . وما ان انتهى من خطبته حتى بدأ أول يوم فى الحياة العسكرية الجديدة . واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد . وبدأ اليوم - والأيام جميعا - شاقا طويلا ، يبتدىء بالدش البارد فى الصباح الباكر ، ويثنى بالطابور ، ثم الدروس ، جهد متواصل ، وخشونة فى المأكل والملبس والمعاملة حتى اذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى . وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقون ، وكان الرؤساء يرونها فرضا واجبا ، ويكفى أن يحظى طالب بشريط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه ، وهو يمارسها فى غير رأفة وبسطوة تبلغ فى أكثر الأحايين اهانة صريحة وتجريحا متعمدا . ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج اذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء . ولم يجد حسنين من عزاء فى ذلك الجو الرهيب الا أنه سيصير يوما أومباشيا ثم باشجاويشا . وهنالك يقضى ديونه دفعة واحدة ! . وقد ذكر عهد التوفيقية - الذى وصفه يوما بالارهاب - بالترحم والرثاء . وبلغ منه الضيق أحيانا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية وتمنى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها . وكان يشاركه احساسه هذا كثيرون فى الأيام الأولى على وجه الخصوص . وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع اليهم الهزال ، ولعل حسنين كان الطالب الوحيد الذى لم يخضع لهذا القانون الطبيعى ، بل لعل جسمه اكتسب ارتواه غير منتظر لأن غذاء الكلية - على خشونته - هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها فى أعوام الشدة الأخيرة . بيد أنه تعرض لآلام نفسية غير متوقعة فى أيام الجمع التى يسمح فيها عادة بالزيارات . كان فناء المدرسة الخارجى يمتلىء بالآباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعا بنهار ممتع ويعودون الى حجراتهم

مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعـام ، حتى الطلبة الريفيون لم يعدموا أقارب من القاهرة ، فلم يكن ثمة طالب يقضى هذا اليوم السعيد وحيدا الا ه ، لم يزره أحد ولم ينتظر أحدا . وكانت أمه قد أخبرته ـ قبل رحيله ـ بأنها لن تستطيع زيارته لأنها ـ كما يعلم ـ لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه ، أما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف « لا أظن أنه مما يشرفك أن أبدو أمام زملائك بهذا الوجه » ، ولم يكن ثمة أمل فى أن تزوره بهية لحيـائها وعـدم اعتيادها الظهور فى مجتمع من الأغراب ، فلم يبق الا فريد افندى وكان بطبعه كسـولا لا يكاد يفارق بيته الا لضرورة قصوى ، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل اليه هدية من البسكويت . واعتـاد فى أيام الزيارات أن يختـار موقفا عند مدخل الفناء الداخلى يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملى بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذا بجمالهن وأناقتهن وآى النعيم البادية فى وجوههن وثيابهن . وعجب لهذه الفوارق التى تباعد بين الآدميين ، وبدت لعينيه محيرة بقدر ما هى مزعجة . وثارت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس الا فى أن يناقش ربه الحساب ، متسائلا ـ فيما يشبه التحدى ـ عن أسرار حكمته التى جعلت من الدنيا ما هو كائن !. وسأله مرة زميل له عن سر عزلته فقال بلا تردد :

ـ أبى متوف ، وأخى مدرس بطنطا . أما الأسرة فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو !.

بيد أن الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعا خصيبا اذ أن الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى يستفحل خطبها . وقد علمته أن ينسى باطنه أكثر وقته ، ثم ـ بمرور الأيام ـ أخذ يألف شدتها وجوها الخانق فمضت تخف وطأتها وتحتمل ، الى ما ظفر به من صداقات جـديدة ابتل بها صـدره الموحش فاستطاع أن

يضحك ملء قلبه - رغم كل شيء - كعهده القديم .. وهكذا انقضت الأربعون يوما ...

٦٣

وخيل اليه - لدى أول خرجة من الكلية بالملابس الرسمية - انه حقق حلما بديعا بتصديه للعالم بالبدلة الملونة .. كان ينطلق كالعامود فى استقامته ، كالطاووس فى خيلائه ، ملقيا على صورته التى تعكسها مرايا الحوانيت والمقاهى نظرات ارتياح تشمل الشريط الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع ، ملوحا بعصاه القصيرة ذات الرأس الفضى ، قابضا على قفازه كأنه يتحدى العالم . ولما تراءت لعينيه عطفة نصر الله جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور ، ثم مضى اليها مطمئنا الى أن أحدا لن يراه ممن يود ألا يروه - لم يطلع أحدا من أقرانه على عنوانه - راجيا أن يراه جميع الذين يود أن يروه ، وأحدقت به الأعين ولوحت له الأيدى من رقاع الأحذية الى الحداد ومن بائع السجائر الى جابر سليمان البقال . وتطلع رأسه الى شرفة فريد افندى فوجدها مغلقة فسر لما تهيأ له من مفاجأة سعيدة غير مسبوقة بتنبيه ، ثم قطع فناء البيت الى الشقة وطرق الباب وانتظر مبتسما . وجاءه صوت نفيسة وهى تزعق « من ؟ » وفتح الباب فما أن رأته حتى هتفت كالمجنونة :

- حسنين !

وشدت على يده فى انفعال وجعلت تهزها بقوة وفرح ، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم لذراعيها النحيلتين وهى تضمه الى صدرها وقبل جبينها فى سرور شابه شيء من القلق على سترته التى طوقتها ذراعاها ، ثم سار بينهما الى حجرته

القديمة التى بدت لعينيه غريبة ولكنها على غرابتها استثارت حنانه وذكرياته . ووقفوا ثلاثتهم والمرأتان ترنوان اليه باعجاب وحب ، ثم دعت له الأم وأفصحت عن سرورها بعبارات مقتضبة : ثم لاذت بالصمت ، أما نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة « لشد ما أوحشتنا » .. « البيت من غيركم كالقبر » .. « اضطرنى غيابك الى أن أرد بنفسى على رسائل حسين بخط أقبح من وجهى » .. « لم يتمكن حسين من القيام باجازته هذا العام لمرض زميله وقد كدنا نجن من الحزن » .. « هل حقا كنتما تتراسلان ؟ .. لقد أخبرنى بهذا منذ عشرة أيام » .. « ماذا تعلمت ؟ . هل تستطيع الآن أن تطلق بندقية ؟ » . وكان يجيب على أسئلتها فى دعابة ، ثم خلع طربوشه ووضع عصاه وقفازه على المكتب ولبث واقفا وهو ينظر الى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست أمه على الفراش وهى تقول :

ـ اجلس يا بنى ..

فتردد لحظة ثم قال :

ـ أخاف أن يتكسر البنطلون ! ..

فتساءلت المرأة بدهشة :

ـ هل تظل واقفا طالما أنت لابس البدلة ؟ !

وابتسم فى ارتباك ثم جلس على الكرسى فى حذر ومد ساقيه وهو يتفحص بنطلونه باهتمام ، وقال :

ـ ان كسرة تلحق بالبنطلون خليقة بأن توقع على عقابا صارما لا يقل عن حبس شهر بالكلية .

ونظر فى وجه أمه ليرى أثر هذه الكذبة فى نفسها فقرأ فى صفحته الانزعاج فاستطرد قائلا بصوت ينم عن التضجر :

ـ حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصورها انسان ، فنهارنا كله وشطر من الليل نقضيهما فى الخلاء بين المدافع والقنابل والرصاص ، وقد تودى هفوة بسيطة بحياة فرد !

فاتسعت عينا نفيسة فى فزع ، وتساءلت الأم فى اضطراب :

ـ كيف يلقون بأبناء الناس الى الهلاك ؟ !

وهتفت نفيسة فى انفعال :

ـ لماذا اخترت هذه المدرسة !

فهز رأسه بثقة وقال :

ـ لا تخافا على ! . . . انى ألعب بالنار بمهارة استحقت اعجاب الضباط جميعا !

فقالت الأم بصوت متهدج :

ـ ما عسى أن نصنع باعجابهم اذا أصابك سوء لا قدر الله ؟ !

فقال حسنين فى سرور خفى :

ـ وماذا تصنعين اذا دعينا غدا الى الحرب ؟ .. ألم تسمعا بأن هتلر يعد عدته لاشعال نار الحرب ؟ واذا شبت الحرب هجم موسولينى على مصر فندعى جميعا للقتال !

وحدجته الأم بارتياع ، ثم سألته بجد واهتمام :

ـ أحقا ما تقول يا بنى ؟

وتراجع قليلا ..

ـ هذا ما يقوله بعض الناس !

ـ وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس ؟

وقبل أن يجيب صاحت به نفيسة :

ـ اذا صح ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد .

فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقا من افساد سرور اللقاء :

ـ ما أردت الا اخافتكما .. (ثم غير لهجته متسائلا) .. فلندع الهذر جانبا وخبرينى يا ست نفيسة ماذا تعدين لى غداء للغد ؟ ! .

فابتسمت الفتاة وأدركت أن أخاها « ضيفها » نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وأن اكرامه واجب عليها قبل أى انسان آخر ، فقالت :

ــ ساشترى لك دجاجتين تطبخهما نينة فى ملوخية !

ــ عال ! .. والحلوى ؟

ــ برتقال ؟

ــ نفسى فى الكنافة ، فطالما رأيت هداياها تحمل الى الطلبة أيام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد !

ولم تهتم الفتاة للكنافة قدر ما اهتمت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع فى نشوة الكرم التى غمرتها فقالت :

ــ وستحلى بالكنافة كما تشتهى !

فقال الشاب بعد تردد :

ــ لو كنت وقحا لسألتك أن تحشيها بالفستق والبندق !

ــ ولكنك لست وقحا والحمد لله ..

هكذا تهربت بالمزاح وأدرك حسنين أنه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر مما سخت فقال ضاحكا :

ــ آه لو رأيتم الهدايا التى كانت تحمل الى الطلبة ! .. وفى مرة أهدى الى صديق قطعة من حلوى اسمها « بودنج ! » .

ــ بودنج !

ــ نعم بودنج ...

فضحكت نفيسة قائلة :

ــ لولا الملامة لقلت انها سلاح لضرب النار !

ثم سألته أمه :

ــ لماذا لا تخلع ملابسك ؟

فقال فى شىء من الخجل :

ــ سأذهب الى السينما !

ولاح التذمر فى عينى الأم فاستدرك قائلا :

ــ سأعود مبكرا لنسهر معا ، وسنمضى الغد معا كذلك !

عادوا الى الحديث والذكريات طويلا ، ولكنه لم يعد يسعه أن يملك خياله الذى أخذ ينازعه الى الشقة العليا ! وكان يجد صعوبة

فى قطع الحديث والافصاح عن رغبته فى زيارة جارهم فريد افندى ، وأخيرا قال بعدم اكتراث :

- آن لى أن أترككما للذهاب الى السينما ، ولعلى أجد بعض الوقت لزيارة فريد افندى !

٦٤

منته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنه لم يدر كيف ، فقد اجتمع فى حجرة الاستقبال بالوالدين ، واستفاض الحديث العادى وهو ينتظر حضورها بصبر نافد . ثم جاءت تسير على استحياء وقد لفها روب وردى لم يبد منه غير أطرافها فسلمت عليه سلاما رسميا ووالدها يتفحصها بنظرة ضاحكة تنم عن اعجاب . وجلست الى جانب أمها ، واتصل الحديث كما كان ولكن محضرها استأثر بأعماق وعيه فوجد مشقة فى تتبع الكلام التافه ومشقة أكبر فى الاشتراك فيه ، ثم أخذ يستشعر الملل والضيق ، وكلما استرق اليها نظرة وتخيل قوامها البض ثار دمه وحقد على الجلسة وشهودها . ورأى فى عينيها هدأة وطمأنينة كأنه لا يكدر صفوها مكدر ، وانها لكذلك دائما كأنما لا يجرى فى عروقها دم ، وليس أحب اليها من أن تجلس بين والديها تصغى لحديثه وهى فى مأمن من نزواته ! . لذلك يحنق عليها أحيانا ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل ما بثته فى حناياه من طمأنينة وثقة فكان يشعر بأنه يأوى من حبها الى ركن ركين وعاطفة عميقة ثابتة لا تزعزعها الحدثان . واستمر الحديث فلم تجد من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه قانعة بهزة من رأسها أو ابتسامة من شفتيها فبلغ منه الضيق نهايته ، وفكر فى مخرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن تنفيذها مدفوعا بجسارته ، فقال موجها خطابه الى فريد افندى :

ـ هل تأذن لى فى أن أصحب بهية معى الى السينما ؟
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهية عينيها موردة الوجه ، ثم قال فريد افندى :
ـ أظن العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين خطيبين ..
ولكن زوجه قالت بلهجة المعارضة :
ـ أخاف ألا يروق هذا للست والدتك .
ولم يتورع حسنين عن الكذب انقاذا لمشروعه فقال :
ـ لقد استأذنتها فوافقت بسرور !
فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهى تنظر صوب زوجها :
ـ ما دام والدها موافقا فلا مانع عندى .
وطلب اليها فريد افندى أن تأخذ أهبتها للذهاب مع الشاب فمضت متعثرة فى خطوات الخجل ، وما هى الا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معا . ولاحظت بهية أنه جعل يسير فى حذر عندما اقتربا من شقة الأسرة كأنه يخاف أن يتنبه اليهما أحد من الداخل فساورها القلق وهمست فى أذنه :
ـ كذبت على أمى بقولك انك استأذنت والدتك ، وستغضب نفيسة لأنك لم تدعها معنا !
فأشار اليها بالسكوت وأخذها من يدها الى الفنـاء ثم الى العطفة ، وسارا معا والوالدان يطلان عليهما من الشرفة . وكانت بهية ترتدى المعطف الأحمر الذى يجلو نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة . بيد أن القلق لم يذهب عنها وقالت له فى لوم :
ـ ستعلم أسرتك برحلتنا ان عاجلا أو آجلا ..
ولم يدع له سروره بالظفر مكانا لهم فقال ضاحكا :
ـ لم نرتكب اثما ، ولن تحرق الدنيا !
ـ ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا ؟
ـ ولكنى أريد أن أنفرد بك !
فقالت بقلق ، وكانت تخاف نفيسة أكثر من أى مخلوق آخر :

ـ أنت لا تبالى شيئا وا أسفاه ..

ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحيانا النابية فقال :

ـ وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى أستأهل هذا الوصف عن جدارة ...

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست فى استياء دون أن تنبس بكلمة لأنهما كانا قد اندسا بين الواقفين على طوار المحطة ، وجعل ينظر الى وجهها الساخط فى سرور باطنى ، ثم همس مبتسما :

ـ أعنى معصية خفيفة !

فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعد الى الدرجة الأولى ولم يكن بها الا سيدة أجنبية فشعر بارتياح ، وجلس لصقها ، ثم سألها فى دعابة :

ـ كيف كان شوقك الى فى غيابى ؟

فقالت فى شبه غضب :

ـ لم تخطر لى على بال قط ..

فهز رأسه كالحزين وقال :

ـ ما آلمنى شىء كما آلمنى احساسى بتشوقك الى .

فقالت ببرود وهى تخفى ابتسامة :

ـ أصارحك بأن الكلية الجديدة قد زادت دمك ثقلا !

وذكر وهو لا يدرى ماتعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا اليها متأملا فوجدها جميلة فوق ما يشتهى ، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة ! وما غاب عنه أنه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه . وعدل فجأة عن معابثتها فقال بحرارة :

ـ لم تغيبى عن نفسى لحظة واحدة طوال ذاك الفراق ، وقد تعلمت جديدا وهو أن الحب فى القرب ـ على طموحه المعذب ـ جنة أما على البعد فهو مأساة كاملة .

وخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنه شم فى استسلامها وما

اعتراها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رئتاه بارتياح عميق . وتحدث كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادراه ومضيا صوب عماد الدين ، وطلب اليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد ، ولما كانت تساير شخصا — غير أمها — لأول مرة فقد تولاها ارتباك وحياء . وشعرت بكوعه وهو يمس — عفوا أو قصدا — ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه ، وتساءل محتجا :

— ماذا فعلت !

— هذا أروح لى ...

فتغيظ لافلات الفرصة وقال :

— سيكون من المعجزات تحويلك الى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ !

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبا لجنب فى السينما ، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء ، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلته العسكرية وحبيبته . ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور ، ومال نحوها وهمس :

— ألا ترين أن جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواج ؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة حيية فانطلق مرحه وهمس مرة أخرى :

— قلبى يحدثنى بأننى سأنال الليلة القبلة المشتهاة ..

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما أمامها . وحاول فى الظلام أن يعابثها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه ، ثم اضطرت تحت ضغطه والحاحه الى أن تترك راحتها فى راحته على الذراع التى تفصل بين كرسييهما ، ومضى الوقت فى سعادة شاملة ...

٦٥

وفى مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأوتوبيس رقم ١٠ ليحمله الى الكلية . وكان أمضى نهارا سعيدا فى أسرته وتناول غداء لذيذا ، وبدت نفيسة فى مرحها المألوف ولكنها — على ذاك — قالت له على مسمع من أمهاوبلهجة ساخرة :

— وددت لو رأيتك وأنت ذاهب مع « الهانم » الى السينما !

وأدرك أن سره افتضح وأن الحرب أعلنت فضحك عاليا ونظر صوب أمه فرآها صامتة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة ، وشكر فى نفسه بدلته العسكرية التى أنقذته من لكماتها الى الأبد.

وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة :

— ما أجملكما من زوجين !.. حضرتك فى طول العمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق !

فنهرتها أمها قائلة :

— لا تكونى عيابة وفيك كل العبر !

فقالت الفتاة ضاحكة :

— أنا على الأقل خفيفة ، ولكن لك حق ياسى حسنين فوجهى لم يخلق للسينما !

واعتذر لها ماوسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كمايشعر الآن ، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه ؟!. كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر ، وما لبث ان انضم اليه كثيرون من زملائه ، ثم جاء الأوتوبيس فصعدوا اليه متزاحمين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس فى السينما فترجح لديه أنهم سيعلقون على فتاته شأنهم فى هذه الأحوال ، وسر لذلك سرورا كبيرا وانتظر على لهفة الحديث الذى سيكون دونجوانه . ولم يطل به الانتظار

لأن أكثر من واحـد منهم بدا متحفزا ، فقـال قائل منهم وهو يشير اليه :

ـ أما علمتم ؟ .. رئى الصنديد أمس وفى يده فتاة !

وود أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده . وتساءل البعض :

ـ من أى نوع ؟!

ـ النوع البيتى ...

ـ جميلة ؟

وتركز انتباه حسنين واشتد وعيه أما المتحدث فقال :

ـ لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدى !

وتصاعد الدم الى وجهه وشعر بفتور قضى فى الحال على حماسه ونشوته ، على حين واصل الآخرون حديثهم فى ضحك وصخب :

ـ ممتلئة أكثر مما ينبغى قصيرة أكثر مما يستحب !

ـ ودمها ثقيل من رتبة لواء !

ـ دقة قديمة على وجه العموم ، أين وجدتها ؟!

وأدرك أن السؤال الأخير موجه اليه ولكنه لم ينبس بكلمة ، وجعل يضحك متظاهرا بالاستهانة وهو يعانى شعورا جارحا بالخجل والقهر . وقال شاب بلهجة تنم على الاشفاق :

ـ احذر أن تكون خطيبتك !

واندفع قائلا بلا وعى تقريبا :

ـ كلا طبعا !

ـ حبيبة ؟!

فقال مدفوعا بمشاعر الألم والخذلان التى تصطرع فى نفسه :

ـ نوع من التسلية ليس الا !

ـ اذن فلا بأس بها . عذراء ؟ !

وأجاب باضطراب شديد : نعم ..

ـ خيب الله أملك ! لماذا تنفق وقتك عبثا ؟ ! ألم تدر بأن

التقاليد تقضى بأن تكون ليلة الخميس للعشـيقة ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها ؟!

فتكلف الشاب ضحكة وقال :

- سأصحح جدول النساء فى المستقبل !

وضحكوا جميعا ، ثم غيروا مجرى الحديث . وانطوى على نفسه فى غم وهم يعانى سكرات الهزيمة . تبرأ من فتـاته وهو لا يدرى . آه لو علموا أنها خطيبته وانه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابرة عامين !. طابع بلدى ، ممتلئة أكثر مما ينبغى ، قصيرة أكثر مما يستحب ، دم ثقيل من رتبة لواء ، أهـذه بهية حقا ؟! . وهى الى هذا كله دقة قديمة ! ، لا يخلو هذا القول من حق فهى لا تدرى كيف تصـحبه فى الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة ، ولا يكاد يذكر من قولها الا التأنيب والتذمر . كيف يسعه اذا تزوجها أن يظهر بها أمام الناس ؟ سيقولون هذا وأكثر منه . وشعر بكرب وامتعاض ، وغاب عما حوله غارقا فى أفكاره فلم ينتبه الى وقوف الأوتوبيس أمام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين ..

٦٦

وفى الأسبوع التالى صعد فى الوقت المعتاد لزيارة فريد افندى، وكان الأب وسالم الصغير فى مشـوار فجلس مع الأم وبهية ، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب . وبدت بهية فى فستان بنى تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها أسـفل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين ، فلم يكن ينقصها الا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه الى السينما اذا دعاها . ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير فى

هذا ، وكان صوت نفيسة لا يزال يطن فى أذنيه وهى تقول له بعد أن أعطته نصف ريال لسهرته :

ـ هذا لفسحتك أنت وحدك !

ولكن لم تكن نفيسة كل شىء ، كان فى الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرة أخرى أمام زملائه ، وبات يخجل منها وهو لا يدرى . كان يحسبها أجمل فتاة ، ولكنه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماه ! ورنا اليها فالتقت عيناهما ، وهناك نسى أفكاره ، وانبعثت حرارة دمه واضطرمت به الرغبة مستهينة بكل شىء . مليحة شهية ، لا يستطيع أن يمارى فى هذا ولكن كيف يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهى أنه يتحاشى الظهور معها أمام الناس ؟ ! . وكانت الأم لاتمسك عن الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشرود حتى قالت له :

ـ مالك يا سى حسنين كأنك مشغول البال !

فأفاق الى نفسه مضطربا وقال كالمعتذر :

ـ كان الأسبوع الماضى حافلا بالتمرينات القاسية حتى غادرنا الكلية كالأموات !

وواصل الحديث وهو أشد انتباها له حتى استأذنت الأم لأداء الصلاة فخلا لهما الجو ، وبادرته الفتاة قائلة :

ـ مالك ؟

فقال مبتسما ليذهب عنها الشك :

ـ لا شىء !

ـ لست كعادتك !

وخطر له خاطر ماكر بعثه فى نفسه خلو المكان وعواطفه الثائرة فقال متظاهرا بالحزن :

ـ لا أنسى تحفظك القاسى معى !

ـ أتعود الى هذا ؟

ـ طبعا ! . . هذا حقى ولا أنزل عنه ما حييت .

فقالت الفتاة برجاء :

ـ حسبت أننا انتهينا من هذا ؟

ـ انى فى حيرة من أمرك ، جميع زملائى لهم خطيبات مثلك ولكنهن لا يحرمنهم حقوقهم من العناق والقبل .

وغمغمت موردة الوجه :

ـ لسن مثلى ولست مثلهن !..

هذا حق ، ولعل زملاءه لم يقتصدوا فى توكيد هذا ولكنها لاتدرى ماذا تقول ! وتفكر فيماينطوى عليه قولها من سخرية لم تدر لها بخلد ، وقبل أن يتكلم عجلت هى بتغيير مجرى الحديث فسألته:

ـ أذاهب أنت الى السينما ؟

وأدرك أنها تهيىء له فرصة ليدعوها للذهاب معه ، وساوره احساس بالضيق ولكن اشفاقه كان أكبر من حرجه فقال :

ـ كلا ، سأوافى بعض الزملاء الى موعد سابق !

وخفضت عينيها فى خجل ، ثم ساد صمت أليم ، وأخيرا سألته بلهجة ذات معنى :

ـ ماذا أحدث ذهابنا معا الى السينما فى بيتك ؟

ووجد فيما تعنيه بسؤالها عذرا ينفعه فى تجنب ما يريد تجنبه فقال :

ـ لا شيء ذا بال الا أن والدتى ساءها أن أدعوك الى مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة !

فقالت ببرود :

ـ ليس مما يسيء الى الأسر المحترمة أن يذهب فتياتها الى السينما !

ـ كما لا يسيء اليها العناق والقبل ولكنك ـ مثل أمى ـ لا تصدقين !

فتجاهلت اشارته وتساءلت :

ـ هل منعتك من العودة الى تلك المخالفة ؟!

ـ كلا !.. ولكنها تخاف أن أسىء من غير قصد الى أسرتك الكريمة .

ـ ألم تخبرها بموافقة والدى ؟

ـ أخبرتها ولكنها اعتقدت أنهما وافقا متورطين ..

ـ هل أفهم من هذا اننا لن نخرج معا بعد اليوم ؟

ولم يستطع أن يجابهها بما يبطن فقال :

ـ بل نخرج حين نشاء ..

وندم على قوله اثر التفوه به ، أما هى فابتسمت فى حياء وقالت بصوت منخفض :

ـ ظننت أننا سنذهب اليوم الى السينما !

وعجب لهذه الدعوة تجىء من ناحيتها هى ، ومع أنه رق لها الا أنه لم يستسلم لعاطفته فقال :

ـ لولا اننى مرتبط بموعد كما قلت لك ...

ـ آه ... هذا أهم طبعا من ذهابى معك !

ـ ليس الأمر كذلك ولكن سبق منى وعد ! .. ثم ... ثم لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنه أمى مخالفة للتقاليد بهذه السرعة !

فهزت رأسها فى ابتسامة حزينة وقالت :

ـ اذن فليس الموعد الذى يمنعك !

فقال بتسليم :

ـ كلا الأمرين معا ! .. لا تؤاخذى أمى على عقليتها القديمة .

فخرجت عن ضبط عواطفها لأول مرة قائلة :

ـ فكيف تسمح لنفيسة بالخروج كل يوم ؟!

ولم تعجبه لهجتها ، وساءها ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـ لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبدا !

وبادرته قائلة بلين واشفاق وأسف :

ـ لم أقصد سوءا بأحد . أردت أن أقول أن الخروج لا يعيب انسانا ..

وساد الصمت قليلا ثم سمعا وقع أقدام الأم وهى راجعة فتساءلت بهية فى لهفة واشفاق :

ـ حسنين ألنت غاضب ؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت اليها طمأنينتها .. ومكث معهما ساعة ثم ودعهما وانصرف .

٦٧

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب الى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد الى كرسيه فى الظلام . وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم فى البيت الذى غادره معتذرا بأكذوبة . وذكر كيف ضغطت على يده . بحنو وهى تودعه ، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه . وغفرت لها ما تقدم وما تأخر من اساءة ! . « أمنيتى الآن أدنى الى التحقيق . لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهى من زمن . لو عبست فى وجهها مرتين لما أصرت على قول « لا » . ما أحمقنى !. لن أقنع بقبلة . لأضمنها الى صدرى حتى يطقطق عظمها تحت ذراعى ، بعيدا عن أعين النقاد التى لا تعجبها الا الملاحة والرشاقة والموضة . ولكن هل أصر على اخفائها عن الأعين حتى بعد أن أتزوج منها ؟.. لماذا لا أستهين بالناس وألسنتهم ؟.. يا له من شر لا قبل لى بالتعامى عنه !.. هكذا أنا » وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه فى الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده ، ثم شاهد فصلا من الصور المتحركة

وأضيئت الأنوار . ودار برأسه فيما حوله متفرسا فى الوجوه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة فى السمنة لحد مزر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث ، ولم يسعه الا الاعجاب بشجاعة الرجل الذى يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد . ولاحت منه التفاتة الى يساره فرأى فى الكرسى الذى يليه فتاة حسناء مرتدية جاكتة رمادية وتاييرا . وخيل اليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة . وراح ينقب فى طوايا ذاكرته ، وفى أثناء ذلك انتقل بصره الى امرأة تليها ثم الى رجل ما ان رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائما ومد له يده بأدب وهو يقول :

ـ مساء الخير يا سعادة البك .

فالتفت الرجل صوبه ـ كان أحمد بك يسرى ـ وابتسم اليه مسلما ، ثم قدمه الى زوجه وكريمته وعقب على التعريف به قائلا « ابن المرحوم كامل افندى على » فسلم عليهما فى غاية من الأدب وعاد الى جلسته ومس يد الفتاة يسرى فى جسده ، وسأله البك عن حاله فى الكلية فأجابه شاكرا ثم فرغ كل لحاله . ونظر الى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدم الى عضوين فى هيئة الجنس اللطيف العالية لأول مرة فى حياته . ومر عند ذاك نادل يحمل ألوانا من الشيكولاتة والمشروبات فود لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منها الى الأسرة ، ولكن لم يكن فى جيبه الا قروش ، فحنق على افلات هذه الفرصة منه ، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل !. ثم أطفئت الأنوار وعادت الحياة الى الشاشة ، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله اباء وجموحا . توكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة ، وذكر الساق العارية التى كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيللا . ترى أى أثر قد تركه فى نفسها ؟. وأى أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه « ابن المرحوم كامل افندى على » ؟ . كان

والده موظفا صغيرا ، وفضلا عن هذا فلا شك أن المرأتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعة تارة ليوظف حسين ، وتارة ليلحقه بالكلية الحربيـة ، وهيهـات أن يغيب عنهمـا حقيقة مسـتواه الاجتماعى . ولعـل الفتاة لم تر فيه الا صنيعة لمعروف والدها ، ولعلها قالت لنفسها انه لولا يد أبيها ما ارتدى ـ هو ـ بدلته ذات الشريط الأحمر !. كل هـذا محتمل ، بل هو مؤكد ، وقد التهب جبينه خجلا وسخطا . « لقد رأيت ساقك على الدراجة ، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة . لا توجد معجزات فى هذه الدنيا . ألست تنامين كأى فتاة ، وتغيبين عن الوجود كأى امرأة ، وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها لفقرنا ، وتعوين حين المخاض كأية كلبة ! » وحك أنفه بسبابته فجأة فتنسم شـذا لطيفا مما علق براحته عند السلام ، فيه اثارة للأعصاب ونفـاذ الى القلب كأنه السحر ، فأسكره عرفه وبث فى نفسه رضى وسلاما مسحا عن صـدره أدران الحنق والألم . ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابكة ذراعيها على صدرها ، وتمنى لو تريح ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفوا . ثم تخيل صورة وجهها الذى ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها ، بطولة المتلىء وعينيها السوداوين اللتين ينمان عن حيوية وخفة ، وهالة شعرها الأسود العميق السـواد ، وبشرتها النقية التى تزين وجنتها اليسرى شامة ، ثم راح يستحضر صورة بهية ، ويعرض الصورتين جنبا الى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته ، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية جمـال جامد وهذه جمال متحرك ، كأنما يبث فى النفس حرارة ويشيع فى الخيال حياة . وليس هذا فحسب فانها تمثلت لعينيه الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع اليها بشغف جنونى . لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . وبرغم نشوته الراهنة لم يخدع عن حقيقة شعوره ، ولم يتوهم انها تغلغلت فى قلبه حيث استكنت

بهية ، فهذه ـ على سلبيتها المطلقة ـ تقبض على جذور غرائزه وأعصابه ، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذى لا يقف عند حد ، ولعله عرف على ضوء عينيها جانبا من نفسه كان غامضا وهو أنه يؤثر فى أعماقه الطموح على السعادة والسلامة !. ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجىء فقال لنفسه « انى أحلم أحلاما سخيفة . ولكن ألا يحق لى أن أروح عن صدرى بالأحلام ؟ أليست الأحلام نفسها حلما ؟.. بلى ، انها حلم ، ولا يكدر صفوها الا شعورنا الوهمى بأنها حقيقة ! » . وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من تركيز انتباهه فى الشاشة ، ولكنه كان قد استنفد حيوية كبيرة فبدا المنظر متعبا مملا ، وتصبر عليه فى جهد حتى انتهى وأضيئت الأنوار . والتقت الأعين فحنى رأسه تحية ثم انخرط فى تيار الخارجين . وانفلت من الزحام فتمشى فى الطرق ساعة ثم استقل الترام الى شبرا . وأقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدها ، وزكمت أنفه رائحتها التى يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برما خابى العينين ..

٦٨

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسى على الختام . وفى ثلثه الأخير علم أن وزارة الحربية قررت تخريج دفعة الشباب مكتفية بعام دراسى واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق التى يلحقون بها ، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد اقرار المعاهدة . وضوعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلوا عليه مستبشرين متحمسين ، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون الى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطا بعد عام دراسى

واحد ، وكان آخر هؤلاء جميعا حسنين نفسه . ثم انتهى العام وتخرج الشاب ! . واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمزق شراعه ونفد طعامه اذ تكشف الضــباب لعينيه فجأة عن مرفأ آمن ، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول فى حرارة وايمان عميق « أنت وحدك يا ربى الذى أخذت بيدى ، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط فى ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شىء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك » . وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة فى حياتها وأخذت محنتها الطويلة تتراءى لعينيها الذابلتين فى هالة من الفخــار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة ، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر . وكانت تقتصــد من نقود حسين ونفيسة ما تعده لسداد مصروفات السنة التالية فأخذه حسنين ليهيىء به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التى تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة . ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد ألحق بسلاح الفرسان بالقــاهرة وتهيأ للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به ، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقق حلمه القديم وجعلت أمه تنظر اليه بعينين أذهلهما الفرح حتى شــذت عن المألوف من صمتها ورزانتها ، فهذا هو الابن المحبوب ، زهرة حياتها وأملها المنشــود . وقد قال لها مرة :

– اذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهدانى على صــهوة جوادى على رأس فرقة الفرسان !

فلم تتمالك أن قالت له :

– هذا اذا ابتعت لى معطفا يليق بالظهور فى الطريق الغاص بالمتفرجين !

فضحك الشاب قائلا :

- صبرك حتى أقبض مرتبى !

كانت أياما سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت . بيد أن الشاب كان يفكر فى أمور كثيرة ، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرق اليها الفساد ، فانتهز فرصة انفراده بأمه مرة - كانت نفيسة فى الخارج - وقال لها بصوت ينم عن الاهتمام الشديد :

- أماه ، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزرى فى الحال لأنه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خياطة .

فابتسمت الأم وقالت فى بساطة :

- سترحب بهذا بمجامع قلبها يا بنى ...

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهدا فى كآبة :

- ليتنا نستطيع أن نمحو الماضى من صفحة الوجود ! .. أخاف أن يعيرنا قوم بما كان ، وأنت أعلم بنفوس الناس ، وأكره ما أكره أن يترامى شىء من هذا الى أحد من زملائى فأفقد كرامتى بين أقرانى ...

فسرى اليها بعض همه ولكنها ربتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة :

- كنا فقراء ، وأكثر الناس فقراء ولا عيب فى هذا ...

فهز رأسه معترضا وقال فى أسى :

- كلام يقال ولكنه لن يغنى عنا شيئا وأنت أخبر بالنفوس!.

- لا أحب لك يا بنى أن تنغص عليك صفوك بأمثال هذه التخيلات !..

فاستدرك قائلا وكأنه لم يسمع قولها :

- هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا ، فلهذا لا أطيق البقاء فيها ...

وأشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسل :

- ستسوى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجل بجمل همها !

وحدجها بنظرة غريبة وغبطها فى نفسه على قوة أعصابها ، ولكنه سرعان ما تغيظ لعدم اكتراثها بالأخطار التى تتهول فى رأسه وقال بحدة :

- قد تسوى هذه الأمور مع الزمن حقا ولكن بعد أن تكون قد قضت على !

فلاحت فى عينى المرأة نظرة ارتياع وقالت له فى عتاب :

- أراك كعادتك نافد الصبر متعجلا للمتاعب ، ونصيحتى لك ألا تخلط أفراحك الحقيقية بأتراح وهمية لا أهمية لها ..

فقال باستنكار :

- لا أهمية لها ؟ !

- بلى لا أهمية لها !

- ماضى نفيسة وما يعرفه هذا الحى عنا لا أهمية له ؟

- اذا لم تأخذ نفسك بالايمان بهذا فلن تنعم بالسعادة أبدا .

فتنهد حسين قائلا :

- أود أن أسدل على الماضى ستارا كثيفا ..

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا ..

فالتهب الشاب غيظا وقال كمن ضاق صدره :

- لا أخاف شيئا كخوفى الصبر الذى تدعيننى اليه . انظرى الى هذه العطفة الحقيرة وهـذا البيت العـارى هل أستطيع أن أخفيهما الى الأبد عن أعين زملائى ؟ !

وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أن حياتها لن تخلو من هم وكدر . وقالت له بمرارة :

- خطوة خطوة ! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن ! !

فهز رأسه فى حزن وقال :

- ما أردت اغضابك يا أماه ولكنى أفكر هذه الأيام كثيرا فى المتاعب التى تتهددنا . وقد ذكرت الك بعضها ، ولعل ما بقى أدهى

وأمر . فانظرى مثلا الى أخى حسن وسيرته فى الحياة ! .. كيف نستقبل الحياة فى هدوء وحولنا هذه المتاعب ؟!

وتفرست فى وجهه بدهشة وكأنها تعجب لقدرته على اصطياد الهموم ، وتمتمت فيما يشبه اليأس :

ـ دع الخلق للخالق . كنا هكذا دائما فلم نهلك ولم يقض علينا .

فقال الشاب بانكار :

ـ لم أكن ضابطا أما الآن فقد أصبحت سمعتى مهددة !

وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت فى كرب شديد فتنهد حسنين قائلا :

ـ ينبغى أن يتغير كل شىء ، حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه !

ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء :

ـ انى أحب لنا ما تحب ولكنى أوصيك بالصبر وأحذرك عواقب ثورة لن تجدى الآن الا الحزن . تريد أن تمحو الماضى وتغير البيت وتنشىء مقبرة وتبدل أخاك من حال الى حال ، ولكن هيهات أن يتم لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل ؟ . طالما تمنيت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فاذا لم تروض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا !

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فأمسك عنه . ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الاقتناع أو القبول فخيل اليه أنها لا تشاركه آماله وعواطفه ، وأنه وحيد فى معركة الحياة أو الموت . ان نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف . ولن يحيد عن هدفه ، وليدافعن عن سعادته وآماله بكل ما أوتى من قوة ورغبة فى الحياة . ودق الباب عند ذاك ، وكان المساء يمد رواقه ، فحدس أنها نفيسة عائدة من عملها ، فهرع الى الباب فى تصميم جديد ..

٦٩

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام الا مبتسمة مستبشرة . واستبانت فى وجه أمها سهوما فاقتربت منها وقالت مداعبة :

ـ تخلى يا أماه عن هــذا الجد الذى لا داعى له فقد انتهت متاعبنا .

وردد حسنين قولها فى نفسه محزونا ، هــل حقا انتهت متاعبهم ؟ . ان ميزانية الجيش كلها لا تكفى لانهاء متاعبهم ! ثم رفع بصره اليها وقال بلهجة ذات معنى :

ـ آن لك أن تستريحى ..

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتعنى أن أترك مهنتى ؟

ـ نعم ...

ـ أتركها غير آسفة ، وسألزم بيتى كالهوانم ، ألست شقيقة ضابط ؟ !..

ولم يتمالك أن قال ساخرا :

ـ وشقيقة سى حسن أيضا !

فرددت عينيها بينه وبين أمها فى دهشة وتساءلت عما جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرة ، أما هو فسألها متهكما :

ـ ألا يسرك هذا ؟

وقالت الفتاة برقة وعطف :

ـ مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر ..

وتدارك الشاب قائلا :

ـ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا ، وعلم الله أنى أحبه ،

ولكن لا حيلة لى اذا قلت ان سلوكه فى الحياة ليس مما يشرف .

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحت فى عينيها نظرة زائغة ، وتخيلت أمورا فبردت أطرافهـا رعبا ، ثم خيـل اليها أنه يعنيها بالذات ، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت فى فتور :

ـ وأية أسرة تخلو من شيء من هذا القبيل !

فقال حسنين بامتعاض :

ـ ولكنه لا يوجد فى الأوساط المحترمة .

وركبها الضيق والقلق فرغبت فى الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت فى مرح متكلف :

ـ لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص ، بالله لا تكدر صفونا ، واعلم أنى صنعت لك صينية كنافة فدعنى أسخنها ولنأكل فى سلام !

وغادرت الحجرة الى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع فى قلبها خوف وقلق . انه يدعوها الى القبوع فى البيت أسوة بالنساء المحترمات ، وانها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سـبيل الى اصلاحه . وهي تستطيع اذا شاءت أن تنتحل لسلوكها الأعذار وأن تقول لنفسها انها انما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التى أقامت بها أود أسرتها فى أكلح ساعات حياتها ، وهذا حق ولكنه ليس الحق كله ، فهنالك أيضا الرغبة المعذبة واليأس القاتل . وكم ودت فى ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هى بموتها ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما . وعانت كثيرا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد ـ ان كان عزاء على الاطلاق ـ ان الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل . وكم تمزقها الحيرة الآن بين ماض تعيس ورغبة لا تسكت عنها . وحتى هـذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدرى ان كانت تستطيع حقا أن تخلص لها بعد ما كان ، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس ، وفيم تأخذ نفسها بصبر لا مطمع لأمل وراءه وليس لديها ما يصح المحافظة

عليه ؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممل للموت ؟ . لاتدرى ان كان بوسعها حقا أن تخلص للحياة الجديدة ، وأن تتعذب عذابا طويلا متصلا بعد أن خسرت كل شيء . انها تمقت الماضى وتخافه ولكنها تشد اليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاكا ، ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة ، كمن يسلم للسقوط من علو شاهق فى كابوس بعد أن أيس من اليقظة . وجعلت تنظر فى سهوم الى صفحة الكنافة الموردة حتى تخيلت نفسها فى الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها ، وفى تلك اللحظة بدت الحياة لها عابثة قاسية ، تعبث فى قسوة ، وتقسو فى عبث . فتساءلت «لماذا خلقنى الله ؟ » . ومع ذلك كانت تحب الحياة ، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها الا آيات على هذا الحب ، وكانت الى هذا كله تنتظر مع الغد موعدا لم تضمر النكوص عنه .

وحملت الصينية بخرقة بالية وعادت الى الحجرة فوضعتها على المكتب وهى تقول فى مرح وكأنها أنسيت أفكارها ومخاوفها .

ــ أقدم لك آخر كنافة من عرق جبينى ، وعليك وحدك منذ الآن أن تحلى ألسنتنا !

وأقبلوا على الكنافة بشهوة وقد تطهرت الأنفس من همومها ، وقالت الأم وهى تغرز أصابعها فى الصينية :

ــ ليت حسين كان معنا .

ولوح لها حسنين بأصبعه حتى ابتلع ما فى فيه ثم قال :

ــ آن لنا أن نسعى الى نقله الى القاهرة ، كان أحمد بك يسرى قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وها قد أوشك أن يمضى عامان على تعيينه فى طنطا .

كان يرغب فى معاشرة أخيه كعهدهما القديم ، وكان يأمل أن يجد فيه عونا على متاعبه ، وقد رحب الى هذا وذاك بفرصه تتيح له زيارة أحمد بك فى قصره .

٧٠

ذهب مع أصيل الغد الى ڤيللا أحمد بك يسرى وفى نيته أن يقدم له فروض الشكر لمناسبة تخرجه ثم يستشفعه لنقل أخيه الى مدرسة من مدارس القاهرة . وقد وقف البواب احتراما للضابط ثم قاده الى السلاملك ومضى الى الداخل لانباء البك بحضوره . وجلس حسنين على الكرسى الذى جلس عليه أكثر من مرة فى أوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وراح يسرح طرفه فى الحديقة . وجرى بصره فى المشى الطويل المتعرج الذى رأى الدراجة تقطعه فى مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه الرياضة ؟ . وابتسم للذكرى حينا ثم تساءل مرة أخرى أحقا جاء للشكر والشفاعة وحدهما ؟ ! وعاوده الابتسام . بيد أنه كان فى حيرة من أهدافه قلقا حيال البواعث التى تحركه ، مشفقا من الاساءة الى خطيبته ، ثم ذكر زيارته الأخيرة ـ ألتى أعقبت تخرجه ـ لبيت فريد افندى وكيف مرت فى أحاديث مملولة وشعور أليم بالحرمان ، حتى انه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته ، ذكر هذا فوجد من التذمر ما هو عليه احساس التأنيب الذى دب فى أعماقه لسروره بذكريات ڤيللا أحمد بك . ونفض عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التى تتوهج فى قلبه فى محيط هذه الڤيللا الرائعة فانثالت على مخيلته الأحلام ، ماض جديد وبيت جديد وقبر جديد وأهل جدد ومال موفور وحياة وضاءة لامعة . ومع أنه صار ضابطا ، ولعل كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، الا أنه أدرى الناس بقلبه ألذى يحترق لهفة على الحياة السامية النظيفة ، هذا القلب الذى أورده الجزع موارد القلق والسخط والشقاء ، ولبث على استسلامه للأحلام حتى عاد

البواب من الداخل وتنحى عن البـاب فى أدب وهمس « سعادة البك قادما » . ونهض حسنين ، ثم ظهر البك فى بدلته البيضاء والوردة الحمراء تزين عروته ، ولمـا رأى الشاب ألقى على بدلته العسكرية نظرة شاملة ثم قال ضاحكا :

ـ أهلا بالضابط .

وانحنى الشاب على يده مسلما وهم بالكلام ولكنه رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفى أثرها الفتاة . وأدرك أنه جاء فى وقت غير مناسب لغرضه لأن الأسرة متأهبة للخروج ، وقد توكد هذا لديه حين لمح السيارة تدور فى الممشى الواسع وتقف عند أسفل السلاملك منتظرة الذاهبين ، فما كان منه الا أن سلم على المرأتين وتأخر خطوتين قائلا :

ـ جئت لأقدم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة تخرجى ، وأرى أن أستأذن فى الانصراف الآن حتى لا أؤخركم .

ولكن البك قال :

ـ بل نجلس لنشرب ليمونا معـا . ما يزال أمامنا فسحة من الوقت ..

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاراه ليضبط أعصابه فلم يكن أبغض اليه من أن يتولاه الاضطراب أو الارتباك حيال البك وأنداده من علية القوم . وذهب البواب لاحضار الليمون أما البك فسأله برقة :

ـ أين كان تعيينك ؟

فقال حسنين بزهو مكتوم :

ـ سلاح الفرسان بالقاهرة .

ـ كنت من المتقدمين ؟

ـ الثامن ...

وهنأه الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان فى عزمه ـ لو قابل البك منفردا ـ أن يعدد أياديه على أسرته وما بذل من شـفاعة

محمودة له ولأخيه على أن يتدرج من الثناء الى عرض مسألة أخيه حسين ، ولكنه عدل عن هذا مصمما على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين ، وأمام الفتاة خاصة ، ولم ير ضيرا فى تأجيل مسألة شقيقه الى غد أو بعد غد على أن يحدث البك عنها فى مكتبه بالوزارة . وجاء خادم نوبى بأقداح الليمون ودار بها عليهم . وانتهز حسنين فرصة رفعه للقدح الى فمه فاسترق الى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فرآها وهى تحسو شرابها فى رفق ولطافة ، فلم يند عن زورها هذه الحركات العصبية التى يبعثها الازدراد العنيف ، وتمززت السائل فى رقة فانسكب فى هوادة وحياء ، وقد اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم للمسات النعاس ، وأعاد القدح الى الصينية ثملا بنشوة افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية . وتخيلها فجأة بين ذراعيه مستكينة مستنيمة فأصر على أسنانه . « ما هذا الجنون الذى ينبعث فى دمى ، ليس شهوة فحسب ، بل ليس شهوة على الاطلاق ، بهية أشهى منها وان كان يخجلنى الظهور معها أمام الناس ، ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو كامل وفتح مظفر ، هذه هى ! » . وانتبه من أفكاره على صوت أحمد بك وهو يسأل :

ـ كيف حال الأسرة ؟

فخطر له خاطر ظن أنه يرفع من كبريائه . وكانت الأكاذيب تنبعث فى نفسه أحيانا بوحى البديهة فقال بلا تردد :

ـ الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا القضية !

فتساءل البك :

ـ أى قضية ؟

فقال بثبات وثقة :

– قضيـة قديمة بين أمى وأخوالى على أوقاف وقد حكم لأمى بنصيبها كاملا !

فقال الرجل :

– مبارك .. مبارك ..

وشعر حسنين بارتياح وزهو ، ثم وقف وهو يقول :

– لقد أخرتكم وأنا آسف يا سعادة البك .

ونهضوا جميعا وهبطوا الى موقف السيارة ، وتمنى لو يدعوه الرجل الى الركوب معهم ، ولكنه مد له يده مودعا فسلم عليه وحنى رأسه تحية لأسرته ومضى الى الباب مسرعا . كانت الزيارة تبدو مخفقة لأنه لم يمس الموضوع الذى جاء من أجله ولكنه كان يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التى جادت بها البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأول الذى لن يؤثر فيه تأجيل يوم أو يومين ..

٧١

وقلب وجهه فى السماء ولما يبرح شارع طاهر فطالع فى صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن فى بيته اذا جازف بزيارته ؟ كان مصمما على مجابهته برأيه وان كان ضعيف الأمل فى اصلاح ما فسد من أمره ، ولكن تركيز أفكاره فى مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شىء حتى مناضلة حسن نفسه . ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنثنى ولكنه كان يحمل قلبا أثقله الهم والشك . واستقل الترام حتى ميدان الخازندار ثم اتجه الى شارع كلوت بك وقد تحول انتباهه الى بدلته العسكرية التى فرضت عليه الظروف — كانت أمه قد استغلت ملابسه القديمة فى أغراض جديدة كعادتها — أن يخترق

بها طرقا مريبة ! لم يكن الاختيـار بيده ، وكان يرى فى حسن مشكلة الأسرة المعقدة الأولى . لقد تخلت نفيسة عن مهنتها ، وسوف يهجر قريبا عطفة نصر الله بل وشبرا جميعا ، وربما أسدل ستار النسيان على الماضى البغيض كله ، فلم يبق الا حسن ، وهيهات أن يطمئن له جانب ما دام شقيقه مقارفا حياته الآثمة . وطالعته عطفة جندف فعرج اليها متجنبا الأنظار التى تطلعت اليه فى دهشة وقطعها مسرعا الى بيت أخيه ومرق اليه كالهارب مستقبلا الرائحة النتنة . وارتقى السلم الحلزونى ممتعضا ، ذاكرا فى ضيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام ، حتى وقف أمام باب الشقة فى شبه ظلام وطرق الباب . وفتح الباب عن وجه رجل غريب - وجه شائه من الوجوه التى لم تبرح ذاكرته منذ زيارته الأولى - وما أن وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه فى وجهه بسرعة غريبة وقد ندت عن فيه صرخة قائلة : « بوليس ! » فدهش الشاب ، ثم حدس ما هنالك فانزعج وأحس بخزى وألم لم يحس بمثلهما من قبل . ولبث متسمرا فى مكانه لا يدرى ماذا يفعل . وفكر فى العدول عن الزيارة ، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميما عنيدا على انجاز مهمته مهما كلفه الأمر . ليست المسألة لهوا وعبثا ؛ هى حياة أو موت ، ولن يستطيع السير فى حياته قدما ووراءه هذا البيت . وطرق الباب مرة أخرى ، وانتظر وهو يعلم بعبث الانتظار ، ثم أعاد الطرق بشدة . ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من احدى النوافذ ؟ وأراد أن ينادى أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التى يتمنى ألا تعرف أبدا ، ومع هذا فمن أدراه أن حسن لم يخبر أحدا بحقيقة شقيقيه ولو على سبيل الفخار ؟ ! وأصر على أسنانه فى خزى ويأس ، ولكن اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده

بعنف وصاح « يا حسن ، يا حسن ، أنا حسنين ! » . ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدا حسن خلفه يطالعه بعينين ذاهلتين . وبدا كمن يفيق من صدمة ، وثبت عليه بصره لحظات دون أن يتحرك ، ثم دبت فى عينيه يقظة ، وشاع فى نظرتهما الابتسام وهتف :

ـ حسنين ! .. ضابط ! .. لا أصدق عينى !

وشد على يده ، وربت بالأخرى على ذراعه ، وجذبه الى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية ، ثم سار به الى حجرة النوم وهو يقول :

ـ ضابط ! .. يا لها من مفاجأة ! .. مبارك مبارك .. هذا يوم سعيد ..

وجلس حسنين على الكنبة ، وأغلق حسن الباب ثم جاء فجلس الى جانبه ، وكان الشاب يبذل جهدا جبارا ليتغلب على اضطرابه ويتمالك أعصابه ، ونظر الى أخيه مبتسما وقال :

ـ انى أحق الناس بالتهنئة ولكنك أنت أحقهم بالشكر .

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفا بعد ما كان من انزعاجه وقال :

ـ علام أستحق الشكر ؟ ما أديت اليك الا بعض حقك عندى . دعنا من هذا وخبرنى عن حال الأسرة ، وكيف أمنا ونفيسة وما أخبار حسين ؟

وراح يحدثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام ، وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدرى الى سؤاله عما قطعه عنهم ، ولكنه أمسك عن السؤال فى اللحظة الأخيرة ذاكرا أن انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن وصاله شر ما يبتلون به وهو على هذه الحال ، ولما فرغ من حديثه قال حسن :

ـ الحق انى أحن اليهم كثيرا ولكن حياتى لم تعد تسمح لى باشباع هذا الحنين . نحن فى بلد واحد ولكنى فى الواقع كأنى

فى بلد بعيد منقطع عن العالم ، وربما خفف عنى الألم أحيانا أنهم لم يعودوا بحاجة الى وانى أديت بعض الواجب على . وفضلا عن هذا فلست تجدنى فى يسر متصل ، فقد يمتلىء جيبى بالنقود أياما ثم يفرغ أسابيع ، وفى حالة امتلائه تجدنى مضطرا للانفاق بغير وعى . لا عليك من هذا ، لقد أصبحت ضابطا فمبارك عليك حظك ولا يصح أن أخلط بفرحى شيئا آخر .. مبارك ياحضرة الضابط !

وجعل حسنين يصغى اليه وهو يتفرس فى وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغرابة كأنه يستهلك فى العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهالك أعواما طوالا . لقد انتهى حسن ، وشعر بانقباض وتشاؤم ، ويثقل المهمة التى جاء من أجلها . ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه ، وعزم على أن يتسلل الى هدفه برفق فابتسم وقال :

ـ أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتى !

ـ ابصق هذه العبارة من فيك !.. ما هذا القول يا حضرة الضابط ؟!

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنعا الدهشة :

ـ لقد فتح الباب لى رجل غريب ثم صرخ مرتعبا « بوليس » وأغلق الباب فى وجهى !

فقهقه حسن عاليا وقال :

ـ حصل سوء تفاهم نادر ولكنى عرفت صوتك فانتهى الأمر بخير ..

فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلا :

ـ وما الذى أخافه ؟

فألقى عليه نظرة كأنما تسائله أيجهل حقا أم يتجاهل ! ثم قال بعدم اكتراث :

ـ يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس !

فتساءل الشاب باشفاق :

- أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمثل هؤلاء ؟ !
فصمت حسن قليلا ثم قال :
- بلى ولكن الانسان ليس حرا فى اختيار أصحابه !
فقال بدهشة :
- كيف هذا يا أخى ؟ ! .. الانسان حر بلا شك فى اختيار أصحابه ...
فقال حسن بلهجة من يرغب فى تغيير مجرى الحديث :
- فلندع هذا جانبا ولنختر حديثا ألطف !
- لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئن عليك ...
فقال حسن ضاحكا :
- لا خوف على ، اطمئن !
- انى أعجب لما يدعوك الى مصادقة هؤلاء الأشرار ! .. أنت فنان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء .
وخفض حسن عينيه ليخفى نظرة التجهم التى لاحت فيهما . غضب الرجل ، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسنين لانفجر ، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى . أغضبه شعوره بأن أخاه يعلم من أمره أكثر مما يتظاهر به ، وانه يعامله معاملة الأطفال . ولو أنه صارحه بذات نفسه ، بل لو أنه وصفه بالشر كما وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن . وعزم على أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذى تكلم به قبل ذلك :
- انى واحد من هؤلاء الأشرار !
وفغر حسنين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء :
- حسنين اياك والتظاهر بالدهشة . لست غبيا ولست غبيا فيحسن بك أن تحدثنى بالصراحة التى تعودت أن تحدثنى بها دائما . ما وجه الغـرابة فى أن أكون شريرا ؟ ألم أكن طوال عمرى هكذا ؟ !

وخفض الشاب عينيه فى وجوم وخجل وتشتت منطقه فانعقد لسانه ، وارتاح الآخر لارتباكه فعاوده مرحه وأراد أن ينهى هذا الحديث المؤلم فقال :

ـ لا عليك من هذا ، ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه الصبيانى ما جرى الحديث بيننا هذا المجرى السخيف ، ولنعد الآن الى الأهم (ثم ضاحكا) لا شك أنك جئتنى لحديث آخر !

فجمع الشاب ما تشتت من أفكاره وقال متنهدا :

ـ الحقيقة أننى ما جئت الا لهذا الأمر !

فلاح الاستنكار فى وجه حسن وقال متهكما :

ـ حسبتك جئت تطلب نقودا !

وشعر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينثن عن عزمته فقال بلهجة رقيقة متوددا اليه :

ـ بفضلك السابق لم أعد فى حاجة الى نقود ولكن مهمتى الآن أجل من النقود ، انى أريد أن أطمئن عليك ..

فحدجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية :

ـ لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة ! .. أنك يا حضرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا على أنا !

فقال حسنين وهو يشعر بقهر وغيظ :

ـ هما شىء واحد ...

ـ حقا ؟ ! لا أرى رأيك أو دعنى أسألك لماذا لم توجه الى هذه النصيحة من قبل ؟ .. منذ عام مثلا ؟

لا يسعه ـ بعد أن قال له وهو لا يدرى انه انما جاء لهذا الأمر ـ أن يدعى أنه كان يجهله ، وركبه الضيق ، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلا :

ـ الا ترى وجه الخير لك فيما أريد ؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة :

ـ كنت قبل عام فى حاجة جنونية الى النقود فلم تهتم

بالنصح والارشاد أما الآن وقد أصبحت ضابطا فلا يهمك الا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة !

ومع أن وجه حسنين لم يتغير الا أن قلبه ماج بالغيظ والحنق وكأنما أهاجه أن يقرأ الآخر أعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة :

ــ أخى . . .

وأشار اليه الآخر أن يسكت فسكت ، ثم قال باستهانة :

ــ سأكون معك صريحا الى أبعد حد ، واذا كنت تسائل نفسك حقا عن عملى فانى أقول لك انى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيرا الى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة ، وبائع مخدرات

وهتف حسنين فى انزعاج :

ــ لا أصدق هذا ! .

فقال الرجل مبتسما فى هدوء :

ــ بل تصدقه كل التصديق ، ولعلك خمنته فيما مضى ، وها قد صح تخمينك ، فماذا ترى ؟ !

فرنا الشاب اليه صامتا فى اشفاق وألم ، حتى ضاق بصمته فقال محزونا :

ــ ليس أحب الى من أن تبدأ حياة جديدة شريفة !

فضحك حسن عاليا ثم قال بسخرية :

ــ بفضل حياتى غير الشريفة أمكننى أن أدفع عن أسرتنا غائلة الجوع ، وأن أزود أخاك حسين بما كان فى حاجة اليه كى يباشر عمله الحكومى ، وأن أهيىء لك قسط المصروفات الذى جعلك ضابطا والحمد لله .

ووخزه كلامه بمثل شك الابر فتراءت له الحياة ضيقة خانقة ، ولكن رغبته الحارة فى الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالهزيمة فقال :

ــ كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة فى ذاتها !

ـ لا تغالط نفسك . انهم يدعوننى بالروسى لا بالنبيل . ثم ما هى الحياة غير الشريفة ؟ ليس ثمة الا حيـــاة فحسب ، وكلنا يسعى للرزق ...

ـ توجد حياة آمنة ، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس ..

ـ هذا من عسف البوليس ، ولا ذنب لنا ، بالله خبرنى ماذا تريد على أن أعمل ؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحت له بارقة أمل :

ـ اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملا شريفا كسابق عهدك .

وانفجر الرجل ضاحكا وتساءل فى دهشة :

ـ صبى ميكانيكى ؟ ! .. هذا كمن يطلب اليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية !

وغلى حنق الشاب فى أعماقه مرة أخرى ، ولكنه تساءل فى هدوء وابتسام :

ـ ألا تدرى ما النهاية المحتومة لحياتك ؟

فقال متهكما فى بساطة :

ـ أن أسجن أو أقتل ! .. واذا قدر على أن أقتل أولا نجوت بطبيعة الحال من السجن !

فتظاهر بالضحك وما يزداد الا حنقا ، واشتد حنقه خاصة لاستهانته ، ومع أنه يئس منه أو كاد الا أنه استطرد قائلا :

ـ أرى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك ، فلست فى حاجة الى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة ، وانى أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة ..

فألقى عليـــه نظرة طويلة باســـمة كأنه يقول له « لا تحاول خداعى بتوددك » وقال :

ـ لا تخف على ، أستغفر الله ، أعنى لا تخف على نفسك أو سمعتك . لا تحمل نفسك هموما فارغة ، هبنى كشىء لم يكن ،

لا تكترث لما يقول الناس عنكم بسببى فانك تستطيع أن تحيا الحياة التى تروق لك على رغم كلام الناس ..

وتنهد حسنين فى ضيق وقنوط ، وحنق عليه فى تلك اللحظة حنقا أسود تمنى معه لو كان شيئا لم يكن حقا . ولكنه كائن ، ومسلط على رأسه كالسيف القاتل ، فما عسى أن يفعل ؟ وتنهد مرة أخرى وتساءل :

ـ أليس ثمة أمل فى أن تعود الى الحياة الشريفة ؟ .. أهذه كلمتك النهائية ؟ !

وغضب حسن ، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانتفض قائما وقطع الحجرة الصغيرة ذهابا وايابا مرتين مفرغا بخار غضبه فى حركاته العنيفة ، ثم استند الى حافة السرير ، وشبك ذراعيه على صدره ، وقال بلهجة من نفد صبره :

ـ حياة شريفة ، حياة شريفة ! لا تعد هذه العبارة على مسمعى فقد أسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ، أهذه هى الحياة الشريفة ؟ ! .. السجن أحب الى منها ! ولو أننى استمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة . أتحسب أن حياتى وحدها غير الشريفة ؟ ... يا لك من ضابط واهم ! ... حياتك أنت أيضا غير شريفة ، فهذه من تلك ، ولقد جعلت منك ضابطا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار الى الصورة) ، فأنت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات ، ومن العدل اذا كنت ترغب حقا فى أن أقلع عن حياتى الملوثة أن تهجر أنت أيضا حياتك الملوثة ، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معا ؟

واصفر وجه حسنين وغض بصره فى ذهول ويأس وقد امتلأ صدره غيظا وحقدا . وانفرجت شفتاه أكثر من مرة كأنه يهم بالكلام ولكنه كان يطبقهما فى تسليم اليائس . ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال :

- أرأيت انك تؤثر النجمة على الحيـاة الشريفة ؟ !! ولست ألومك فأنا مثلك أوثر رزقى على الحياة الشريفة (ثم ضاحكا) .. نحن شقيقان ويجرى فى عروقنا دم واحد !

ونهض حسنين عابسا وهو يقول :

- لا تسخر منى جزاء ما أوليتك من نصيحة !

ثم اتجه نحو باب الحجرة وهو يقول :

- أستودعك الله ...

ولما وضع يده على أكرة الباب سأله الآخر برقة مفاجئة :

- ألا تريد أن تسلم على ؟

فتحول اليه ومد له يده ، فشد عليها الآخر وأبقاها فى يده وهو يقول ضاحكا :

- يؤسفنى أننى أغضبتك . انس ما كان ولنبق كما كنا ولو على البعد . ستجدنى دائما « الروسى » الذى عهدته . ولا تنس أن تهدى سلامى الى أمنا ونفيسة . مع ألف سلامة ..

٧٢

وأطلع أمه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد كان صدره أضيق من أن يتسع لها وحده . واستمع لما جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب مغلق ، كان فى الحقيقة متجهما متشائما حاقدا . ولما كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبـل أن يبدأ عمله بالفرقة فقد خطر له أن يسافر الى طنطا للقاء حسين ، وعاوده شعوره القديم بالحاجة الى مشاورة أخيه فيما يلم به من أحداث . بيد أنه لم يقدم على تنفيذ فكرته وبدا كالمتردد ، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى الا فى شقة فريد افنـدى . ولكنه كان يذهب اليها ناشد عزاء لاملبيا شوقا ، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره

فحمل كآبته العامة مسئولية تغيره . ثم أخذ يستبين أن تغيره أعمق من أن يكون أثرا عارضا وقتيا ، وتساءل فى حيرة ألم يعد يحبها ؟!. عرض له هذا التساؤل أول ما عرض فى ضحى اليوم الذى جاء بعد زيارته لحسن بيومين ، وكان يجالس بهية على انفراد بحجرة الاستقبال على حين شغلت الأم بالمطبخ ، فجعل ينظر الى الفتاة متسائلا ألم يعد يحبها ؟! هى فتاته بجسمها وروحها ، ولم تزل مثار رغبة جامحة ولكن كأنه يرغب فى أن يولى عنه فيما يرغب أن يولى عنه من ماضيه جميعا . وتحير بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبه لها ! أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبها فى آن ؟ انه يجذب اليها بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة نصر الله وعطفة جندف . لم تعد الأمل الذى يرنو اليه ، وما هى الا لوثة فى دمه يبغى منها شفاء . وأدام النظر اليها حتى خال وجهها الهادىء المهذب عقابا مجسما فوجد وخزا فى قلبه ، وطرد أفكاره دون أن يبت فيها برأى وسمعها تقول له :

ـ لا تحملق فى هكذا ..

ـ ما ألذ أن يضمها الى صدره ويمطرها قبلا ! انه لا يدرى ما هو فاعل بها غدا ولكنه يأسى على طول حرمانه .

وقال مبتسما :

ـ انى أفكر فى تقبيلك قبلة حارة نبدأ بها حياة جديدة ..

ـ لا يحلو لك الا هذا الكلام !

ـ هل ثمة ما هو أحلى ؟

فترددت قليلا ثم خفضت عينيها قائلة :

ـ يوجد ما هو أهم !

وحدس ما تعنيه بلا تردد . وساوره قلق . ولكنه تجاهل ظنه متسائلا :

ـ أهم من القبلة ؟!

ـ أحب أن تحدثنى جادا ولو مرة ..

ـ ولكنى أود أن أقبلك جادا !

فتفكرت فيما يشبه الحة ، كأنما تغالب خطره ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت :

ـ ألا تدرى ماذا قالت أمى ؟

صدق حدسه !.. لابد مما ليس منه بد ! وتساءل متبالها :

ـ ماذا قالت ؟

فقالت بصوت منخفض وفى عناء من حياء :

ـ قالت لى لقد طال انتظارك ، وها قد صار ضابطا !

وأحس فى أعماقه بحنق حام كأنه سمع تجديفا ، ومع أنه كان يعلم بأنه ليس له حق فى حنقه الا أنه كره الأم فى تلك اللحظة . ثم تساءل :

ـ هل تتعجل الزواج ؟

فتضرج وجهها بالاحمرار وغمغمت :

ـ كلا ولكنها ترى أنه آن أن تعلن الخطبة .

ـ ألم يتم هذا !

فتحسست بنصر يمناها فى حياء وغمغمت :

ـ ثمة أمور لم تزل ناقصة ..

وفهم ما تشير اليه فى استياء لم يدر سببه . لم يكن ثمة شىء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعا وركبه شعور المطارد اذا تهدده خطر ، وتفـرس فى وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها فى الأوتوبيس وقال لنفسه «فتاة طيبة ولكنها ليست أهلا لأن تكون زوج ضابط مثلى ، ولو تم هذا الزواج لكان الأول من نوعه ! » ثم قال لها فى هدوء باسم :

ـ هذه أمور لا وزن لها ...

ـ ولكنها هامة جدا فى نظر الناس فطالما تساءل أقاربنا عن الخاتم !...

وعجب لحماسها ، وتمنى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس

فى الحب . « ولكنها تريد أن تتزوجنى لا أن تحبنى . هـذا سر برودها وتحفظها . واذا لم يكن حب ، بل وحب قهار جنونى ، فما الذى يغرينى بالزواج منها ؟! » وقال :

ــ لا داعى للعجلة ، ستتحقق آمالنا فى الوقت المناسب ...

ــ ومتى يكون هذا الوقت المناسب ؟

فقرب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال :

ــ أظن اذا رقيت الى رتبة الملازم أول أصبح فى وسعى أن أفتح بيتا مع معاونة أهلى الذين لا يستغنون عنى كما تعلمين ..

وبدا فى وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين . ومع أنه ارتاح لتصريحه الذى مد له فى حريته الا أنه رق لمنظرها ، وجرى بصره على جسمها فدق قلبه وتناسى أفكاره ومخاوفه وحنقه فنهض اليها وجلس الى جانبها على الكنبة ، ولكنها تباعدت الى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها . وقبض على ساعديها وهوى على كفيها يقبلهما ، حتى قامت مبتعدة عنه وهى تهتف :

ــ دعنى .. دعنى .. لم تعد كما كنت ..

وقام فى أعقابها مدفوعا بفورة احساسه وجنون أعصابه وطوقها بذراعيه وأطرافه ترتعش ، ودافعته بقوة فهوى بفيه الى شفتيها فأمالت رأسها الى الوراء فمست شفتاه طرف ذقنها ، ثم تملصت من ذراعيه ووقفا وجها لوجه وهما يلهثان ، وصاحت به بصوت متهدج :

ــ لا تهجم على غصبا !

وانقلبت شهوته غضبا فحدثته نفسه بهجرة الحجرة ، وسار خطوتين صوب الباب ، ثم تحول اليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فانقض عليها مصمما على أرواء عواطفه ، وطوقها بذراعيه رغم مدافعة يديها ، وضمها الى صدره بعنف ووحشية ،

ثم طبع شفتيه على شفتيها ، وكلما مالت بوجهها عنه أتبعها وجهه لازقا فاه بفيها ، ملاقيا دفعات مقاومتها بقوة وحشية ، حتى سكنت بين ذراعيه فى شبه اغماء . ولم يبال خورها فراح يضمها الى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذيه فتسرب الى احساسه فى ارتياح عميق كأنه كشف جديد عن لذة الحياة . وندت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحشيته ، وجن انفعالا وتطلعا واستزادة ، وانصهر قلبه وسرى ذوبه فى أعصابه باعثا لذة خيالية ، ثم انهار فى تسليم متوقع مفاجىء معا . وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفتيه على خدها ، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته فى صدره متراجعة وقالت وهى تتنهد فى صوت ضعيف :

ـ لن أصفح عنك ...

ولم يترك قولها فى نفسه أثرا ، لا حسنا ولا سيئا ، فلم يأبه لها وكأن احساسه تجاهل وجودها . شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليهما فتور فتراجع الى مقعده الأول وجلس عليه فى دهشة . ولبثت هى بموقفها كالمترددة ثم عادت الى مجلسها فى استياء وراحت تعاتبه وتعنفه دون أن يلقى اليها بالا . ورنا اليها بغرابة وساءل نفسه : أهذه هى ؟ أهذا أنا ، أين هى وأين أنا ؟ . ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر مما يحتمل ...

وجعل يصغى اليها دون أن يحمل نفسه مشقة الاعتذار ، وانتهز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم قام مستأذنا فى الانصراف . ولما غادر الشقة شعر برغبة فى الهرب ، وحينذاك عاودته فكرة السفر الى طنطا فابتسم لها فى ترحاب وحماس ..

٧٣

عندما انتهى الى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق بطنطا كانت الساعة حوالى الخامسة مساء وقاده غلام الى حجرة أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسما انتظارا للمفاجأة السارة . وفتح الباب وظهر حسين فى جلبابه ، وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة فأقبل على القادم وهو يهتف :

ـ حسنين !.. لا أصدق عينى !

وتعانقا عناقا حارا ، ثم دخلا الحجرة الصغيرة وحسين يلقى عليه نظرة متفحصة فى حب واعجاب ثم قال بصوت متهدج من التأثر والسرور :

ـ يا لها من مفاجأة سعيدة . أهكذا يهجم العسكريون بلا انذار ؟ مبارك . لقد أرسلت لك برقية تهنئة ...

ـ وصلتنى ورأيت أن أجيئك بنفسى شاكرا !

ـ وكيف حال نينة ونفيسة ؟

ـ على خير حال . وجدت لدى بضعة أيام اجازة قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك ...

ـ أحسنت صنعا . وحسن ؟ أما من جديد عنه ؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط باللقاء كدرا فقال :

ـ دعنا منه الآن على الأقل ..

وحدس حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة منه فى تأجيل النكد الى وقت آخر فدعاه الى الجلوس على الكرسى الوحيد ووثب هو الى الفراش . وتبادلا نظرات مشوقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرأ على الآخر من أمارات الصحة والعافية

وان كان وزن حسين قد زاد أكثر مما يتصور أخوه ، كذلك وجده قد ربى شاربه بطول شفته وعرضها مما أكسبه مظهر رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنه ، وقد داعبه قائلا :

ـ لقد خلقت لتكون أبا بارا ..

فابتسم حسين على ما أثار قوله فى نفسه من ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرا الى نجمة الضابط :

ـ انى فخور بك .

فقال حسنين بتأثر :

ـ انى مدين بها لنبل تضحيتك .

وهبط قوله على قلبه بردا وسلاما ، وتمتم :

ـ لا تبالغ ! أنت رجل جدير بكل خير ..

وقال حسنين لنفسه « هـذا شقيق لا يشين ، ولولا ماضى نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد انسان على الأرض أسعد منى » ثم قال لأخيه بسرور :

ـ أبشر لقد رجوت أحمد بك يسرى أن يسعى لنقلك الى القاهرة فوعدنى خيرا ..

ـ عفارم ! وبهذه المناسـبة أخبرك أننى سأعود معك الى القاهرة قائما باجازتى السنوية ..

ثم غادر الفراش وهو يقول :

ـ اغسل وجهك ونفض بدلتك من وعثاء السفر وهلم ننطلق الى المدينة فلا خير فى البقاء فى هذه الحجرة الضيقة ..

وارتدى بدلته ثم خرجا معا يتمشيان فى طرقات المدينة ، ثم مضى به الى قهوة السمر وجلسا معا يواصلان حديثهما . وتكلم حسين عن حياته فى طنطا كثيرا ، وشكا الى أخيه وحدته وكيف عودته على غشيان المقهى كل مساء فيمضى سـاعتين على الأقل مع نفر من الموظفين يلعبون النرد حينا ويسـمرون حينا آخر ، ثم يعود الى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم ، وحدثه عن

آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد المترجم عن الانجليزية وكيف أن النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . كان فى وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذى يعيش بين أحضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له ، وأسعده الأمل فى امكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التى أشرب حبها والايمان بها منذ طفولته.

ثم تساءل فى نفسه ترى هل أفضت أمه للشاب بالسر الذى دفعها الى زيارته منذ عام ونصف ؟ ولما لم يشر حسنين الى الموضوع بكلمة اطمأن الى أنها كتمت الأمر كله وهو ما ترجح لديه من بادىء الأمر . وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنه ذكرها بقلب خال هادىء لولا حنينه العام الى الرفيق والحب ما تشكى قط . ثم وجد نفسه وهو لا يدرى يسأل حسنين عن خطيبته ! وأجاب الشاب اجابة عامة قائلا : « بخير والحمد لله » ، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ على نفسه من تغير وتطور ؟ ولكنه جفل عن هذا ، وأجله الى المستقبل اذا جد جديد من الأمر . وكان يعلم سلفا بأن حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه . وتواصل الحديث بينهما طيبا لطيفا حتى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذى يشغله فقال متنهدا :

ــ تصور كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا حسن ..

وأحس حسين بما وراء هذا التنهد من حزن وسخط فقال ببساطة :

ــ أعتقد أن آلامنا قد انتهت ، أما ماضينا فليس فيه ما يخجل ، وأما حسن فلن يضروا أسفاه الا نفسه ..

فهز رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال فى حزن :

ــ أنا علمت أن حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيا وتاجر مخدرات ! ؟

ومع أن حسين كان يتخيل شقيقه الأكبر على أسوأ حال الا

انه لم يكن يظن أنه تردى الى هذا القرار ، فهتف فى ارتياع :

ـ لا تقل هذا .. !

فكان جواب حسنين على ارتياعه أن قص عليه ما شاهده فى زيارته الأخيرة لحسن وما سمع ، وأصغى اليه أخوه فى صمت ووجوم . ولما طال صمته سأله حسنين :

ـ ما رأيك ؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له : « ما حيلتنا ؟ .. » ثم غمغم :

ـ وا أسفاه ، كان حسن ضحية للمرحوم والدنا ، وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد !

فقال حسنين بجزع :

ـ ألا تستطيع اقناعه بالاقلاع عن أسلوب حياته ؟

فقال الآخر متنهدا :

ـ لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا . شىء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نهيىء له رأس مال مناسب كى يبدأ حياة جديدة ، فهل يسعنا هذا ؟ !

وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن فى حاجة الى جواب ، ثم قال حسنين بحدة :

ـ أنتركه فى غيه كى يقضى على آمالنا !

ـ لقد قضى على نفسه .

ـ وعلينا ! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ ؟!.. سوف تظهر أسماؤنا يوما فى الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات !

فتنهد حسين محزونا متفكرا فى كلام أخيه الذى رجع أصداء أفكار طالما أكريته فى وحدته ، ولكنه قال معارضا أخاه ونفسه معا :

ـ لا ذنب لنا . ولا يصح أن ندع الخوف يتهول فى قلوبنا . قد يصيبنا رشاش من ألسنة الناس ، الآن أو فيما بعد ، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة اذا لم ندرع بقدر من عدم المبالاة ...

بدا له حسين كأنه لا يعى ما يقول ، أو كأنه لا يبالى السمعة

الطيبة التى هى أس كل أمل فى الحياة بيد أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من أن يطلعوا على أسرار أسرته ، كذلك لا تنازعه نفسه الى المجد والطموح فليس فى آماله ما يخاف عليه ألسنة الناس . أجل أخطأ تقديره ولن يجد من أخيه مشاركة وجدانية ، وحنق عليه فى تلك اللحظة كثيراً ، واحتقر استسلامه وهدوءه . واندفع قائلا وكأنه لا يروم الا الترويح عن حنقه :

ـ هل نعد أنفسنا شرفاء ؟

فقال حسين بدهشة :

ـ ولم لا ؟ !

ـ ولكنا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة !

تطاير الشرر بغتة من عينى حسين ، وحملق فى وجه أخيه وهو صامت ، وكأن آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات ، ثم قال بحدة :

ـ كنا فى موقف دفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس قد يحل القتل .

وشعر حسنين بارتياح خفى لغضب أخيه ، وجعل يتساءل فى حيرة عما دفعه الى مجابهته بهذا التصريح الأليم . ثم استطال الصمت حتى سئما الموضوع فخاضا فى غيره ، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث ..

٧٤

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان معا الى القاهرة فكان يوم فى حياة الأسرة لا ينسى . وقبلت الأم حسين طويلا ثم عانقته نفيسة عناقا حارا ، وأمضى الشاب ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث

عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتتان . وجعلت نفيسة تتفرس في شاربه وبدانته الآخذة في النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار :

ـ فيم تبدو كالرجال وأنت طفل !

فقال حسين مبتسما :

ـ لم أعد طفلا .

وقال حسنين ضاحكا :

ـ نحن رجال وأنت أختنا « الكبرى » !

فقالت الفتاة بحدة :

ـ كنت أكبر كما فيما مضى أما من الآن فصاعدا فأنتما تكبرانني ، هل تفهمان ؟ !

ثم التفتت صوب أمها وساءلتها في اعتراض :

ـ هل يعجبك هذا الشارب الذي يكبر نفسه ويكبرنا معه بلا داع ؟ !

وكان الوقت ظهرا فراح حسين يخلع ملابسه ، وقد بدا البيت لعينيه غريبا . بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حنانا فملكه ارتياح شامل ، ارتياح من اهتدى الى مأواه بعد أن تخبط ضالا طويلا . وأجال طرفه في حجرة المذاكرة ، هذا المكتب القديم ، وهذين الكرسيين ، وهذه النافذة التي تقوم صفحة الجريدة منها مكان اللوح الزجاجي المحطم ، كل أولئك ذكريات عزيزة . أما سريره فلم يعد له أثر ، بيع في الوقت المناسب كالمتبع ، ولحق بسرير حسن ، وكأنه لم يعد من أهل البيت ! ومع أنه كان يحدس هذا بالبداهة الا أنه شعر بحزن وكآبة . وهنا شعر بنفيسة وهي تغادر الحجرة قائلة :

ـ أمهلاني ساعتين أعد لكما غداء طيبا !

وابتسم ارتياحا . انه لم يذق طعاما طيبا منذ عهد بعيد ، ربما منذ وفاة والده . أجل كان طعامه طيبا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه ، ولكنه لم يطلق

لشــهوته العنان قط . على أنه كان مشغولا بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة الى منبته الأول وجوه الأصلى : كان حنانه كالغنوة الحلوة يتردد فى حواسه جميعا ، حتى هواء عطفة نصر الله الفاســد وجد له ميل ألفــة ورقة مودة فكأنه الصحة والعافية . وجعل يحادث أمه وعيناه تترددان فى أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكتة حسنين المعلقة بالمشجب فنظر الى النجمة طويلا . سيرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصــير ضابطا عظيما على حين يبقى هو كاتبا فى الدرجة السابعة ـــ أو السادسة على أحسن فرض ـــ طوال مدة خدمته . على أنه لم يجد أى أثر لشعور الحسد أو الحنق ، كان أبعد ما يكون عن هذا ، بل كان سروره بأخيه لا يدانى ، ولكنه وجد نفسه يتأمل فى صمت حزين الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين ، وامتد خياله وهو لا يدرى الى الفوارق التى تفصل بين الناس عامة . ترى ألا يمكنه اذا نقل الى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليلى عسى أن يتغير من حال الى حال ؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كأمل احتياطى يلجأ اليه فى حينه فينجيه من مصــير كمصير حسان افندى حسان ! وحتى حســان افندى نفسه لم يكن ليرقى الى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدى ! وذكر عند ذاك أمورا سمع بها فى طنطا فساءل أخاه :

ـــ هل حقا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة ؟

فضحك حسنين قائلا :

ـــ غير مسموح للضباط بالاشتغال بالسياسة .

فضحك الشاب ، ثم قال :

ـــ كيف تسقط بعد أن نفض الانجليز أيديهم من سياستنا ؟

وتساءلت الأم :

ـــ أنعود مرة أخرى الى المظاهرات ؟

ـــ من يدرى ؟

فعادت تتساءل بقلق :

ـ لا شأن للجيش مع المظاهرات ؟

فقال حسنين بمكر :

ـ اذا قامت ثورة فلابد من تدخل الجيش !

وضحك حسين ، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شزراء وهزت منكبيها استهانة . وعادت نفيسة لتقول لهم ان الغداء يتهيأ على أحسن حال ، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم ، وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب من جبينها . وساد الصمت فعاد حسين الى أفكاره ، وفكر هذه المرة فى الاجازة وكيف يمضيها . كان الموظفون فى طنطا يدعونه باليهودى لأنه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد فى القهوة ، ولكنهم جهلوا حقيقة حاله ، أجل أنه ميال بطبعه الى الاقتصاد ولكن هل تركت مسئولياته له شيئا يقتصد ؟ ! . ولم تدعه أمه لأفكاره طويلا فعادت تنازعه الحديث ، وخيل اليه أنها ترنو اليه بحنو نادرا ما تعلنه ، ترى هل ذكرت كيف قست عليه يوما ؟ ! لقد قست عليه حقا ، ولكن قسوة الدهر عليهم جميعا كانت أعظم . ترى ماذا هى فاعلة مع حسنين ؟ .. ولكن لماذا لا يبدو الفتى متحمسا لزواجه ! لماذا لم يحدثه عنه ؟ ! . وحوالى الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء ، فوضعتها على المكتب وهى تقول :

ـ نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن يأكلوا على الأرض .

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين ، ثم عادوا الى جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث فى أنس وسرور . وحوالى منتصف الرابعة دق الباب الخارجى فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم . ووثب لرأس حسين خاطر عجيب ، أتكون أسرة فريد افندى قد جاءت لتهنىء العائد ؟ ! .. وفى هذه الساعة ؟

وعادت نفيسة جريا ووقفت على عتبة الحجرة وهى تنظر اليهم بعينين متسعتين تلوح فيهما الدهشة والانزعاج ، ثم هتفت قائلة :

ـ ضابط وعساكر ..

٧٥

ووقف الشقيقان فى دهشة وحسنين يتناول جاكتته ويرتديها بسرعة متسائلا :

ـ ماذا يريدون ؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين فقالت فجأة بذعر :

ـ رباه . . . لقد دخلوا الصالة .

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطا وشرطيين ورجلا آخر يبدو من مظهره أنه مخبر ، فتقدم حسنين من الضابط متسائلا :

ـ ماذا تريد حضرتك ؟

فقال له الضابط :

ـ لا مؤاخذة ، لدى أمر بتفتيش هذه الشقة !

وأطلعه على أمر كتابى فنظر فيه حسنين بعينين لا تريان شيئا ، على حين سأل حسين :

ـ لعلك أخطأت الشقة . ماذا يدعو لتفتيش بيتنا ؟

فقال الضابط :

ـ نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى !

ووجم الشابان وهما ينظران الى الضابط فى انزعاج وقنوط ، وكانت المرأتان تقفان على عتبة الحجرة فركبهما الذعر وتسمرتا فى مكانهما . وعاد الضابط يقول :

ـ لقد قبض على بعض شركائه ولكنه أختفى قبل القبض عليه ، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا من هذا بواسطة شيخ الحارة . . .

فقال حسنين بصوت متهدج :

ـ ولكنه لا يقيم هنا . لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا ندرى عنه شيئا .

فهز الضابط رأسه وقال :

ـ على أى حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر . .

وبدأ التفتيش فتراجع أحد الجنديين الى البـــاب واقتحم الضابط والآخران الحجرات ، وقد جمد الشقيقان فى موقفهما كأنهما استحالا حجرين . وقال حسنين لنفسه « سأذكر هذه الساعة ما حييت » ، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة الى حجرة ، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالى الحقير ظهرا لبطن . لم يكن تفتيشا عن حسن فحسب ، لأن حسن لا يمكن أن يختبىء فى درج المكتب أو تحت حشـية الفراش ، فالفضيحة أفظع مما يتصور . وحتى فى تلك اللحظـة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذى عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينيه المتفحصتين حقارة البيت وفقره ، وبلغ مسمعه ـ على ذهوله ـ صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره الى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية :

ـ اكتمى أنفاسك !

وانتهى التفتيش فأمر الضـابط رجاله بمغادرة الشـقة ثم اقترب من حسنين وقال برقة :

ـ أكرر الأسف . وانه ليسرنى أننى لم أعثر على شىء كان حريا بأن يسبب لكم المتاعب !

ورفع يده الى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفا وراءه سكونا محزنا . وتبادل الشابان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة ، وأقبلت

المرأتان نحوهما بوجهين ميتين . وانتبه حسنين من ذهوله بغتة متأوها فوثب الى الباب وأبرز رأسه راميا بطرفه الى فناء البيت فرأى رجال البوليس فى نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحداد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحا :

– الجميع يتفرج على فضيحتنا . افتضحنا وانتهينا .

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم الى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول ، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية . وجعل حسنين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول :

– بودى لو أقتل ! .. لن يروح عن صدرى أقل من القتل .

وضاقت الأم يعنفه بنفسه فغمغمت قائلة :

– هدىء من روعك يا بنى ، ماذا يجدى ضربك نفسك هكذا ؟

فصاح فى غضب :

– دعينى أقتل نفسى ما دمت لا أجد من أقتله !

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب :

– يجب أن نتدبر أمرنا فى هدوء .

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال :

– أى أمر نتدبره .. لقد افتضحنا وانتهينا !

– هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته ، فلنتدبر أمرنا .

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى الى حجرته وارتمى على فراشه ، وكان الخزى يخنقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتا قتالا ود معه لو يخفيه عنه الموت الى الأبد . واستسلم لخواطر دموية جنونية راح يجترها فى ذهول وهذيان ، ولحق به حسين فجلس على الكرسى صامتا متحاميا اثارته ، وكان هو نفسه فى حالة تستحق الرثاء . لم يبلغ منه الحزن يوما ما بلغه فى تلك الساعة ، فلم يغب عنه ما أصاب سمعتهم من طعنة قاتلة ،

وما يتهددهم من قلاقل فى الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده . ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله ؟!. وأخذت تتجمع فى ذاكرته ذكريات من آلام الماضى ويربطها بآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة فى الوقت الذى يظن به الاندمال والشفاء . وكعادته قرن آلام أسرته بآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزينا شاملا ، وكان يلقى على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيرا ما توحى بشىء من الصبر والعزاء . ثم نزعت به نفسه الى تلمس بصيص نور فى ظلامه المحيط ، وجعل يسترق النظر الى وجه أخيه المكفهر متحينا فرصة لمحادثته .

ولبثت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب . لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير والتدبير ، غلبت على أمرها . وقهرها الحزن والأسى . وكان قلبها يعانى الآلام التى تتوزع قلوب أبنائها جميعا يضاف اليها ألم خاص دفين يخيفها بقدر ما يعذبها ، وتشفق اشفاقا شديدا من ذيوعه وافتضاحه ، هو ألمها لحسن نفسه . أين ذهب ؟ ، ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه ؟ أى مصير يرصده ؟. لا ينبغى أن تذكر له الا عطفه وحنانه ، وانه جاد لهم بخير ما فى نفسه ، وأنه كان ملاذهم فى الملمات . يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب ، حتى أهله ينكرونه ويمقتونه . عين حسود أصابتهم ، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التى تركتها حطاما . وتنهدت فى عصبية لأنها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة :

ــ كفاك بكاء . ارحمينى فانى لا أجد من يرحمنى !

ولكن نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئا ، حتى آلام الموقف الحقيقية غابت عنها فى حالتها العصبية . غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص . ولم تكن تبكى حزنا أو أسفا أو غضبا ولكن بكاء هستيريا تغالب به خوفا لا يغلب خيل اليها معه أنها هى هى

المطاردة . وتوقع قلبها شرا فظيعا ، أفظع مما وقع ، فتلفتت فيما حولها فى ذعر كأنما تخشى أن ينقض عليها فجأة . وسمعت أمها تقول بصوت ضعيف « هلمى بنا اليهما » فرحبت بالدعوة لتفر من مشاعرها وسارت وراء أمها الى الحجرة فى خطوات ثقيلة ، ثم خفق قلبها وهى تجوز العتبة كأنما تجفل من لقاء أخويها ..

٧٦

ثم التفت حسنين الى حسين وسأله بوحشية :

ـ أين تظنه هرب ؟

وكانت مرت فترة من الوقت ثاب فيها حسين الى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال :

ـ من لى بأن أعلم ! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر انه أخونا !

ـ بعد هذا كله !

ـ نعم ، بعد هذا كله ...

نطقها بصوت عميق ليعزى قلبا يعلم أنه ـ على صمته ـ فى أمس حاجة الى العزاء ، ولكن ثارت ثائرة الآخر وصاح به :

ـ لقد قضى علينا ...

فقال حسين بصوت متعب :

ـ لا تبالغ ولا تصح . ينبغى أن تفكر فى هدوء .

ـ ان الحى كله يتحدث الآن عن فضيحتنا ..

فقال حسين فى هدوء :

ـ فى وسعنا أن نهجر الحى كله ...

فتطلع اليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن

بصيص أمل . هذا دعاء تهفو له نفســه ملبية وكأنها هى التى تتكلم ، وغمغم متسائلا :

ـ ماذا قلت ؟

ـ لم لا ؟ .. القـاهرة واسعة لا تحد ، وسيطوى النسيان قصتنا فى أقل من أسبوع ! ...

فتنهد حسنين فى شبه ارتياح ، ولكنه قال فى حذر :

ـ لن نمحو الماضى .

ـ فلنفكر فى المستقبل ..

ـ ولكن الماضى سيطارد المستقبل الى الأبد ..

فقال حسين بملل :

ـ فلنفكر جديا فى الانتقال الى مكان آخر . ويجب أن يتم هذا قبل انتهاء اجازتى ..

وقالت الأم برجاء :

ـ أجدر بنا أن نفكر فى هذا حقا ..

وردد حسنين نظره بينهما حائرا . قد يقبض على أخيه وقد لا يقبض عليه ولكنه سيظل على الحالين يطاردهم ويتهددهم . لن يطمئن لهم جانب وهو على قيد الحياة . ثم تساءل فى فتور :

ـ أين نذهب ؟

فقالت الأم فى أمل :

ـ الى شارع شبرا بعيدا عن هنا ..

فندت عنه حركة تنم عن الجزع والسخط وقال :

ـ أبعد من هذا ، أبعد من هذا .. الى مصر الجديدة !

فقال حسين فى شىء من الارتياح :

ـ كما تشاء ..

فلاح فى وجهه تردد طارىء ثم قال متنهدا :

ـ ولكننا فى حاجة ماسة الى أثاث جديد !

فقالت الأم بضيق :

— لاتزد الأمور تعقيدا ، ماذا يهم الأثاث اذا لم تقع عليه الأعين؟!
— لا أستطيع أن أخفى بيتنا عن أصدقائى الى الأبد !
فقال حسين :
— هذه مسألة أخرى ، وبوسعك أن تبتاع كنبة وكرسيين كبيرين وبساطا أسيوطيا فتجعل منها حجرة استقبال مؤقتة . واذا شئت خرجنا معا اليوم أو غدا للبحث عن شقة ؟..

بذلك خف التوتر قليلا وان غشيت جو المكان كآبة استسلموا لها جميعا فى صمت حتى دق الباب وجاء فريد افندى وأسرته . كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت فى أسوأ حال ، وذكر حسين فى عجب كيف حلم بها منذ ساعات ، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كسير ونفس فاترة . أما حسنين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر ، ولو لم يره فريد افندى ونفيسة تتقدمه الى حجرة الاستقبال ، لمضى هاربا الى الخارج . واجتمعوا فى حجرة الاستقبال ، ولقى حسين من الأسرة تحية حارة ، ثم استفاض الحديث عن الماضى والحاضر . وكانوا يتوقعون أن يثير الزوار مسألة التفتيش والبوليس ولكن آل فريد افندى تجاهلوا الأمر كلية كأنهم ما علموا به . ولم يلطف هذا التجاهل من حنق حسنين ، أو بالأحرى زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق فى كرامته . والتقت عيناه بعينى بهية أكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخف عنه بواعثهما منذ سفره المفاجىء الى طنطا . ليكن ، لقد ضاق صدره بهذا كله . الآن ، وفى وقدة حنقه وضيقه ، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة . لن تكون هذه المرأة حماته ، ولا هذا الرجل حماه ... ولا هذه الفتاة زوجه ! . كل أولئك هم عطفة نصر الله بلا زيادة ، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر . انهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعا ولكنهم يتكرمون عليهم بتجاهل الأمر ، ولعلهم يضيفون هذه المكرمة الجديدة الى مكرماتهم السابقة . سحقا لهم ، لشد مايضيق

صدره بالمكرمات قديمها وحديثها ، وانه ليتطلع الى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضى البغيض أسبابه بأسبابهم . « انظرى بحزن وحيرة كيف شئت ، لست لك ، لست لك . ينبغى أن يتغير كل شىء . ماذا فتننى فى هذا الجسم ؟! ألأنه لحم طرى ؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم . جو بغيض . لو طال المقام بى هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتى نفسها » . وطالت الزيارة فجعل يتحملها فى صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل . وقد دست الفتاة فى يده ورقة مطوية وهى تسلم عليه ، ولما أن خلا الى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة « قابلنى فوق السطح » . كانت أول رسالة توجهها اليه ، وتفحص الخط بعناية وغراية فوجده بخط الأطفال أشبه ، وذكر لتوه تعليمها الابتدائى!. بيد أنها كانت على ايجازها عميقة الدلالة حتى لكأنها صرخة استغاثة . ولا شك أنها كتبتها خلسة فى شقتها قبل الزيارة مما يدل على أن قلبها توجس خيفة من أن يواصل فراره منها الذى بدأه بالرحيل الى طنطا . وأحس بغمز الألم فى قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شىء حوله . ولكن فيم يسخط ؟ أليس من الخير أن تلم بما طرأ على نفسه ؟ وهل كان يظن أن الارتياب لن يتسرب الى نفسها بعد سفره المفاجىء ؟ ليكن . لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه ، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبيانى . وخاف أن يخلو الى نفسه أكثر مما خلا فمضى الى حجرته وقال مخاطبا أخاه :

ــ هلم بنا نخرج ...

ونهض حسين موافقا على دعوته وغادرا الحجرة معا . ووجد ما يشبه الندم ، وتمنى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تماما ، فلم يزل بوسعه أن يراجع نفسه ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، وواصل

سيره الى جانب أخيه . لعلها تنتظر الآن أمام حجرة الدجاج ! وخفق قلبه خفقة شديدة . تنتظر بلا أمل ؟ ما أقبح هذا . وفى نفس المكان الذى لمس حرارته وسمع بثه وشكواه ؟ ما أعجب هذا . وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف . ثم سمع أخاه وهو يخاطبه قائلا :

— لن نضيع وقتنا ، ولن ينقضى هـذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا الى البيت الجديد .

٧٧

وانقضت الأيام التالية فى البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا الى بيت بشـارع الزقازيق بمصر الجديدة ، ذى موقع سـاحر وايجار مستطاع على حد قول حسنين . وفى اليوم المحدد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لاخفائه عن أعين المستطلعين ، ونفذ ذلك ، ولبث حسنين فى الشـقة مع الأثاث المكوم على حين عاد حسين الى عطفة نصر الله ليصحب أمه وأخته الى المقام الجديد . وودعوا حيهم ليـلا غير آسفين ، بل مستبشرين خيرا ، ولما بلغوا الحى الجديد تولتهم دهشـة ممزوجة باكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر العمارات والفيللات المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقى فلم تتمالك نفيسة نفسها من أن تقول باسمة على رغم أن الموقف لم يخل من ذكريات حزينة « لقد صرنا من الطبقة العالية حقا » .

وكانت الشـقة الجديدة فى بيت مكون من دورين تحيط به حديقـة بسيطة فارتقوا اليهـا سلما ذا سبع درجات وهنالك وجـدوا حسنين فى انتظارهم وقد أشـعل المصباح الغازى . ونشطت المرأتان الى فرش الحجـرات الثلاث الصغيرة وعاونهما

الشابان فلم يستغرق تجهيز الشـــقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تخللتها فترة راحة . وبدت الكراسى والكنبتان والفراش غريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة ، ولم يفت حسنين التعليق على هذا بتذمر كالعادة ولكنه وجد بعض العزاء فى حجرة الاستقبال التى كانت تفتح على الخارج فلا يضطر القادم الى عبور الصـــالة الداخلية اليها . وتحدثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيلونه عن الجيران ، وتحدث حسنين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال :

ـ أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائى وخادم صغير فبغير هذين لا يصح أن نبقى هنا يوما واحدا . .

ولم يعترض على قوله أحـــد اذ كان مفهـــوما أنه هو الذى سيدخل النور الكهربائى ويستحضر الخادم . ثم فكر فى الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل فى نفسه ترى هل تصلح أمه وأختـــه لمخالطة هؤلاء القوم ؟ وخيـــل اليه أنه يسمع تعليقـــات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه الى رأسه وقال مخاطبا أمه فى لهجة تنم عن التحذير :

ـ لا ينبغى أن نعرف أحدا فى حينا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نزار . .

فقالت أمه بعدم اكتراث :

ـ لا رغبة لى فى معرفة أحد . .

وقالت نفيسة :

ـ لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه !

فقال لها الشاب بقلق :

ـ يا حبذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضا !

فاضطربت نفس الفتاة ، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجى» كان من أمانيها الا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائما ، ولا تفتأ تساق اليه بقوة بغيضة آسرة ، فتساءلت فى اشفاق :

- وهل أبقى حياتى سجينة ؟!

وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال :

- لا تغال يا أخى فى طلباتك ...

فقال الشاب فى حدة :

- لا أريد أن يزورنا أحد من حينا القديم ...

- لن يتجشم أحد زيارتنا فيما عدا فريد افندى وأسرته .

وصمت حسنين طاويا سخطه . وذكر زيارة التوديع التى قامت بها أسرة فريد افندى أمس ، وكيف عرفوا العنوان الجديد ، وكيف تمنى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يجد أثرا للماضى كله ، خيره وشره ! .. ترى هل أفضت الفتاة لوالديها بما تجد من فتوره ؟ .. ترى هل يفلت من هـذه العلاقة بيسر أم تنشب به متاعب لا يحلم بها ؟ ! . ليصمدن مهما يكن من الأمر ، الحرية والمجد فوق المتاعب جميعا . أجل لو تغلب على الماضى فسيتمتع بأشرف ما فى الحياة فى طمأنينة وسلام .

ثم انتحى حسين بالشاب ليوازن معه ميزانيتهما لما جد عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه « حجرة الاستقبال » الى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخادم . وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة . وخلت الأم الى نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث فى الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف الى هذا الحى الجديد ، فلم يستقر وعيها الا على شىء واحد ، هو حسن ! . ترى أين يهيم الفتى ؟ ماذا صنع الله به ؟ . لم تكن تخلو الى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم ...

هكذا باتوا أولى لياليهم بمصر الجديدة .

٧٨

ـ جئنا نهنىء بالبيت الجديد جعله الله مقاما سعيدا ..

قالتها أم بهية ثم جلست هى والفتاة على الكنبة الجديدة . كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التى غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة .

وأثنت أم بهية ثناء جميلا على المسكن الجديد وحيه الباهر ، وشكت الوحشة التى شعروا بها بعد فراقهم ، واعتذرت عن تغيب فريد افندى بانهماكه فى العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الاجازات . ثم جرى الحديث المألوف واشترك فيه حسنين كالمعتاد ولكنه كابد قلقا لم تخف عنه بواعثه وشعورا مؤلما بالحرج . وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة ، فصيحة بغير بيان ، فازدادت حاله توترا ـ ثم أعربت أم بهية فجأة عن رغبتها فى الانفراد بالأم ـ الأمر الذى زاده قلقا وتوترا ـ وما لبثا أن غادرا حجرة الاستقبال معا . ووجد حسين نفسه غريبا بين خطيبين فغادر الحجرة منتحلا بعض الأعذار ، وخلا الجو ، وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بحال . وكان يعرف بداهة ما دعا أم بهية الى الانفراد بأمه ، فأدرك أن الساعة الفاصلة فى حياته قد دقت ، فاما النجاة واما الهلاك . وتبادلا نظرة طويلة ، هى فى انكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها . ولم تلبث أن سألته مستنكرة :

ـ لماذا لا تزورنا ؟

فقال واجما :

ـ أسباب لا تخفى عليك تمنعنى من الظهور فى حينا القديم !

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله :

ـ لم لم تقابلنى فوق السطح بعد أن تركت الورقة فى يدك ؟

- كنت وأخى مرتبطين بموعد هام .

فتساءلت بلهجة وشت بحزنها :

- وسفرك المفاجىء الى طنطا دون أن تخبرنى ؟

فقال وهو يتحاشى عينيها :

- اضطررت الى السفر فجأة ..

فهتفت فى انفعال :

- لم تعد تبالى حتى باختلاق الأعذار المعقولة !

ان الموقف دقيق حقا ، بل أليم ، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة اليه ، ولن يتهاون فى حق حريته ومستقبله وتنهد متظاهرا بالحزن وغمغم قائلا :

- ان ظروفى أعقد من أن تقدريها ..

- أفصح عما تريد قوله . لا أفهم شيئا الا أنك تغيرت . لم تعد كما كنت . لست غبية ولا حمقاء ، أنت لا تريد أن ترانى ..

- سامحك الله ...

ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت فى تألم ظاهر :

- لا تلق الى بهذه العبارات المبهمة . أريد أن أفهم كل شىء . ماذا بك ؟ .. لماذا تغيرت هكذا ؟ صارحنى بما فى ضميرك كله ..

وحال تشبثه بالنجاة والفرار دون احساسه بما فى كلماتها من يأس وعذاب فقال :

- لم أتغير ولكن ظروفى تغيرت ..

فقالت باستغراب :

- تغيرت ظروفك حقا ولكن الى أحسن !

- هذا فى الظاهر فقط أما الحقيقة فهى أننى بت أدرك مسئولياتى الشاقة .

فقالت بلهجة لا تخلو من غيظ :

- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل ؟ .. ان مسئولياتك جميعا لا تحول بينك وبين ما تريد اذا كنت تريده حقا !

- أريد ولا أستطيع .

فرنت اليه شاحبة الوجه وغمغمت :

- بل تستطيع ولا تريد .

ولم يجد ما يقوله ، وتضاعف احساسه بعذاب الموقف ، ومع ذلك ازداد تصلبا وتشبثا فتمتم :

- أنت مخطئة .

وكانت تتفحصه فى جزع ويأس وكأنها تريد أن تنفذ الى أعماقه ، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت :

- كلا ، لست مخطئة . لو كنت تريد حقا لما قلت لا أستطيع . ان هى الا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبنى وتريد أن تتخلص منى . هل ثمة سبب آخر !

ومع أن هذا ما كان يؤمن به فى أعماقه الا أن سماعه هاله واكربه فرفع حاجبيه منكرا وقال :

- لشد ما تظلميننى !

ولم تسكن لهجته خاطرها ، أو بالحرى مكنت لقبضة اليأس من عنقها . وزاد احساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت :

- أنت الظالم ، لقد خطبتنى ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص منى ..

وتحامى عينيها فنظر الى الأرض . كان متحرجا متألما ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال :

- ان ظروفى أقسى من أن تدركيها على حقيقتها . أمامى صبر طويل ..

ورقت لهجتها فجأة وقد تورد وجهها وقالت برجاء :

- اذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعى أن أشاركك الصبر !

فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال :

- انه صبر طويل ..

فقالت باللهجة نفسها :

ـ لا بأس ، الا أننى أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق المعهودة .

وذهل حيال انقلاب الحديث الى هذا المجرى بعد أن أوشك أن ينقطع ، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدرى :

ـ كلا ! !

وجعلت تحملق فى وجهه فى ذهول ، ثم خفضت عينيهـا فى يأس ، واحمر وجهها خجلا . وحركت شفتيها مرة ومرة كأنهـا تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت :

ـ أرأيت أننى كنت على حق لما قلت لك انك تريد أن تتخلص منى ؟ . . .

وبلغ منه الارتباك مبلغا لم يعهـده من قبل ، ولاذ بالصمت مليا ، ثم قال كالمعتذر :

ـ انى جد حزين ، ربما أقمت لى العذر يوما .

فقالت فى اعياء وقهر :

ـ حسبك ، لا أريد سماع كلمة أخرى .

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس اليأس الخانقة ، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لونا من الراحة ، فمهما يطل هـذا العذاب فلا بد أن ينتهى ، وهنالك يجـد نفسـه حرا طليقا. وتساءل وهو يسترق اليها نظرة ترى ماذا يدور فى رأسها ؟ ألا زالت تريده ؟ أم كرهته ؟ أم تتمنى الانتقام منه ؟ لشد ما أحبها عهدا طويلا ، ولـكن هكذا انتهى كل شىء . وتسـاءل ترى فيم تتحادث الأمان ؟ وعلام انتهى الحديث الذى طال ؟ ثم قال لنفسـه : « ان مصيرى يتقرر بيدى لا بيد أخرى » . ثم ترامى اليه صوت المرأتين وهما تتكلمان قادمتين فخفق قلبه واستحوذ عليـه قلق مفاجىء . وعادتا الى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما الرضا ـ مما ضاعف قلقه ـ ثم دق الباب وكانت القادمة نفيسة ، ورجع حسين الى الحجرة ، فوجد حسنين فى المحيطين به ما انتزعه من أفـكاره

ورد اليه شيئا من هدوئه . ومع أن بهية بدت على حال من الوجوم لا تخفى الا أن الحديث لم يشذ عن المألوف حتى انتهت الزيارة ...

٧٩

ونظر حسنين صوب أمه فى قلق متسائلا فأدركت أنه يسأل عما دار بينها وبين أم بهية ، ونظرت اليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت :

ـ حدثتنى ست أم بهية عن وجوب اعلان الخطبة بصفة رسمية ، ووافقتها فى النهاية على رأيها ..

وقطب الشاب فى حنق وضرب يدا بالأخرى وهتف بها :

ـ تسرعت يا أماه !

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول :

ـ لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكننى فسخت الخطبة !

وحدقت به الأعين التى تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم :

ـ ماذا تقول ؟

فقال ضاغطا على مخارج الألفاظ :

ـ لقد فسخت الخطبة اليوم ، الآن ، وغادرتنا بهية وهى تعلم أن كل شىء بيننا قد انتهى .

وصاح حسين منزعجا :

ـ ماذا تقول يا أخى ؟ ... كيف حدث هذا ؟ !

وقالت الأم :

ـ انك تحيرنى بتصريحك هذا ، ولست أفهم شيئا ! هل وقع بينكما خلاف بغتة ؟ .. متى ؟ وكيف ؟

وكانت نفيسة آخذة فى خلع حذائها فأمسكت وقالت :

- تكلم يا حسنين . هذا خبر لم يتوقعه أحد !

فقال الشاب بوجوم :

- الواقع أننى عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكننى لم أشأ أن أخبر أحدا ، واليوم حين انفردت بها فى هذه الحجرة لم أجد معدى عن اعلان نيتى فانتهى كل شىء . أرجو الا يسألنى أحد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعنى أحدا سواى .

فقال حسين باهتمام وأسف :

- كان موقفا قاسيا على الفتاة بلا شك ، وأرجو أن يكون لديك من الأسباب ما يبرز الاقدام على هذه الخطوة الفظيعة ..

وقالت الأم المنزعجة :

- يا للفضيحة ! ... لقد تم الاتفاق بينى وبين الأم فى نفس الوقت الذى كنت تهدم فيه ما نبنى ، فما عسى أن تظن بى المرأة ؟ . ألا يمكن أن تشك فى أننى كنت أخادعها وأنا أعلم بنواياك ؟ ... ماذا فعلت يا بنى ؟ ... ما سبب هذا كله ؟ ... وماذا يعيب الشابة ؟ !

وضاقت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة :

- دعونا نسمع صاحب الشأن ...

وقال حسنين مخاطبا أمه :

- بهية شابة لا غبار عليها ، ولكن تبين لى بوضوح انها ليست الزوجة التى أطمح اليها ...

فقالت الأم :

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع !

وهز حسين رأسه مؤمنا على قول أمه ثم قال :

- هذا حق . ان فسخ خطبة أمر فظيع . ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع !

وتساءلت نفيسة باهتمام :

- كيف تبين لك انها ليست الزوجة التى تطمح اليها ؟ ... دعوه يتكلم ...

فقال حسنين بضيق :

- لا ريب أن بهية لا تصلح زوجة لى . حقا لقد خطبتها بنفسى ولكنى لم أكن أدرك هذه الحقيقة وقتذاك ...

فقالت الأم بقلق :

- بهية فتاة جميلة ومؤدبة ، ولأبيها فضل علينا لا ينسى ..

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء :

- انى أعجب لحكمك هذا . ما هى الزوجة الصالحة فى نظرك ؟

فصمت حسنين قليلا ثم قال :

- أريد زوجة من وسط أرقى ، مثقفة ، وعلى شىء من الثراء ...

فتساءل حسين بنفس اللهجة :

- أهذه هى الأسباب التى جعلتك تنكث بعهدك ؟ !

فقال حسنين متنهدا :

- نحن فقراء ، وبهية فى حكم الفقراء كذلك ، وأخاف اذا مت قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن أترك أبنائى لقساوة الحاجة كما تركنا ...

وهتفت نفيسة قائلة بحماس :

- صدقت !!

فغضب حسين لحماس أخته وسأله :

- هل قدرت خطورة الخطوة التى أقدمت عليها ؟

فقال حسنين بحزن :

- لشد ما حز فى نفسى الأسف ولكننى لم أوافق على ضياع حياتى ! ...

- وتوافق على ضياع حياتها ؟ !

- لن تضيع حياتها . لا زالت فى عنفوان الشباب ، والمستقبل أمامها باهر .

فتساءل حسين فى حنق :

- هل تسمح لى بأن أصف لك سلوكك ؟

فنظر اليه فى وجوم ولم ينبس بكلمة فهز حسين رأسه فى انزعاج وتساءل :

- انى أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأعذار ما ليس لك !

وامتقع وجه الشاب وقال بحدة :

- لا أشك أن سلوكى لم يخل من قسوة ولكنه سينتهى بخير بالنسبة لى ولها ، وهو على أية حال أفضل من زواج غير موفق ..

وأعرض الشاب عنه يائسا ، وضربت الأم كفا بكف وهى تتمتم :

- يا لها من اساءة شديدة لأطيب الناس طرا ، رباه كيف أخفى وجهى !

ومع أنها كانت صادقة فيما تقول الا أن أعماقها لم تخل من ارتياح خفى . وقد كانت تشفق من أن يبادر حسنين الى الزواج فتعود الأسرة الى الترنح والقلق ، وكانت ترمق نفيسة دائما بعين الخوف متسائلة فى حزن عن المستقبل القريب والبعيد . ولكن اذا كان هذا حقا لا شك فيه فحق كذلك ما تجد حيال أسرة فريد افندى من أسباب الخجل والألم . أما نفيسة فلم تكن تحسن اخفاء عواطفها فقالت :

- لا خوف على بهية ، ستتزوج اليوم أو غدا .

فقال حسين بامتعاض :

- هذا الكلام يصدق على كل فتاة ولكنه لا يصلح دفاعا عن خطئنا ..

فقالت نفيسة متهكمة :

- لا يصدق على كل فتاة ! .. والدليل على ذلك أنه لا يصدق على أخت حضرتك !

وخفف تهكمها من التوتر العام ، وانتهز حسنين الفرصة فقال بلهجة دب فيها الحماس :

- أليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاص ككريمة أحمد بك يسرى مثلا :

وقالت نفيسة بمرح :

- وما هذا على الله بكثير . من يدرى لعلنا نراك يوما فى ڤيللا محترمة وتتدفق علينا خيراتك يوما بعد يوم ..

ولم يلق حسين اليهما بالا ، وقالت الأم وكأنها تحدث نفسها :

- سيعلم فريد افندى بالخبر هذا المساء . ما عسى أن يقول عنا ؟ ! .. ليتنى أجد الشجاعة لأزورهم واعتذر اليهم !

ففكر حسين طويلا ثم تمتم بهدوء وحزم :

- لا تنقصنى أنا هذه الشجاعة .

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام ، وسألته نفيسة :

- أتذهب حقا ؟ .. وما عسى أن تقول لهم ؟

فقال الشاب مقطبا :

- أقول ما يفتح الله به على . رباه ، لا شك أن فى دمنا شيئا نجسا ...

ومضى يرتدى ملابسه ، ثم غادر الشقة ...

٨٠

لم يقصد غايته رأسا ولكنه مضى الى مشرب شاى بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلب الأمر على وجوهه ويعد له عدته . سرح خياله بين ذكريات الماضى وحوادث الحاضر ، وساءل عقله طويلا وساءل قلبه ، ثم قر فكره على رأى . وكان فى تفكيره جريئا حازما قاطعا على غير عادته ، فلم تعترضه الصعوبات ولم تثبطه المخاوف ، حتى

عجب للسرعة التى بت بها فى الأمر وتساءل فى دهشة « ترى أهى من وحى الساعة أم أثر لما تجمع فى نفسى خلال ثلاث سنوات ؟ » . واستحوذ عليه شىء من الاضطراب ، وعاد يسأل نفسه ، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لتثنيه عما عقد العزم عليه . وقام من مجلسه تعتلج فى صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة ، ثم اتخذ سبيله الى عطفة نصر الله فبلغها فى أول الليل . ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف ، ولكنه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثنى . ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم ، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه ، ثم قادته الى حجرة الاستقبال . وما عتم أن جاء فريد افندى بجسمه المترهل فرآه لأول مرة مكفهر الوجه ، يتوهج الغضب فى نظرة عينيه . وما كاد الرجل يفرغ من مجاملات السلام ويستقر على مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديدين :

ـ عشرة العمر كله ، وجيرة العمر كله ، وصداقة العمر كله ، تمزقونها جميعا فى دقيقة واحدة !

فنظر حسين الى الخوان أمامه فى ارتباك وتمتم بصوت منخفض:

ـ ان ما بيننا من ود قديم لا يمكن أن يتغير ، وان ننس لا ننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيينا . . .

فلم يعره الرجل التفاتا وضرب كفا على كف وهو يقول :

ـ لم أدر حين خبرونى كيف أصدق أذنى . ان طبيعة قلبى تأبى أن تصدق هذا الغدر الشائن . . .

ـ انى عاذرك يا سيدى . وصدقنى أننا لم نكن أدنى لتصديقه منك ، حتى اننى تركت أمى فى حال يرثى لها . . .

وتابع الرجل حديثه دون اهتمام بما قال :

ـ كنت ألاحظ أنه يتثاقل عن زيارتنا ، وقيل لى فى تفسير ذلك أعذار صبيانية زادتنى تشاؤما ، حتى علمت هذا المساء بأنه

جاهر بنكث عهده ، . ما شاء الله ، هل حسب بنات الناس ألعوبة يلهو بها على هواه ، يخطب حين تحلو له الخطبة ، ويفسخ حين يطيب له الفسخ ؟ ! . . . لقد عاملته كابنى ولم يدر لى بخلد انه يطوى صدره على قلب بهذا الخبث والغدر . . .

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما اتفق :

ـ أخى فتى طائش وقد أضاعت حادثة حسن صوابه .

فتساءل الرجل فى انكار :

ـ وما ذنبنا نحن ؟ . . هذا عذر غير مفهوم !

ـ أقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعا .

فلوح الرجل بيده فى عنف وقال ساخطا :

ـ كلام غير مقنع . انى رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر بخطيبته لمثل هذا السبب . قل غير هـذا الكلام اذا شئت أن أصدقك . قل انه صار ضابط وبات يطمع فى نوع آخر من النساء .

فقال حسين بلهجة حزينة :

ـ وددت بحياتى لو أصلح الأمر .

ـ فسد الأمر ولا صلاح له . انه عبث لا يليق بالشرفاء ، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته ، ولكنى أحمد الله على ما كشف لى من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلا . ما هو الا شاب نذل جبان ، ولا تؤاخذنى على قول الحق . . .

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعا أليما فخفض بصره مليا ثم قال بصوت ضعيف :

ـ انى جد آسف ، بل كلنا آسفون ، ولا مطمع لنا الآن الا الابقاء على الود القديم . .

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفتور :

ـ ما عهدنا منكم شرا . . .

وشعر حسين بقلق وتوتر ، وذكر ما انتهى اليه رأيه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الاقدام على الافصاح ؟ ! ... ومع أنه لم يجد من الجواب مشجعا الا أنه أبى التراجع أو التأجيل ، ونظر الى الرجل بعينين حذرتين وتساءل :

ـ هل أستطيع أن أقابل الآنسة بهية ؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه :

ـ ما الداعى لهذا ؟ ... فلندعها وحدها ، هذا خير ما يفعل !

وغلب التأثر الشاب . ترى ماذا تفعل المسكينة ؟ وماذا أحدثت الصدمة بنفسها الرقيقة ؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم ينكص ؟ ألا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا ! ولكنه شعر شعورا خفيا بأنه اذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا ، وتنهد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يدارى بها اضطرابه :

ـ سيدى ، لا أدرى كيف أعرب عما فى نفسى ، ولست أزعم أنى اخترت وقتا مناسبا ! ولكننى لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعنى الى قول كلمة أخيرة وهى أننى أرجو أن تبارك يوما رغبتى الصادقة فى طلب يد الآنسة بهية !

واتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شىء الا هذا ، ولعله أراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه . أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مستردا بعض هدوئه :

ـ لا تحسبن أن ما يدفعنى الى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخى من خجل ، أو ما عسى أن تتصوره عطفا على حال الآنسة . كلا ، وأقسم على هذا . انها رغبة قائمة بذاتها ، منبعثة أولا وآخرا من تقديرى لكريمتكم ولكم .

وواصل فريد افندى دهشته الصامتة على حين استمد

حسين من انطلاق لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلا :

ــ شيء واحد يحرجنى فى هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أننى غير كفء لها .

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتما :

ــ لا تقلل من شأنك يا حسين أفندى ، أنت عندى بمنزلة الابن ..

فقال حسين وقد تورد وجهه :

ــ شكرا ..

وتفكر الرجل قليلا كالحائر ثم قال :

ــ لا يسعنى الا شكرك على رغبتك هذه ، ويسرنى ــ علم الله ــ أن تتحقق ولكنك تدرك طبعا أن وقت التحدث بشأنها لم يئن بعد ؟! ...

فقال حسين بحماس :

ــ هذا طبيعى جدا يا سيدى ، وبوسعى أن أمد .. أعنى أن انتظر حتى يجيء الوقت المناسب ...

وانتهى الحديث عند هذا الحد ...

٨١

وعاد الى مصر الجديدة غارقا فى أفكاره فلم يكد يرى شيئا من الطريق ، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل فى مشرب الشاى قبل أن يتجه الى بيت فريد أفندى . وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلهما طيلة حياته . لقد أحب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يترعرع ويزدهر ، ولم يبق منها فى قلبه الحكيم الوافى الا المثال الذى يحلم به للزوجة الصالحة ، وأنه يذكر أنه تألم كثيرا وصبر كثيرا ، فتعلم

انه بشيء من الحكمة يمكن أن يعثر فى دنيا الألم على مسرات عالية ، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر ، وكان يقول لنفسه متعزيا ان مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح . سرور ينبغى أن يعد من حسن الحظ .. وهكذا تعزى ونسى من زمن طويل . ولما أن تفتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسى أنه كان ينسى وأزهر الحب فى قلبه كأن ثائرته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان . وانطلق فى سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت . ووجد الجميع فى انتظاره فما أن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به :

- ماذا لقيت ؟!

ورأى أن يمهد للخبر العجيب الذى يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهز رأسه أسفا :

- وجدتهم على حال من التأثر انزويت لها خجلا وخزيا ، ولأول مرة فى حياتى رأيت فريد افندى الرجـــل الوديع ثائرا غاضبا كاسرا ...

وسألته الأم بحسرة :

- خبرنى عما حصل كله . ألم تقابلك أم بهية ؟

- كلا ، قابلنى الرجل وحده وقبل أن أفتح فمى بكلمة انهال علينا تأنيبا وتقريعا ..

وأعاد عليهم كلام الرجل - فيما عدا الكلمات القارصـــة - مضيفا عليها من عنده ألوانامن التأثر والحزن ليستثيرالمهم ويستدر عطفهم حتى ملأهم الوجوم والخجل ، الا نفيسة فقد قالت :

- ما كان ينبغى أن تلقاه الليلة . وعلى أية حال فالخطأ الأول ينصب على من يقبل تلميذا صغيرا كخطيب لابنته فضلا عن أن يكون هو السـاعى بحيله الى عقد الخطبة . ولا أجـد حسنين مستحقا للوم فقد كان تلميذا كما قلت لا يعرف ما يضره ممـا ينفعه ، فلما أن بلغ طور الرجولة تبين أن الفتاة لا تصلح زوجة له فماذا عليه اذا تركها ؟!

وصمم حسين على أن يشق طريقه الى هدفه فقال بهدوء مخاطبا أخته :

ــ تكلمى عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة أخيك الآخر !.

وحملقت فيه الأعين بدهشة ، وندت عن نفيسة آهة سريعة ، وتساءل حسنين :

ــ ماذا تقول ؟

فقال حسين وهو يتغلب على ارتباكه بقوة ارادته :

ــ يجوز أن تصبح خطيبة لى ..

ــ لك أنت !

ــ لى أنا ..

وهتفت نفيسة :

ــ كلام لا يدخل المخ !

ــ ولكنه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وسألته الأم وهى تتفرس فى وجهه :

ــ هل خطبتها حقا ؟

فقال الشاب خافضا عينيه :

ــ نعم ، قلت له انه يسرنى اذا وافق أن أطلب اليه يد الفتاة ..

فسأله حسنين بقلق :

ــ أفعلت هذا رغبة فى اصلاح الأمور ؟

فتردد حسين قليلا ثم قال :

ــ لا يخلو الأمر من هذه الرغبة ، بيد أننى أكن للفتاة تقديرا كبيرا ، وأعتقد أنه اذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها ..

فتساءلت نفيسة فى لهجة ساخرة :

ــ ومن قال انه لابد من الزواج ؟!

وتداخلت الأم متسائلة :

ــ وماذا قال لك فريد افندى ؟

فأجابت نفيسة بالنيابة عنه قائلة :

ــ قال على العين والراس طبعا ..

وأجاب حسين دون أن يعبأ بها :

ــ شكر لى طلبى ولكنه اعتــذر بأنه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب الى أن أمهله الى حين ..

وعاد حسنين يسأل باهتمام :

ــ أكنت تضمر هذه النية حين غادرتنا ؟

فأجاب حسين بفطنة :

ــ كلا ..

فقال الآخر باشفاق :

ــ أخاف أن تستبين بعد حين أنك غير راغب فى الزواج حقا !؟

فقالت نفيسة متنهدة :

ــ ربنا يسمع منك ...

فصاحت بها أمها غاضبة :

ــ نفيسة !

أما حسين فقال مجيبا أخاه :

ــ انى أحب بطبعى الحياة المستقرة ..

فقال حسنين بارتياح :

ــ ليس أحب الى من سعادتك وسعادتها ..

وصمت قليلا ثم استدرك قائلا بصوت منخفض :

ــ ولى أنا أيضا آمالى ، كأن أتزوج من كريمة أحمد بك يسرى . أتظنه يا أخى أملا أخرق ؟!

فقال حسين مبتسما :

ــ لم لا ؟ .. انك كفء لها ..!

وهتفت نفيسة ضاحكة فى شيء من الاضطراب :

ـ لنا الله ، أردنا أن نسترد واحدا والغالب أننا سنخسر الاثنين ، وهذه اصابة عين حامية ..

وتمتمت الأم بهدوء :

ـ على بركة الله ، انى مطمئنة الى أن أبنائى لن ينسونى ..

فقالت لها نفيسة :

ـ ما أجهلك بالزواج وأسراره ، سلينى أنا عنه .

ضحك حسنين قائلا :

ـ أمنا أعرف بنا منك ..

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل فى نفسه وهو يسترق النظر الى أخيه : ترى أكانت خطبته بنت ساعتها حقا ؟!

٨٢

« ربما كان الانتظار حكمة ، ولكن ماذا يجدى الانتظار اذا طار الطائر ؟ ! » هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب ، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة . قالوا له ـ خاصة حسين ـ انه ينبغى أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة ، وليكن رأيهم صوابا ، ولكن من يضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة ؟. ومما شجعه على نبذ هذا الرأى « الحكيم » أن أحمد بك يسرى على علو مقامه قريب اليه بحكم العلاقات القديمة ، فطمع فى أن يوسع له صدره . أما اذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه الا أن ينتظر أعواما طوالا قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه . الا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده ؟.. يمكن بلا ريب ، واذا لم يمكن فان احتمال الرفض لايجب أن يقعده عن المسعى ، انه أجرأ من أن يقعده شىء عن غاية ، ثم انه لا يطيق هذه الفضيلة التى يدعونها بالصبر . الآن ، ودون

خوف أو تردد ، وليكن ما يكون . كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . صمم وشرع فى التنفيذ بلا مبالاة . هذه هى الحياة التى يتلهف عليها بكل قوة نفسه . وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضى فى طور الاحتضار ، وما يريد الا الحياة النظيفة السعيدة لنفسه وذويه . وكان قد أخذ زينته وتبدى فى منظر حسن يجمع الى رشاقة الشباب فحولة الرجولة . وما أن انتهى الى الفيللا حتى أدخل الى السلاملك فجلس ينتظر ولكن بقلب خافق ونفسه قلقة ، « أليس عجيبا أن أتقدم لطلب يد فتاة هذه فيللتها وأنا لا أملك الا ما تبقى من مرتبى !. وهناك قضية الوقف الوهمية التى حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغنى عنى شيئا . لماذا لم يكن لأمى وقف ؟ ولكن هذه مسألة أخرى ، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضى غير الماضى والحاضر غير الحاضر . ليكن ما يكون ، لن أتراجع ، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسى ، اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم أخسر شيئا يذكر . انى آسف يا بنى ، سلام عليكم يا سعادة البيك ، هذا أفظع ما يتوقع . انى كفء لها بغير جدال . ما عسى أن تريد مما ليس لدى ؟ المال ؟ عندها المال بالقنطار . ما أحمقكم يا أهل هذا البيت اذا رفضتم يدى . فى هذا الموضع رأيتها أول مرة على دراجتها ، ساق تستأهل ثقلها ذهبا وفخذ سبحان الخالق . مسكينة نفيسة . ترى أين حسن الآن ؟ ليته يفر الى بلد غريب فيختفى الى الأبد . لا تكاد ذكراه المزعجة تفارقنى فمتى أرتاح من الماضى كله . لن أتراجع . فى هذا الموضع كادت تهوى بها الدراجة . أقدام البك ؟. » وأنصت فى اهتمام ثم نهض قائما فى احترام حين رأى البك قادما نحوه وسلم فى اجلال والآخر يقول :

ــ أهلا بحضرة الضابط . كيف حالك ؟

وأجابه الشاب وهو يبذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وارادته :

ـ شكرا لك يا سعادة البك .

وتساءل البك ضاحكا بلهجة ذات معنى :

ـ ألا يزال أخوك فى طنطا !

ورحب حسنين بأى حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهرى :

ـ بلى يا سيدى :

وكانا قد اطمأنا الى مجلسيهما فقال البك :

ـ ليس فى الامكان نقله هـذه العطلة ولكنى أخـذت وعدا صادقا بنقله فى العطلة القادمة ..

وكان حسنين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان :

ـ هذه مأثرة جديدة تضاف الى مآثرك السابقة :

وساد صمت ، وشعر الشاب بأنه يقتحم لحظة رهيبة من حياته ، وانه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردد أو تراجع ، فألقى بعزمه قائلا بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته :

ـ الواقع انى قصدتك يا بك فى شأن يخصنى أنا ..

فرفع اليه الرجل عينيه متسائلا :

ـ خير ان شاء الله ؟..

فاعتدل الشاب فى جلسته كأنه يستمد من اعتداله قوة وقال:

ـ انى أستشفع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق مطمحى .

فتساءل البك مبتسما وهو يدلل بأصـابعه شاربه الغليظ المصبوغ :

ـ أتريد أن ترقى لواء ؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت من أساريره وقال بصوت منخفض :

ـ أعز من هذا . انى طامح الى شرف مصاهرتك ..

وحل اهتمام مفاجيء محل النظرة الباسمة ، وخيل اليه أن الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر به من الرزانة وضبط النفس ، ولكن أية دهشة يا ترى ؟ دهشـة المفاجأة أم الانزعاج ؟ ودق قلبه بقوة وشعر شعورا عميقا بخطورة اللحظة التى يكابدها . أما الرجل فقال بعد صمت وتفكير :

ـ لا يسعنى الا أن أشكر لك حسن ظنك . .

وتأثر للقول الرقيق تأثرا لم يخل من ألم غامض وقال بتوكيد :

ـ أرجو الا أكون قد جاوزت حدى . .

فقال البك مبتسما :

ـ حاشا لله . انى أكرر الشكر بيد أننى أؤجل الجواب حتى أشاور أصحاب الشأن .

فارتاح حسنين لهذه المهلة التى رحب بها ترحيب المحارب المحرج بهدنة آمنة وقال :

ـ هذا طبيعى يا سعادة البك ولكنى أرجو حقا الا أكون قد جاوزت حدى .

فابتسم البك قائلا :

ـ لا تعد على مسمعى هذا القول .

ونهض الشاب مستأذنا فى الانصراف ثم غادر الفيللا . واستعاد فى الطريق كل كلمة قيلت وما صاحبها من حركات واشارات ولمحات ، وحاول أن يستشف ما وراءها من معان ومقاصد ، ومع أنه كان يؤول كل شيء بخيال جريء طموح متفائل الا أنه وجد انقباضا وقلقا ، وفى النهاية قال لنفسه وهو يهز كتفيه استهانة « اذا ربحت ربحت الدنيـا جميعا واذا خسرت لم أخسر شيئا يذكر » .

٨٣

لم يفكر حسين فى معاودة زيارة فريد افندى حتى أوفت اجازته على نهايتها ، كأنما أراد أن يمد للرجل فى مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأيا قاطعا . ولم يكن يكف فى أثناء ذلك عن مشاورة والدته ، ولم تبد المرأة اعتراضا ولكنها نصحته أن يؤجل زواجه عاما حتى يستكمل استعداده . ومن عجب انها لم تفلح فى اسداء مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكن حسين نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجله الذى وصفه « بالتهور » ولم يخف عليه أنه اذا وفق حسنين الى هذه الزيجة الخيالية ، وتم زواجه هو بعد عام ، فستجد أمه وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل ، ولهذا طمأن والدته الى أنه مصمم على أن يضم زوجه الى البيت فى كنف معيشة واحـدة ، واطمأن قلبه وفكره فمضى الى بيت فريد افندى ، واستقبله الرجل بترحاب أنعش آماله ، ومع أنه لم يكن للزيارة الا معنى واحد لا يخفى على أحد الا أنه خاطب الرجل قائلا فى شىء من الارتباك :

ـ جئت استودعكم الله قبل عودتى الى طنطا غدا . .

فابتسم فريد افندى ابتسامته الرقيقة وقال :

ـ مع سلامة الله ، وان شاء الله نسمع قريبا عن نقلك الى القاهرة . . .

فقال حسين برجاء :

ـ أرجو أن يتم هذا فى العطلة القادمة . .

وساءل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل ؟ . . لقد شاور أمه فى الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغا منها ، ومع هذا فمن يعلم بما دار فى نفوس أهل هذا البيت ؟!.

وساوره قلق ، أخـذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التى يود سماعها ، حتى جاءت الست أم بهيـة فنهض لاستقبالها فى أدب وشد على يدها فى حرارة ، وتفاءل بمقدمها خيرا . وقد قالت له وهما يجلسان :

- انى سعيدة برؤيتك يا بنى ، كيف حال والدتك ؟

فقال حسين بحرارة :

- بخير يا سيدتى . وهى تقرئك السلام ..

ثم نظر فريد افندى الى زوجه وقال لها :

- حسين افندى جاء يودعنا لأنه مسافر غـدا وأظن من المناسب أن نخبره بما قر الرأى عليه (ثم محولا رأسه الى الشاب) بخصوص ما حدثتنى عنه يا حسين افندى يسرنى أن أقول لك «اننا» موافقون .

وتتبع فؤاده كلام الرجل فى خفقان متواصل ، استحال ألما خالصا عند بعض المقاطع ، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصـوت متهدج :

- شكرا لك يا سيدى ، ألف شكر ، انى سعيد حقا ..

فابتسم الرجل وقال مخاطبا زوجه :

- وسينقل الى القاهرة فى العطلة القادمة ...

فضحكت المرأة قائلة :

- خبر سار ، نحن نود بطبيعة الحال « أن تكونوا » على مقربة منا ...

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره :

- سيتحقق هذا باذن الله ...

ثم قال فريد افندى :

- ولكن يحسن بنا أن ننتظر فترة معقولة قبل اعلان الخطبة .

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلا :

- حتى ينقضى وقت مناسب بين الخطبتين ...

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم :

ــ انى رهن اشارتكم .

وقام فريد افندى وغادر الحجرة ، وغاب دقائق ، ثم عاد تتبعه بهية . ومع أن حسين حدس الأمر الا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلا مكنون قوته لتمالك نفسه . ثم مد لها يده فى صمت ، فتلاقت يداهما ، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع ، باردة المس ،فاهتز صدره ودر رقةوشكرا. وشعر بأنه ينبغى أن يقول كلمة ، وألح عليه هذا الشعور ، ولكنه وجد رأسه فراغا ، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة . وسرعان ماتناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه فى موجة السرور والرضا التى غمرت حواسه جميعا فنزلت عليه سكينة لطيفة أشبه بالشفاء الذى يعقب نوبة ألم . ما أجملها كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة ؟!. انها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامىء الى حياة البيت السعيد . لا تثير استفزازا من أى نوع كان ولكنها تبث سلاما وطمأنينة . لماذا جاء بها أبوها ؟ ليس لهذا الا معنى سعيد واحد ، قال اننا موافقون ثم جاء ببقية « اننا » شاهدا ملموسا . بوده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفاقت من الصدمة ؟ هل برىء الفؤاد ؟ أبدأت حقا تستشعر ميلا اليه ؟ . ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذى بدا الآن تافها متطفلا . ألا يمكن أن تحدث معجزة فيغادرا الحجرة ؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه فى صفاء وزرقة لحظة بهيجة . عنده ما يقوله ولديها مايقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالأيام آتية ، وسيفصح عما فى ضميره ، عن كل كبيرة وصغيرة . وفى أويقات ما بين الحديث كان يتجمع فى احساس رقيق سعيد أقنعه بأن فى الدنيا سرورا خليقا بأن يكفر عن جميع أكدارها . سرور يقطر صفاء . ليدم طويلا ، لتدم هذه

الجلسة ، هذه الحال ، هذا المنظر ، هذا الاحساس ، ليدم عمرا ، ليشمل الحياة جميعا .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم الا بايماءة أو فمغمة ، حتى وجب الذهاب فنهض مستأذنا ، وسلم عليها ، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد ...

٨٤

وسافر حسين ، وانقضت أيام من فترة الانتظار التى دعاها حسنين بمدة « تحت الاختبار » . والتى عاناها فى تجلد اضطرارى والأمل واليأس يتجاذبانه . وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رد أحمد بك يسرى وهو غير بعيد عن مشورته ، كان فى الحقيقة يأنس الى مشاورته وان غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه ؛ على أن اقدام حسين على الشروع فى الزواج كان قد ترك فى صدره راحة لأنه كان فى أعماقه متعبا لسبقه الى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كأنه محروم من الانتفاع بحياته . ولا يعنى هذا أنه لم يكن مشغولا بمستقبل أسرته فالحق انه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيرا كبيرا لنفسه ولأسرته على السواء . هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظه بقلب مطمئن . وانه لعلى تلك الحال اذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه الى موافاته الى كازينو لونابارك بمصر الجديدة ، وكان هذا الصديق ـ ويدعى على البرديسى ـ أقرب زملائه مودة الى قلبه ، نشأت صداقتهما وتوثقت بالكلية ، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران ، ومضى الى موعده فوجده فى انتظاره ، وجلسا معا فى حديقة الكازينو ، ثم طلب الصديق قدحين

من الجمعة . وأدرك حسنين من اللحظة الأولى أن صاحبه قد دعاه لأمر ، لأنه على غير عادته - وبالرغم من مرحه الظاهر - بدا جادا متفكرا ، وما لبث أن سأله :

- أتذكر الملازم أحمد رأفت ؟

فقال حسنين بعدم اكتراث :

- طبعا ، انه من دفعتنا ، وأظنه ضابطا بالطوبجية ، أليس كذلك ؟ . .

فأومأ الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة :

- سمعته بالأمس يتحدث عنك فى جمع من الاخوان بما أغضبنى وساءنى . . .

فحملق حسنين فى وجهه بدهشة . كان يتوقع أى شىء الا هذا . وتساءل فى استنكار :

- ماذا قال ؟

فقال على البرديسى بوجوم :

- كنا ، أنا وبعض الأصدقاء ، نلعب الورق فى بيته بالمعادى .

- وبعد ؟

- لا أذكر المناسبة التى أثارت الحديث . كنا سكارى . ولكنى سمعته يخوض فى أمور تمسك . خبرنى أولا هل سعيت حقا الى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسرى ؟!

وفجر الاسم زلزالا فى صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة ، وذكر لتوه أن أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسرى . وبذل جهدا صادقا ليتمالك أعصابه ، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعورا غليظا بالتشاؤم والخوف :

- ربما . . . .

- أتعلم أن أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة ؟

- هذا جائز ، ولكن خبرنى ماذا قال ؟

فصمت البرديسى كالمتردد حينا ثم تمتم بصـوت منخفض والحرج باد فى أساريره :

ـ فهمت من حـديثه أن الأسرة لم توافق . يؤسـفنى أن أبلغك هذا ...

وشعر بالخبر يضـغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته وأحس بانهيار فى كرامته ورجولته . ثم فار غضبه حتى أوشك أن يستسلم لنيرانه ولكنه ثار على الاستسلام فى اللحظة الأخيرة ، وأبى الا أن يتظاهر بعدم الاكتراث ، بل ندت عنه ضحكة وتساءل :

ـ أهذا ما أساءك يا صديقى ؟

فقال الصديق بوجوم وقلق :

ـ هذا أمر عادى ، يحدث كل يوم ، ولكنه ذكر فى غير لياقة الأسباب التى تبرر عدم موافقة الأسرة ، ومع أنها أسباب تافهة لا يمكن أن تحط من قدر انســان الا أنه ساءنى جدا أن يرددها فى جمع حافل من السكارى ...

كان يشعر دائما بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق رأسه تهدده فى كل حين ، وهاهى قد أهوت على يافوخه ونثرته هشيما . ليس الأمر بحاجة الى ايضاح أو سؤال ، ولكن أمن الممكن حقا أن يتجاهل كل شىء ؟ ! ورفع بصره الى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة آلية :

ـ خبرنى عما قال ؟

فعبس الشاب فى ضيق وتبرم ثم استطرد :

ـ انه حقيق بالاهمال ولكن من الانصاف أن تعلم بما يقال عنك ولست فى حاجة لأن أقول لك انى غضبت لك غضبة صادقة ألجمت ألسنة الهاذين ..

اذن اتخذوا منه مادة لهذيانهم ! وأى مادة ! كان ينبغى أن يفكر فى هذا كله يوم أقدم على تلك الخطبة المشئومة . وابتسم الى صديقه ابتسامة باهتة وقال :

- لايخالجنى شك فى شهادتك . انى أقدر اخلاصك حق قدره . ولكن أرجو أن تعيد على مسمعى كل كلمة قيلت . كلمة كلمة .

وبدا الشاب متأففا ، واكتفى بأن يقول فى امتعاض شديد :

- قال كلاما كثيرا عن أخ لك .. حتى قلت له محتدا انى أعرف قاطع طريق فى بلدتنا أخوه وزير فى القاهرة !

فامتقع وجه حسنين ، وتأذى لدفاع صاحبه كأنه يسمع التهمة نفسها ، بيد أنه ضحك فى يأس وقال :

- العادة أن عين الرضا لا ترى الا الوزير أما عين الغضب . ما علينا ، وماذا أيضا ؟

فقال الشاب فى تهرب :

- وكلام سخيف من هذا القبيل ...

ولكن حسنين هتف به فى ضيق غلبه على أمره فجأة :

- أرجوك ، أرجوك ، لا تخف عنى شيئا ..

فقال الشاب عابسا من التحرج :

- أكره الخوض فى الحرمات .

- أختى ؟!

- نعم ...

- قال انها كانت تعمل لترتزق ... ؟

- وقلت له غاضبا ان العمل الشريف لا يعيب أحدا وان الفقر ليس جريمة .

فهز حسنين رأسه فى حرارة وردد قول صاحبه فى سخرية أليمة :

- .. ان الفقر ليس جريمة !.. بديع !.. وماذا قال أيضا ؟..

- لا شىء ...

- حسبه ! أخ قاطع طريق وأخت خ ... عاملة ، هه ؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا !

قال البرديسى :

ـ أعتقد أن حسن الاختيار قد أخطأك فى التقدم لمثل هـذه الأسرة العيابة .

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم :

ـ صدقت . .

ثم راح يقول لنفسه « انى غائص فى الطين حتى قمة راسى . ليس لهذه الحال من علاج الا أن أدق عنق هـذا الأحمد رافت . ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئا ؟ ، كلا ، انه دفاع غير مجد بيد انه لا يجوز أن تغيب عنى حقيقة هامة وهى أن اللكمة القـوية تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعا وتفرضه فرضا . انى قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصنى الشجاعة أو القوة . كان حسن أحقرنا شأنا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احتراما . هذا درس ينتفع به » . ثم سمع صديقه يقول فى عزاء :

ـ لا تكترث أكثر مما ينبغى .

فقال وهو يهز منكبيه متظاهرا بالاستهانة :

ـ نصيحة معقولة . ليس فى أسرتنا ما يشين . كنا أغنياء فى يوم ما ثم دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة حتى تغلبنا عليها . ليس فى هذا ما يشين . . .

ـ بل فيه من دواعى الفخار ما فيه .

فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب :

ـ ولكنى أعرف كيف أؤدب من تحدثه نفسه باهانتى . .

ـ هذا حق لا شك فيه . .

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسى خيرا من أن يطلب قدحين أخريين من الجعة ، ثم تمتم مبتسما :

ـ ستجد اذا شئت من هى خير منها . . .

فقال حسنين باستهانة :

ـ أوه ، البنات فى البلد أكثر من الهواء وأرخص من التراب !

وعل من الجعـــة فى ظمأ ، وشغل الصـــديق بقدحه أيضا فعاد

الصمت . «آه لو كان فى وسع الانسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد فى أسرة جديدة ، وينشىء ماضيا جديدا . ولكن ما بالى أعذب نفسى بالأمانى الكاذبة . هذا أنا ، وهذه حياتى ، ولن أسمح بأن أتحطم . لم تنته المعركة بعد ! » .

٨٥

ولما غادر الكازينو مودعا من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان أن تذهبا بعقله . وكان يبغى أن ينفس عن صدره قبل كل شىء ومهما كلفه الأمر بيد انه استسخف فكرة مواجهة الضابط أحمد رأفت وأغراه شعوره المنطوى على التحدى والغضب بما هو أجل وأخطر . « ان غضبى على هذا الشاب المغرور غير عادل . لقد سمع قولا بذيئا فردده . ليس لى عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء . اذا سنحت فرصة للتحرش به فى المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام ، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة . هدفى الحقيقى هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ . سأقول له ان أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب يد كريمتك هو أن تحافظ على كرامته خصوصا اذا كان ابن صديق قديم . اذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له ان الفقر ليس بعيب بخلاف التشنيع على الناس فهو عيب حقير . اذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقتصد فى اظهار غضبى حتى أفرغ بخار صدرى المكتوم . » . وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من اشعاعات الجعة ألقى بنفسه فى أول ترام صادفه فحمله الى ميدان المحطة ، ثم أستقل الترام الى شارع طاهر ، وعندما تراءت له فيللا أحمد بك يسرى تثاقلت قدماه كأنه يمهل نفسه لمعاودة التفكير . وترددت فى أعماقه هواتف

تهيب به الى التراجع ولكنها ذابت فى تيار الحمى المستعر فى رأسه فدفع الى الفيللا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذى وقف له احتراما . وشق طريقه الى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينثنى . كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيح كالناعسة فى ظل المغيب ، وارتسمت على أرض الممشى الوسيط آثار عجلات السيارة فى هيئة خطين عريضين منحنيين ، فاتجه نحو السلاملك، تشى نظرة الحيرة والتردد التى تنتاب تصميمه من حين الى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواعث التى تدفعه الى هذا التحدى . ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة ، وما كاد يبلغ القراندا حتى وقف متسمرا تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر فى هذيانه الطويل المتصل . رأى الفتاة — نفسها — جالسة على كرسى كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت الى القادم بعينين متسائلتين . وثبتت عيناه عليها فى جمود ذاهل وقد صدع صدره من الأعماق احساس بالخزى أذابه ذوبانا . ثم أدرك انه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزى جديد فاق ما تعرض له من ألوان الاهانة ، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمما على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة . وأفاده التصميم فتمالك نفسه ، وحنى رأسه باحترام وقال مبتسما فى لطف :

— مساء الخير يا آنسة . معذرة عن ازعاجى غير المقصود لك . هل أستطيع أن أقابل البك ؟

فقالت برقة — وكان يسمع صوتها لأول مرة — دون أن يعتورها أدنى ارتباك :

— والدى معتكف اليوم لوعكة خفيفة .

وحنى رأسه مرة أخرى ، ولعله وجد ارتياحا الى هذا الخلاص الذى جاء من حيث لا ينتظر ، وقال وهو يهم بالذهاب :

- أستودعك الله ..

ودار على عقبيه وسار خطوة ، وخطوة أخرى ، ثم توقف فى تصميم مباغت . اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التى دفعته من مطر الجديدة الى شبرا .

ودار حول نفسه مرة أخرى وواجه الفتاة فى جرأة غير مبال بنظرتها المترفعة المتسائلة ثم قال بصوت أعلى مما يستدعى الموقف :

- معذرة ، يعز على أن أودع هذا البيت الوداع الأخير دون أن أعرب عن أفكارى ..

فظلت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة فاستطرد متسائلا :

- أظن بلغك أننى طلبت يدك ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

- لم تجر العادة بأن يحدثنى أحد من زوار أبى .

فقال فيما يشبه الدهشة :

- ظننتها عادة غير مستنكرة فى الأوساط الراقية !

- ليس فى جميع الأحوال .

فتمادى فى الاستهانة قائلا :

- اسمحى لى أن أتكلم رغم هذا ، أننى قصدت البك لمحادثته فى الأمر نفسه لأنه نما الى أن طلبى عد وقاحة لا تغتفر ..

فقالت دون أن ترفع بصرها :

- يحسن بك أن تؤجل حديثك لحين لقاء البك ..

فقال وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

- ولكن ما أسعدنى به الحظ من لقائك - وأنت صاحبة الشأن الأول - يحتم على أن أتكلم ، يهمنى أن أعرف رأيك ، هل يعد طلبى وقاحة حقا ؟

فقالت بما ينم عن الضجر :

ـ أرجو أن تؤجل حديثك لحينه . . .

ومع أن ضجرها كان شيئا منتظرا الا أنه آلمه وأحنقه فقال :

ـ ان الذى يسعى الى يد فتاة يتقدم عادة بخير ما فيه ولكن يحدث أحيانا لسوء الحظ الا يروا الا شر ما فيه ، كبعض مساوىء تتعلق بأسرته مثلا . . .

فنهضت قائمة ، عابسة . وهى تقول :

ـ لا مفر من الذهاب .

واتجهت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع قائلا :

ـ كنت أود أن أسـمع رأيك ، ولكن حسبى هـذا ، انى آسف ، وأرجو أن ترفعى تحياتى الى البك . .

ودار على عقبيه مسرعا وهبط السلم ثم سـار نحو الباب . ومرت بخاطره مناظر متباعدة فى سرعة وتدفق . كموقفه مع بهية فى بيتهم الجديد ، وحديث البرديسى فى الكازينو . وهـذا الحديث القريب « لست عاشقا خائبا والحمد لله . كنت على وشـك أن اكونه ولكن الله سلم . بيد أننى رجل خائب وهذا أفظع . أحب أن أفكر طويلا فى هذه الأمور المعقدة . انى أشعر بمرض من نوع جديد ، أين الداء ؟ أين الخطأ ؟ أين العلاج ؟ » .

ولما خلص الى الطـريق كان مقتنعا بأنه ارتكب سـخافة لا معنى لها . . .

٨٦

قالت الأم مبتسمة وان نمت نظرة عينيها عن أسى :

ـ من عجب انك ترمى بنفسك فى أمور خطيرة دون أن تأخذ العدة لها . هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت تفعل ؟ الم تفكر فى هذا ؟ ألم نحذرك جميعا من عواقبه ؟

كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسى حوالى عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم ، وكانوا كلما جمعتهم جلسة فى الشرفة المطلة على الطريق فى أوقات العصارى ولاح فى وجهه الشرود أو التفكير انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعزى من قلبه وانضمت اليها نفيسة مازجة الجد بالمزاح.

وقال حسنين فى ضجر:

- لا يبدو لى الغد خيرا من اليوم ..

فقالت نفيسة:

- كلام فارغ ..

وصدقت الأم على كلامها قائلة:

- وستبدى لك الأيام أنه كلام فارغ ، وستتزوج من خير منها ..

وتساءل فى نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد فى هذه الأسرة ؟ أهى أسرة بلهاء أم هو الأبله ؟ أليس الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذه الدنيا أخطر من أدوار الملائكة مجتمعين ؟ بلى ، فلماذا لا يرونه كذلك ! . ولقد أرسل الى حسين كتابا بآخر أنباء زواجه فماذا كان جوابه ؟ لم يكد يزيد شيئا عما تقول أمه أو أخته ! .. أماتوا وهم أحياء ؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة ؟ !

وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجى الذى رن رنينا متواصلا ، ثم صوت الخادم وهى تصيح بحالة مزعجة بعد أن فتحت الباب « سيدى .. ستى » فهرع الى الصالة مستطلعا تتبعه أمه وأخته فرأى عند باب الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثا بينهما ، جريحا فيما يبدو من عصابة قذرة تطوق رأسه وتنز دما ، وقد مال عنقه الى كتف أحد الرجلين . واقترب حسنين من القادمين مبهوتا منزعجا لا يدرك شيئا ولا يفهم شيئا حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح . بشرة شاحبة تشوبها زرقة تثير

من الأعماق ذكرى الموت ، وتعلوها فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب ، ولكن العينين المغمضتين رمشتا فى اعياء فلاحت خلال أهدابهما نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت حركتها الضعيفة الى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة . وقبل أن يتحرك لسانه جاء صوت أمه من الخلف مؤكدا ما انفجر فى رأسه هاتفا فى نبرات يمزقها الخوف والاشفاق :

ــ حسن ... هذا حسن ...

فصاح حسنين مرددا قول أمه فى ذهول :

ــ حسن ..

وهنا قال الرجل الذى يسند عنقه بكتفه ويشترك مع الآخر فى حمله :

ــ يجب أن ننيمه فى الحال ..

وتقدم الشاب فى ذهول منهم وانحنى فوق قدمى أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما فى رفق وساروا معا متعاونين فى حمله الى حجرة نومه ، وأناموه على الفراش الوحيد فى البيت ، ثم أسرع الرجلان بمغادرة الحجرة يتبعهما حسنين على حين هرعت الأم ونفيسة نحو الفراش فى جزع لا يوصف . وفى الصالة أشار الرجل الذى تكلم أول مرة ــ وكان يرتدى جلبابا وطاقية ــ الى الآخر ــ الذى يتزيا بزى الأفندية ــ وقال :

ــ لا مؤاخذة ، هذا سائق التاكسى .

فأدرك حسنين أنه يلمح الى أجرة التاكسى فسار معهما حتى السيارة وأعطى الرجل النقود وصرفه مستبقيا الآخر ، ثم سأله فى اضطراب وجزع :

ــ ماذا حدث ؟

فقال الرجل :

ــ سى حسن أخى وصديقى ، ولعلك تعلم أنه كان هاربا من وجه البوليس فانتهز بعض أعدائه هذه الفرصة وتربصوا له فى

بعض الأماكن التى يقطعها مستخفيا وانقضوا عليه غدرا وسلبوه ماله ولاذوا بالفرار ، وقد تحامل المسكين على نفســه حتى بلغ مسكنى ورجانى أن أذهب به الى أهله فأخذنا التاكسى الى عطفة نصر الله حيث أخبرنا الجيران أنكم انتقلتم الى هذا البيت فجئنا من تونا .

وكان حسنين يصغى الى الرجل فى شبه ذهول ، ومع أن احساسات شتى تعاورت قلبــه الا أن احساس الخوف والقلق غلبها جميعا ، ولما انتهى الرجل من حكايته غمغم الشاب :

ـ شكرا لك يا سيدى على مروءتك ، هلا تفضلت بالبقــاء ساعة حتى يستريح ..

ولكن الرجل رفع يده الى رأسه شاكرا وقال :

ـ انى ذاهب فى الحال ، ولى كلمة قبل الذهاب وهى أنه يجب الاسراع الى علاج الجرح الخطير ولكن حذار من استدعاء الاسعاف أو حمله الى القصر والا أدى الأمر الى التحقيق ثم الى البوليس .. !

وحياه الرجل ومضى الى حال سبيله ، فعاد الشاب الى الحجرة كمن يشق سبيله فى ظلمة حالكة والأرض تميد به . ووجد أخاه كما تركه راقدا وكأنه اطمأن الى الجو الجديد فأســلم الى غيبوبة تامة ، وانكبت عليه المرأتان فى جزع باد ، ولما أحستا بالقادم تطلعتا اليه بنظرة استغاثة . ورنا الى الراقد طويلا ثم تساءل بصوت غريب :

ـ ألم يتكلم ؟

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها الجاف :

ـ غمغم كلمات لاتغنى شيئا ثم راح فى غيبوبة . أغثنا بدكتور .

ولكن الجريح حرك يده بجهد ، وبدا كأنه يستطيع أن يغــالب غيبوبته عند الضرورة فقــال بصوت باهت ضــعيف تجرد من فحولته المعهودة :

ـ لا دكتور .. الدكتور .. يبلغ .. البوليس .

وألقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفى

رأسه وجبهته وجانبا من صفحتى وجهه فلا تبدو الا عيناه المثقلتان بالاعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر ، وقد فغر فما تتردد فيه أنفاس ثقيلة محشرجة ، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكتة وانتثرت خيوط الأزرار ، وراحت يمناه تنقبض وتنبسط ، ويئن بين آونة وأخرى . وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلا فتناسى مخاوفه وتركز شعوره فى أحساس عميق بالألم والاشفاق . نسى برهة كل شىء الا أنه حيال أخيه الجريح ، وانه ينبغى انقاذه بأى ثمن . ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر خوف وقلق طالما طاردته فى الأيام الأخيرة فى هيئة نذر تتهدد سمعته ومستقبله ، فانقبض قلبه ، وداخله ألم جارح لهذه المشاعر ذاتها من ناحية ، ولتأنيب الضمير على احساسه بها فى مثل هذا الموقف من ناحية أخرى . وكأنه فزع الى الهرب من باطنه بالكلام فقال مخاطبا الجريح برقة :

ـ دعنى أحضر طبيبا . حياتك أهم من أى شىء آخر .

وقالت الأم ونفيسة برجاء معا :

ـ نعم يا حسن ، دعنا نحضر الطبيب .

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبراته المضغوطة المتعبة :

ـ كلا . لا تخافوا . هذه ضربة تافهة ..

ثم حاول أن يأخذ نفسا عميقا واستراح لحظة ، ثم استدرك قائلا مغمض العينين :

ـ غدروا بى . الويل لهم . ان كان لى عمر فالويل لهم . ولكن لا تستدعوا طبيبا . الطبيب يبلغ البوليس ..

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب فى باطنه :

ـ لابد من احضار طبيب ، وليس عسيرا أن نقنعه بتكتم الخبر .

وتوسلت اليه الأم قائلة :

ـ ارحمنى يا حسن واقبل هذا ..

فنفخ الرجل مغمغما فى ضجر :

- ارحمونى أنتم ودعونى فى سلام ... أف .

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء فى بلوى . برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره ، فليس تألمه لأخيه بشىء يذكر الى جانب الخوف الذى يلقى عليه ظلا ثقيلا من شبحه الجاثم . « قضى علينا ، قلبى لا يكذبنى على الأقل فى الشر ، قضى علينا فى مصر الجديدة كما قضى علينا فى شبرا وسيطاردنا البوليس جميعا كالمجرمين . أكاد أرى بعينى رأسى المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقى القبض على المجرم الهارب . هل سدت منافذ الحياة ؟ ! . أتقول انه أخى ؟ أجل انه أخى ، ولكنها حياتى التى تتحطم تحت قدميه فى طريقه الوعرة . أف ، لشد ماضاق صدرى !. ثم سمع أمه وهى تهتف به فى يأس :

- أغثنى يا حسنين ! .. ألا ترى انه يموت بين أيدينا !

« كلا لن يموت ، أما أنا فانى أموت موتا بطيئا قاسيا . ان كرامتى تحتضر . وهبه مات حيث هو الآن فسيأتى طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابه ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت فى هيئة فضيحة رائعة ! » ثم حانت منه التفاتة الى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعة ، ومع أنها كانت مطبقة الفم الا أنه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب . وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادىء الأمر ثم خيل اليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه فى لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره فى العصابة الملوثة بالدم ، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تمتم على أثره بلا وعى « كيف نسيت هذا ؟ ! » ثم قال مخاطبا أمه فى عجلة :

- سأحضر طبيبا صديقا من مستشفى الجيش ، انتظرى قليلا فلن أغيب طويلا .

وهرع الى بدلته فلبسها متعجلا وغادر البيت لا يلوى على شىء ...

٨٧

وقف حسنين مستندا الى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد أنفاسهما . كان عابسا شديد التأثر ، وتولاه الفزع ، ثم أخذ يهدأ رويدا ، ويغيب فى أعماق نفسه . وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أن أخاه أصيب بجرح فى رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعفه مبديا له رغبته الحارة فى تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامة ! ومضى الطبيب معه فى تحفظ ، ولما أجرى الكشف الابتدائى على رأس الجريح قال :

— كسرعميق ، الى ما استنزف من دم غزير . لا أدرى ماوجه الحكمة فى عدم ابلاغ البوليس ؟ !

فقال حسنين بتوسل :

— فلنتحاش هذا بأى ثمن !

فقال الطبيب وهو يتهيأ للعمل :

— الظاهر أنك لا تدرك خطورة الأمر ! .. وعلى أى فلنؤجل هذا الى حينه !

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك فى أعماقه . كان فى ذهابه الى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوا طيبا تنمو فيه احساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات الى الأيام الخوالى التى كان حسن فيها المرفه الوحيد عن بأسائهم ، واليد المبسوطة التى تجود فتحقق لهم الآمال . ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين العطف ولم

يعد يرى فى الرجل الجريح الا نذير الشر الذى يتهدد سمعته ومستقبله . ها هو يرقد فى غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التى تعبث بلحمه وعظمه ، وهكذا كانت حياته دائما جرحا عميقا يبتلى سواه بآلامه ، أما هو فلم يفق من غيبوبته قط ، أو لم يشأ أن يفيق منها . ألم يضرع اليه بالدموع أن يغير حياته ؟ بلى ، وكان جزاؤه السخرية الأليمة ، فلو أنه مات فى أرض بعيدة !

ثم ثبت عينيه على الوجه الذى أخذ يختفى تحت الأربطة فسرت فى جسده رعدة ، وامتلأ يأسا وانقباضا وأخيرا سمع الطبيب يخاطبه قائلا :

ـ انتهيت من الممكن عمله الآن ، هلم معى الى الخارج ..

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكتته ثم سار بين يديه الى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدا متفكرا ، ثم قال بهدوء غير منتظر :

ـ لا أظن الحال خطيرة جدا ولكنه سيحتاج الى علاج طويل . يا له من اعتداء وحشى ، لماذا لا تبلغ البوليس ؟

فقال حسنين بجزع وان رده قول الطبيب الى بعض رشاده :

ـ انى أتفادى من الفضيحة ، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة !...

فهز الطبيب رأسه فيما يشبه التذمر ثم قال بشىء من الحزم :

ـ سأعود لرؤيته صباحا فاذا وجدته على ما يرام فيها والا فسأجدنى مضطرا للتبليغ .

وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أرجو الا يحدث هذا .

ثم خاطب الطبيب قائلا :

ـ انى أشكر لك ما تجشمت من جهد وتعب .

واتجه الرجل الى الخارج فوصله الى الباب الخارجى وهو يشد

على يده بامتنان ، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرر على مسمعه قائلا فى توكيد :

ـ سأعود صباحا ..

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزمجرة فى طريقها فتنهد كأنه يزيح ثقلا لا يتزحزح ثم عاد الى الحجرة ينقل خطواته فى كآبة ، وما كاد يلج الباب حتى هرعت اليه أمه وسألته فى لهفة وجزع :

ـ ماذا قال الطبيب ؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنه لم يجد بدا من أن يقول فى هدوء :

ـ انه مطمئن الى الحالة وسيعود صباحا . كيف حاله الآن ؟

فقالت نفيسة :

ـ لم يفق بعد .

وارتمى على الكرسى الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه « أنا الجريح حقا . انه ينام نوما عميقا فى غيبوبة سعيدة فمن لى بمثل هذه الغيبوبة . لا أظن الحال خطيرة جدا ، هكذا يقول الطبيب الغافل . كلا انها خطيرة جدا ، وابلاله أخطر من موته . اذا ساءت الحال أبلغ الخبر الى البوليس ، واذا تحسنت جثم على صدرى حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه ، فالفضيحة آتية لا ريب فيها .. أين المهرب من هذه الآلام جميعا ؟. انى أمقت هذا الجريح وأمقت نفسى وأمقت الحياة جميعا . أما من حياة غير هذه الحياة ومخلوقات غير هذه المخلوقات ؟ .. » والظاهر أن أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبضت أساريره فى امتعاض وألم ، ولاحت من أمه التفاتة اليه فاشتد بها التأثر وقالت له برقة :

ـ هون عليك ، أخوك بخير ، والله حافظه وحافظنا ..

وفتح عينيه فى دهشة ، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة ...

٨٨

وجاء الطبيب فى صباح اليوم الثانى ثم غادر البيت معلنا اطمئنانه ، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطىء وأوهام لا تفارقه ليلا ولا نهارا . وانقضت أيام والأسرة فى هدوء نسبى ، ومضى الرجل الجريح يفيق ويسترد حيويته شيئا فشيئا ، وبعودته الى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت الى النفوس المحيطة به . وقد ابتسم بادىء الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كالمعتذر :

ـ أتعبتكم كثيرا ، والظاهر أن الله لم يخلقنى الا للتعب .. فليسامحنى الله !

والتمعت فيما حوله بسمات المجاملة والتودد فلم ينخدع بها ، أو لم ينخدع بها جميعا ، فمالت عيناه نحو حسنين وقال :

ـ لا شك فى أنك غاضب ولعلك تود أن تذكرنى بمواعظك السالفة !...

فغمغم الشاب قائلا :

ـ لا أود الا سلامتك ...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، ثم ما عتم أن تجهم وجهه ، وتكالبت عليه الأفكار ، فقال فى لهجة مضطربة غير التى تكلم بها أول الأمر :

ـ سلبونى نقودى ، الويل لهم ، كنت عازما على الهرب ، ولا بد من الهرب .

وتحسس رأسه بيده وأغمض عينيه ، ثم تمتم وكأنه يحادث نفسه :

ـ ماذا فعل الله بسناء ؟ .. هل يكفون عنها ؟.. لن تستسلم للعدو من أعدائى ، ولكنها لن تستطيع الهرب معى ، فات الوقت وفقدنا نقودنا ...

وأنصت حسنين صامتا ، جافلا من ملاقاة هذا الهذيان بغير الصمت ، واختلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدهما تتبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول فى نبراته المضطربة :

ـ يجب أن أختفى . ان الصديق الذى حملنى الى هنا رجل مخلص ولكنه أجهل من أن يحفظ سرا ، وليس أحب اليه من أن يروى قصة مروءته لرفيقته ، فتنقلها هذه لجارتها ، حتى تبلغ أحدا ممن يتربصون بى ، فلا تدرى الا والبوليس يقتحم علينا البيت .

وتنهد حسنين فى يأس ، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغض بصرها ، وامتلأ حنقا فخاطبها فى سره ... لماذا أتيت بنا الى الدنيا ؟... لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع ؟.. ثم سمع أخاه يهتف بعنف :

ـ يجب أن أختفى . سأغادر البيت حالما أقدر على المشى ، وربما غادرت القطر كله ...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأول مرة مذ جاء الرجل محمولا كالقضاء والقدر . « هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة !.. هل يختفى حقا فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر ؟!.. فليتقدم حيث هو ، يجب أن أحيا حياة مطمئنة ! »

ثم مر يوم ويوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهودا مألوفا ، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جديا فى مغادرة البيت ثم فى الهرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخطط فى صمت وتفكير متواصل ، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع فى البيت فعادت الى زياراتها التى لم تكن تنقطع يوما : وكذلك عاود حسنين حياته العادية ما بين عمله وبيته والنادى ولكن رأسه لم يتوقف عن

التفكير فى أخيه والخطر الذى يتهدد سمعتهم بسبب اقامته بينهم — وقد دار حديث بينه وبين أمه مرة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد اشفاق وتردد :

— اذا كان البوليس لم يهتـــد الى محل اقامته حتى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمر طويلا ...

ونظرت اليه المرأة نظرة غريبة احتار فى تفسيرها بادىء الأمر ، أهى عتاب صامت ، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته ، أم استنكار يداريه الخوف من الافصاح ، كل أولئك بدا راجحا حينا لولا أن برح الخفاء فهتكته دمعة ترقرقت فى محجريها فى بطء كالحياء وفى تردد هو العذاب ، هنالك ملأه الانزعاج لأنه لم يكد يذكر أن رأى أمه باكية على كثرة المحن والملمات ، وتراجع فيما يشبه الفرار وصور من حزمها وعزمها تنثال على مخيلته فى دهشة وألم ، فكأنه يشهد احتضار أسد هصور . على أنه حين خلا الى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بآلامه هو ومخاوفه ، فاشتد به الاستياء والحنق ، ولعن نفسه وأمه معا ...

وفى عصر اليوم التالى مباشرة أرادت هــذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة . كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث ، وكانت نفيســة فى الخارج . ورن جــرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح ، ثم عادت فى ارتباك ظاهر وقالت للشاب :

— سيدى ، عسكرى بوليس يرغب فى مقابلتك ...

٨٩

تناثرت نفوسهم كالشظايا ، فوثب حسنين قائما وهو يحدق في وجه الخادم ، ورمى حسن بقدمه من على الفراش الى أرض الحجرة وهو ينظر الى النافذة في عبوس متمتما « الهرب ! » ، على حين رددت الأم بينهما عينين زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج . وجمد حسنين في مكانه في دقيقة ، ثم استسخف جموده فهز منكبيه في يأس وغادر الحجرة الى الباب الخارجي حيث يوجد الشرطي واقفا وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب في استسلام :

ـ أفندم ؟ !

فقال الرجل بصوت أجش :

ـ هل حضرتك الضابط حسنين كامل علي ؟

ـ نعم . . .

ـ حضرة ضابط نقطة السكاكيني يرغب في مقابلتك في الحال . .

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم ير غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم ، وداخله شيء من الطمأنينة ، ولكنه تساءل في حيرة :

ـ ماذا يريد حضرته ؟

ـ أمرني أن أبلغك رغبته دون أن يزيد . . .

وتردد الشاب قليلا ثم استطرد ريثما يرتدي ملابسه وعاد الى الحجرة ، ووجد أخاه وراء بابها يتصنت فما أن رآه حتى سأله في لهفة « هل جاءوا ؟ » ، وكررت الأم السؤال في صوت مريض ، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطي وهو يرتدي ملابسه ، وما كاد ينتهي حتى قال حسن :

ـ لعل الضابط من معارفك فأراد أن ينبهك قبل أن يكبس البيت . هذا واضح . اصغ الى ، اذا سألك عنى فقل له انك لم ترنى منذ أعوام . لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لى على أثر . سأختفى عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم ...

فتساءل حسنين وهو يخفى عنه عينيه حتى لا يقرأ فيهما ما تنفس فى أعماقه من أمل جديد :

ـ وهل لديك من القوة ما يعينك على الهرب ؟

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب :

ـ انى على خير عافية ... مع سلامة الله .

وغادر حسنين الشقة ومضى فى صحبة الشرطى ، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقا من معارفه ولكن الشرطى ذكر له اسما غريبا لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة . وبدا له الأمر شديد التعقيد . بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث فى نفسه طمأنينة لا حد لها . وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل ، وقاده الشرطى الى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلا :

ـ حضرة الملازم حسنين كامل على .

كان الضابط جالسا الى مكتبه ، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح فى وجوههم آثار معركة حديثة العهد ، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول « أهلا وسهلا » ثم أمر الشرطى باخلاء الحجرة واغلاق الباب . وطلب الى الشاب أن يجلس على كرسى أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه « ترى ما معنى هذا كله ؟ .. ترحاب ومجاملة ثم ماذا ؟ ! » ...

وخرج الضابط من مجلسه ووقف فى مواجهته مستندا بيمناه الى حافة المكتب ، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة

من لا يدرى كيف يبدأ حـديثه أو من يجـد فى ذلك قدرا من الصعوبة لا يخفى . وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل ، واشتد به احساس كريه استحوذ عليه منذ اللحظة التى وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس ، احساس بالرهبة والقلق والضيق « ضابط مهذب يتحرج من القاء التهمة فى وجهى ، هذا غريب فى ذاته ، تكلم وارحنى فطالما تراءى لخيالى كابوس هذه اللحظة . انى أعلم سلفا ما تريد قوله . تكلم ... »

ونفد صبره فقال :

ـ دعانى الشرطى لمقابلة حضرتك ؟

فقال الضابط :

ـ انى آسف لازعاجك . كنت أود أن ألقاك فى ظرف خير من هذا ، ولكنك أدرى بما يتطلبه الواجب أحيانا .

وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف فى السلامة وقال فى وجوم :

ـ انى أشكر لك كرم أخلاقك . وها أنا مصغ اليك ..

فقال الضابط باهتمام ورقة معا :

ـ أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة ، وأن تسلك سـلوكا جديرا بضابط يقدس القانون ...

فقال الشاب وهو يعانى ما يشبه الهزال والخور :

ـ هذا طبيعى جدا .

فعض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض صدغيه ثم قال باغتصاب :

ـ الأمر يتعلق بأختك ...

ورفع حسنين حاجبيه فى استنكار ثم قال :

ـ تعنى أخى ؟

ـ الست أختك ، ولكن معذرة أحب أن أسألك أولا هل لك أخت تدعى نفيسة ؟

فقال حسنين فى ذهول :

ـ نعم ، هل وقع لها حادث ؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن أخبرك بأنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ..

وفزع حسنين واقفا ، متصلب الجسم ، مصفر الوجه ، محملقا فى وجه محدثه ، وهو يلهث قائلا :

ـ ماذا تقول ؟

فربت الرجل على كتفه متأثرا وقال :

ـ ادع كل قوة فى نفسك كى تضبط أعصابك . الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب . أرجو أن تساعدنى على القيام بواجبى ولا تجعلنى أندم على ما اتخذت من اجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شىء .

أنصت اليه وهو لا يزال يحملق فى وجهه ، تمتلىء عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه ، ويغيب عنهما أخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئا ، وثالثة لا يرى الا شفتين تنطبقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة ، وبين هذا وذاك ترمش عيناه فى حركة عصبية فتلتقطان منظرا غريبا هنا وهناك ، بندقية مثبتة فى جدار أو صفا من البنادق أو محبرة ، وربما امتلأ أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة ، ثم ينحل وعيه ويتراجع فجأة الى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصر الله وهو صبى يلاعب حسين البلى « ضبطت فى بيت ! أى بيت !؟. ان أحدنا فاقد العقل ولا شك ولكن من هو ؟ . ينبغى أن أتحقق من أنى عاقل أولا ... » وتنهد فى وهن ، ثم سأله فى استسلام :

ـ ماذا تقول يا سيدى ؟

ـ يوجد فى هذا الحى بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق . كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا

الست ... وجندها مع شاب ، واعتقلناها طبعا وشرعت فى اتخاذ الاجراءات القاسية التى تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لى بأنها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها ..

ـ أختى أنا ؟ .. أأنت متأكد ؟ .. دعنى أراها ..

ـ اضبط نفسك ، أرجوك ، لو كنت متأكدا من أنها أختك لأطلقت سراحها . ولكنى خفت أن يكون اعترافها خـدعة ، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الاجراءات على شرط التأكد من صدق قولها ...

ومن عجب أنه لم يعد يداخله أدنى شك فى حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم ، ووجد فى فظاعتها ترجيعا لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه . أجل لم تخلق هذه الواقعة الا لحظه ولأسرته ، انه يعلم هذا علما لا يتطرق اليه الشك. أهذه هى نهاية المطاف ؟! ثم غلبه ذهول شـعر معه بأنه أثر من آثار ماض منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلا عن المستقبل ، كان ، هذا هو ، ولكنه لا يكون ولن يكون . ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت :

ـ أين هى ؟.. دعنى أراها من فضلك ...

فأشار الضابط الى باب مغلق وقال :

ـ تركناها فى هذه الحجرة لأنه أغمى عليها حين علمت بأنى أرسلت فى طلبك بدل أن أطلق سراحها . اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أنى مسئول عن الأرواح . انك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة . لا يصح أن يعلم أحد ممن فى النقطة شيئا ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت ، تذكر هذا جيدا ...

فكرر قوله بنفس الصوت الميت :

ـ دعنى أراها من فضلك ...

ومضى الضابط الى الباب المغلق متثاقلا وفتحه ، واقترب حسنين منه كمن يمشى فى حلم ، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن

ينظر ليتعرف على جثة فى المشرحة ، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألقت برأسها الى الحائط ، عيناها نصف مفتوحتين ولكنهما مظلمتان لا تريان شيئا ميتة أو مغمى عليها أو لعلها فى ذهول الافاقة الأول ، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت . لكنها نفيسة دون غيرها . « قلبى لا يكذبنى فى المصائب أبدا لو كانت ميتة لادعيت أنى لا أعرفها بلا تردد » ولم تبد حراكا كأنها لم تحس للقادمين وجودا ، أو أنها لم تستطع أن تبدى حراكا . ونظر الضابط صوبه متسائلا ولكن عينيه لم تتحولا عنها ، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهربا مؤقتا مما كان ومما سيكون وخيم عليهم سكون الموت ، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة ـ ثم شق الصمت صوت باطنى يصرخ فى أذنه « انتهى ... » ، وتخايلت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن فى حيرة يائسة والرجل يتوثب للفرار . ود فى تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت . « ماذا ينتظر الضابط أن أفعل ؟ .. ماذا ينبغى أن أفعل ؟ رباه كيف أغادر هذا المكان ؟ ! » ... ثم سمع الرجل يقول :

ـ لقد قدمت ما عندى من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة ....

فسأله بدوره وهو يتحامى عينيه :

ـ أين الآخر ؟ !

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم :

ـ طبقت عليه الاجراءات وأطلق سراحه ..

فغمغم قائلا :

ـ لنترك هذا المكان شاكرين ...

٩٠

فى الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس فى خطوات ثقيلة تتبعه هى على بعد ذراع منكسة الوجه . ساراً مع قضبان الترام ولم يكن يدرى أين ينتهى به المسير لأنه لم يسبق له المجىء لهذا الحى ، ومع أن الليل كان فى أوله الا أن الطريق بدا مقفرا ، وتساءل فى نفسه ترى أين ينتهى الطريق ؟ .. ثم بدا له تساؤله آية فى الغرابة ، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهى الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقا أن يعلم ما هو صانع « بها » . كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ توا بعد خروجه من النقطة ، وكانت هى تتوقع هذا ، ولكن أقدامهما تقدمت بهما دون أن يفعل شيئا ، وكان يشعر بوجودها وراءه فى ضيق لا يحتمل ، ويسمع وقع قدميها كالرصاص فى ظهره ، ويمحو أول فأول أية رغبة فى أن ينظر الى الخلف ، ومع أنه بدا فى صمته ـ ذلك الصمت الهائل الذى وقف حائلا بينهما ـ وكأنه يفكر تفكيرا متواصلا الا أنه فى الحقيقة كان فارغ الرأس . كان فارغ الرأس بحال مزعجة ، لم يردها ارادة ، ولكنها فرضت عليه قسرا وبثت فى نفسه احساسا بالقلق ، احساس من يتلهف على السيطرة على ارادته سيطرة غاشمة فلا يجد الى ذلك سبيلا . واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت فى صدره شرارة حنق ، وكأنها جذبت اليها أفكاره الهاربة فى الظلام ، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل فى صمت أيخنقها ؟ .. أيحطم رأسها بحذائه ؟ .. لا بد لصدره من متنفس . وظل الصمت الجهنمى سائدا . وبينما كان يجمع عزمه لزحزحة هذا الصمت تطوعت هى ـ وهو

ما عجب له - لزحزحته . فسمعها تغمغم فى نبرات مرتعشة متهدجة قائلة :

- لقد أجرمت . انى أعلم هذا .. ولن أسألك غفرانا لست جديرة به .

هل حقا واتتها قواها على الكلام !.. يا للشيطان !.. وأحدث صوتها - على ضعفه - زوبعة من الهياج فى صدره ، زوبعة عمياء طاغية صبت الغضب فى أطرافه صبا فتوقف عن السير والتفت نحوها فى سرعة غريبة وارتفع ذراعه فى الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض . لم تنبس بكلمة ولا ند عنها أى صوت ، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمت نفسها ووقفت وأخذت فى التراجع حتى ارتكنت الى جدار بيت . واقترب منها فتراءى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التى تظل وجهه فلوحت له بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة فى عجلة وتوسل :

- قف ، لا تفعل ، لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف عليك ، لا أريد أن يمسك سوء بسببى ..

وزادته رقة كلامها هياجا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار :

- لا تريدين أن يمسنى السوء بسببك ؟ ! .. يا عاهرة لقد صببت السوء على صبا ...

فأعادت بتوسل حار :

- ولكنى لا أطيق أن يسيئوا اليك ولو كان السبب هلاكى ..

- هذا مكر حقير لن ينفعك فى انقاذ حياتك الحقيرة ، هيهات ، لن ينالنى سوء بقتلك ..

فهتفت فى حرارة :

- لا ينبغى أن يمسك عقاب وان هان ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلى ؟ !. دعنى أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدرى أحد ..

فتساءل فيما يشبه الذهول :

ــ تقتلين نفسك ؟ !

فقالت وهى تلهث :

ــ نعم ...

شعر فجأة ــ وقبل أن يتمالك نفسه ــ بأن حملا ثقيلا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدا . كان مدفوعا بغضب مستعر واحساس معذب بالواجب ولكن العواقب ــ كذيوع الفضيحة والعقاب ــ ما فتئت تتخايل لعينيه ، فالآن بعد هذا الحكم الذى قضت به على نفسها يسعه أن يسترد أنفاسه وأن يستبين بصيصا من النور فى هذه الظلمة الخانقة . وغمغم متسائلا وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره :

ــ كيف ؟

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ــ بأى وسيلة كانت .

فتفكر قليلا متجهم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة :

ــ النيل ...

فقالت بهدوء :

ــ ليكن ..

فنفخ حنقا وضيقا ثم تراجع فى تثاقل وهو يغمغم « هلمى » فغادرت الجدار وتقدمت فى خطو ثقيل ، ثم دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا . أحس هذه المرة شيئا من الطمأنينة ولكن غضبه فقد عنصرا كأنه كان يعتز به وهو لا يدرى ، فقد شعورا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه ، فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة الى آخرينشد السلامة . وغص حينا بقهر خانق ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يعدل به عما تراءى له من سبيل النجاة ، ولم يكن من الضعف بحيث يتركه فى سلام ، ونفس عن صدره قائلا فى خشونة :

ـ كيف فعلت هذا ؟ !.. أنت ؟ ! .. من كان يتصور هذا !

فتنهدت قائلة فى استسلام اليأس :

ـ أمر ربنا ..

فصاح مزمجرا :

ـ بل أمر الشيطان .

فقالت بنفس الصوت المتنهد :

ـ نعم ...

فتردد لحظة ثم تساءل :

ـ من هو ؟

فسرت فى جسدها رعدة وقالت بذل :

ـ لا تعذب نفسك ولا تعذبنى ، سينتهى كل شىء فى لحظات .

ـ أكان يعرفنى ؟

فقالت بعجلة وتوكيد :

ـ كلا ..

فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل :

ـ أول مرة ؟ !

فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضا :

ـ نعم ..

فضرب الأرض بقدمه وصاح بها :

ـ كيف استسلمت للغواية ؟

فغمغمت فى عذاب صامت :

ـ أمر الشيطان .

ـ أنت الشيطان .. لقد قضيت علينا ..

فهتفت فى رجاء :

ـ كلا .. كلا .. سينتهى كل شىء الآن ولن يدرى أحد ..

ـ أتعنين ما تقولين ؟

ـ طبعا ..

— واذا ساورك خوف !

— كلا ، ان ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت ..

— وعادا الى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب ، ومضى يمد البصر مع قضبان الترام فى حيرة ، ثم سألها بلهجة ساخرة :

— الى أين نحن ذاهبان ، فلعلك أدرى بهذا الحى منى ؟

ولم تجب ، ولكن تقبضت أساريرها من الألم . ثم لاح لهما ميدان الظاهر فتراءت لعينيهما آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيهما أصوات الأحياء ، وجعل ينظر فى قلق حتى ثبتت عيناه على صف من التاكسيات فمضى الى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل وراءها . وفكر قليلا والسائق ينتظر أوامره ، ثم قال له بصوت منخفض :

— جسر الزمالك من فضلك ..

٩١

انطلقت السيارة بسرعة الى شارع فاروق فى طريقها الى العتبة ثم الى امبابة .

كانا يجلسان كغريبين ، أما هو فقد ألقى ببصره الى الطريق خلال النافذة موليا اياها نصف ظهره وأما هى فقد خفضت رأسها وغابت فى ذهول عميق . لم يكن فى رأسها شىء ، أو شىء ذو بال ، كأنه السكون الذى يعقب عاصفة هوجاء ، أو جمود الموت بعد نزع أليم . وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى عليها وبعودتها الى الوعى تكالبت عليها الأفكار المفزعة ، واستعرضت عيناها شريط حياتها فى رعب جهنمى حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها كما ينحنى رأس من سدت فى وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار . وبعد ما كان من

الانهيـار الكامل وظهور حسنين وما كان بينهمـا فى الطـريق ، شعرت بأن كل شيء قد انتهى ، وأخلى الهول مكانه من رأسـها ، تاركا وراءه فراغا صامتا ، فلم يعد به شيء ، أو شيء ذو بال الا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظر مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة . بيد أنها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بهـا من قبل ، اذ هانت عليهـا الحياة حقا ، بالفعل لا بالقول ، هانت الهوان الذى يجعل من الموت نجـاة . أجل طالما تذمرت فيما مضى من حياتها وسخطت ، حتى تمنت الموت أحيانا ، ولكنها لم تسع اليه مع ذلك لأنه كان ثمة أمل فى الحياة يدب متواريا فى أعماقها ، الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب ، واقتلعت الجذور التى تشـدها للبقاء ، ووجدت مع هـذا اليأس العميق راحـة زحزحت عن كاهلهـا الأعباء ، فلم تعـد تفكر فى شيء ذى بال ، ورمقت الموت الذى تنهب الأرض اليه باستسلام كأنه التخدير . وقد دارت السيارة حول منعطف وهى منطلقة فى سرعتها فارتجت الفتاة فى مجلسها وتنبهت الى ما حولها فيما يشبه الفزع ، ومع أنها ظلت منكسة الرأس الا أنها أحست بوجوده الى جانبها وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها للحظها فى غموض فتقبض قلبها ألما وخزيا « ترى فيم يفكر ؟ .. ألا يجد غير البغض والغضب ؟ متى يمسى كل شيء وقد انقضى ؟ .. هذه هى النهاية الوحيدة . ترى هل تحدس أمى الحقيقة ؟ .. لا داعى للتفكير . انى ميتة » .

ولبث حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجـاذبه الغضـب واليـأس والرهبة . « كيف تنتهى هذه المحنة ؟ ، وكيف أخرج منها ؟ .. أيمكن حقا أن يسدل عليها الستار دون أن تفـوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عبثا لا طائل تحتـه ؟ انى أختنق . ان الماضى لا ينمحى ولكنه يسابق مستقبلى . لماذا لا نعيش بلا مبالاة ؟ . قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا . لاداعى للتفكير مطلقا . ما أشـد عذابى ، كيف أتغلب على هذه التعاسة

كلها ! . مهلا ، انى أسوقها الى الموت ، وهى تعلم أنها تساق الى الموت ، ترى هل تواتيها القدرة ؟ . لا شك أنها تفكر الآن تفكيرا متواصلا ، ولكن فيم تفكر ؟ . لا ينبغى أن أفكر فيها . الموت خير نهاية لها . لا يمكن أن تلتقى عينانا فهو فوق ما أحتمل وفوق ما تحتمل هى . الأمر يتعلق باختك ، آه قاتل الله هذا الضابط ، يؤسفنى أن أخبرك أنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ، من يتصور هذا ! . وليس الموت بنهاية ولكنه بداية لتعاسة أخرى تنتظرنى فى البيت . حتى متى أواصل هذا التفكير ؟ أية مدخنة هذه ؟ لعله مصنع ، نحن نقترب من جسر أبى العلاء ، هذه المدخنة تنفث دخانا أسود كثيفا ، لو تحترق أفكارى وتذوب فى أنفاسى لزفرت أقذر منه . لا أريد أن يمسك سوء بسببى ، صدقت ، يجب أن تهلكى وحدك . متى يطوى الطريق ! » .

وعبرت السيارة جسر أبى العلاء فاندفعت الى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يصلى نارا حامية على حين سرت فى أطرافها رعدة بثت فى حناياها خوفا غامضا ، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس . وضاعفت السيارة من سرعتها حتى شارفت جسر امبابة فخفت قوة اندفاعها رويدا ، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلا فقال له هذا بصوت منخفض « قف » ، ودفع له حسابه وغادر السيارة فغادرتها أيضا من الباب الآخر ، وما لبث التاكسى أن عاد من حيث أتى فوجدا نفسيهما وحيدين على كثب من مدخل الجسر . وكانت المصابيح المقامة على جانبى الجسر تشع نورا قويا أحال ظلمته نورا ، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالا وجنوبا - رغم المصابيح المتباعدة الخافتة - فبدت الأشجار المتراصة على جانبيه كأشباح عمالقة ، وكان المكان مقفرا الا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة

كلما كف هبوبها تعالى هسيس النبات كالهمس . لازما موقفهما في جمود كالذهول ، ثم استرق اليها نظرة فرآها مقوسة الظهر قليلا منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره الا قلبا متحجرا ونفس خنق الهم فيها كل رحمة . وثار حنقه على جموده فجأة فقال بغلظة :

ـ أأنت مستعدة ؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به :

ـ نعم .

ونفذ الجواب على بساطته الى أعماقه فلم يعد يطيق موقفه ، وتزحزح عنه فى خطو ثقيل ، وقبل أن يبتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل :

ـ لا تذكر اساءتى ..

فند عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلا :

ـ فليرحمنا الله جميعا ..

تركها وحدها حيال الجسر ، وهدف الى الطوار الممتد الى يمين الجسر على شاطىء النيل ، ثم جد فى المسير . حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشوم جعلت تجذبه الى الوراء ، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترا من مبدأ الطوار فتوارى وراءها فى اعياء وأرسل الطرف نحو الجسر . ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بأنوار المصابيح تمسك من طرفيها بالشاطئين فى عناد وتصميم كأنه وحش يغرز أنيابه فى فريسته ، وعند رأس الجسر ، وعلى الجانب المواجه له ، رآها تتحرك فى خطو ثقيل خافضة الرأس ، يعلوها جمود غريب كأنها تمشى فى ثبات . رآها فى وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المنعكس وهى تقطع الأرض قدما قدما حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن السير ، ورفعت رأسها ، وأجالته فيما حولها ، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها

الى الماء المصطخب الجارى . وجعل يكتم أنفاسه ويزدرد فى تشنج ريقه الجاف وهو يترقب ، ولكن ظهر فى تلك اللحظة عنـد الطرف الآخر من الجسر رجـلان ومضـيا يقطعان الجسر فى سرعة وهمـا يتحدثان ، ثم لاح الترام القادم من امبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقا الصمت بعجيجه ، فاسترد الشاب أنفاسه ولكن الى حين قليل ، وسرعان ما ركبه القلق والضيق . وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل اليه من شدة وقع النبض فى أذنيه أن العالم الخارجى يسمع دقات قلبه . ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظرا غريبا عنه لا شأن له به ، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبتـه الرهبة على ما فى نفسه جميعا فلم يعد يستشعر حقدا ولا غضبا ، ثم اعتركت الأفكار فى رأسه فى ثوران فشعر فى حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضـة ، ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها ، فهو منها فى حيرة أى حيرة . وفى أثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر ، وسبقهما الترام الى الطريق ، وما زالت الفتاة تحملق فى الماء . ونظر هنا وهناك فلم ير أثرا لانسان . وتجمعت نفسـه فى لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب . رآها تعطف رأسها يمينا ثم شمالا . وبغتة ، وفى حركة سريعة يائسة تسورت السور . وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عينـاه ، لا يمكن ... ليس هـذا ... أما هى فألقت بنفسها ، أو تركت نفسها تهـوى ، وقد انطلقت من حنجرتهـا صرخة طويلة كالعـواء تمثل لعينى المبتلى بسـماعها وجه الموت ، فجاوبها بصرخة فزع ولكنها ضـاعت فى صرختهـا . شعر وهى ترمى بنفسها أن بوسـعه أن يجـد للمسألة المعقدة التى تحيره حلا ، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها ، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى ، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت ، ثم صك مسمعيه اصطدامها بالماء فندت عنه صرخة أخرى ..

٩٢

وثب الى منحدر الشاطىء وعينـاه تحملقان فى المكان الذى ابتلعها تحت الجسر ، ثم جمد فى موقفه لا يدرى ماذا يفعل أو لا يدرك ماذا يريد ، وظل على جموده يكاد محجراه أن يلفظا عينيه من شدة الحملقة . وتوقع مرات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أن النيل المندفع الى ما تحت الجسر لا بد أن يكون قد جرفها معه ، فلعلها تتخبط فى جوف الجسر أو تغوص فيما يليـه من النهر . ومر بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها ولكنه لم يحرك ساكنا ، ووجد لهـذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جمودا وشعر بأنه لم يعد لعقله من سيطرة عليه . وما يدرى الا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس :

ـ أسمعت صرخة ؟

فالتفت الى الوراء فرأى شرطيـا تنم حركاته على الاهتمام فقال له فى ذهول :

ـ نعم ، لعله غريق ...

وجعل الجندى يحدق فى الظـلام فوق النهر ثم حث خطـاه نحو الجسر . وأعاده الجندى الى شىء من وعيه فتراجع الى موقفه الأول ولم يعد فى طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدوا صـوب الجسر ثم عبره الى سـوره المطل على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره الى التيار المتدفق . وما لبث أن رأى آثار للحادثة لا تخطئها العين ، رأى قاربا يشق الماء فى سرعة قادما من الشاطىء الأيسر نحو وسط النهر ، وسمع أصوات استغاثة وصراخا آتية من الشاطىء البعيد . وكان سطح النهر فيما يلى الجسر مضاء بما ينعكس عليه من أنوار المصـابيح فتصفحته عينـاه هنا وهناك ،

ولكنه لم يعثر على ضالته . ثم تبعت عيناه القارب الذى أخذ يقترب من الوسط شاقا سبيله فى الرقعة المضاءة ، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها الى الظلام . ووجد نفسه يتساءل « ترى هل يفوز القارب فى سباق الموت هذا ؟ » . ولم يستبن حقيقة مشاعره ، أو لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه فى القارب فتابعه حتى رآه يتوقف عن التجديف ثم رأى شخصا يقفز منه الى الماء ، على حين تعالت أصوات الباقين بالقارب . هذه هى اللحظة الفاصلة ، وتتابع خفقان قلبه حتى جف حلقه ، وحاول عبثا أن يرى شيئا خلال الظلمة التى لفت القارب أو أن يميز كلمة معبرة فى هدير الأصوات المختلفة ، ثم كل منه البصر فلم يعد يرى شيئا وكأنه عمى . وأخذ يتنبه — دون التفات — الى تجمهر خلق كثيرين حوله ، ثم سمع أحدهم يقول :

— القارب يعود الى الشاطىء فلعله انتشل الغريق ..

وتمشت فى أوصاله رجفة وتساءل « ترى أنجت أم هلكت ؟ .. أذهب أم أفر ؟ ! » ولكنه تحول عن موقفه وسار فى اتجاه الشاطىء الذى يقصده القارب مدفوعا برغبة لا تقاوم فى تعذيب نفسه الى أقصى حد ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعيناه تسبقانه الى بقعة من الشاطىء تجمهر عندها كثيرون . وبلغها والقارب يرسو الى الشاطىء فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندس بينهم وأطرافه ترتجف على رغمه ثم ألقى بعينين متحجرتين الى القارب الذى اكتنفه ستار خفيف من الظلمة . وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطىء ونفر من الشرطة . ثم بدت أشباح الرجال وهى تنتقل من القارب الى الشاطىء حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين :

— هل نجا من الغرق ؟

وأرهف السمع ليتلقى الجواب ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة

ومضوا يرتقون منحدر الشاطىء فى شىء من الجهد والأعين محدقة بهم حتى ميزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم فى ارتياع :

– انها امرأة يا ولداه !

وتساءل آخر :

– كيف غرقت ؟

فصاح غلام :

– رمت بنفسها من فوق الجسر فرأتها زوج النوتى واستصرخت زوجها لانقاذها ...

وجعل حسنين يتبعهم ناظريه فى طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدق أن هذه هى أخته وأن أحدا لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئا الا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع . وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا الى عملية الاسعاف ليفرغوا ما فى جوفها من ماء . وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحدا منهم لم يتعرض لحسنين فلبث بمكانه جامدا لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذى تعبث به أيدى الرجال الغليظة . وانتبه الضابط اليه فاقترب منه وحياه بايماءة من رأسه وسأله :

– أشهدت الحادث !

فخرج الشاب عن ذهوله فى انزعاج ولكنه أجاب بعجلة :

– كلا ...

وأنام الرجال الفتاة على الأرض وجثا أحدهم الى جانبها ثم جس نبضها وألصق أذنه بصدرها فوق القلب ، ثم رفع رأسه قائلا :

– صعد السر الالهى الى بارئه ، لا حول ولا قوة الا بالله ...

وعاود الشاب احساسه بالغرابة ، وغلبه الاحساس على ما عداه ، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح ، ولم يتحرك فكره لا الى الأمام ولا الى الوراء ، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز

انتباهه فى الجثة الراقدة غير بعيد من قدميه . جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها وتلصقت خصلات منه بخدها وجبينها ، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر بيقظة وعلته زرقة مروعة ، وخيل اليه أنه يرى أخاديد دقيقة حول الفم الفاغر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذى كان آخر عهدها بالدنيا ، أما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت ، وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذائها والأخرى فى جوربها . ورجع بصره الى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران « لماذا أضطرب هكذا ؟ ألم أقتنع حقا بأن هذه هى خير نهاية ! ألم أسقها الى الموت بنفسى ؟ ينبغى أن تطمئن نفسى . بيد أننى أتساءل عما داخلها من شعور وهى تهوى الى الماء ، وكيف تلقى جسمها النحيل صدمة الماء الغليظ ، وماذا دار بذهنها وهى تتخبط بين أمواجه ، وأى جهد وجدت والطمى يكتم أنفاسها ، وأى عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها الى سطحه فيشدها باطنه الى الأعماق . ان محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقى بالسعادة ، كلتاهما أمنية ضائعة . أتراها ترانى الآن من عالمها الآخر ؟ أراضية هى أم غاضبة أم ساخرة ؟ ! ماذا ترى فى موقفى هذا ؟ . لماذا وقع هذا كله » . وذكر بغتة أمه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه ، وهز رأسه كأنما ليطردها عن مخيلته ، وصمم بقوة على أن يتحامى التفكير فيها ، وعاد بانتباهه المحموم الى الجثة . وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أيادى الفتاة عليه ، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم ، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه . وشعر باعياء وقنوط وتساءل فى جزع « لماذا هذا كله ؟ ! » . وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر اليها . كان رأسه محموما ، وغيض الهم كل رغبة فى الحياة فى قلبه ، وانقلب وجه الدنيا فى عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم ، وقال لنفسه وهو يتنهد من الأعماق

« رباه ، لقد قضى على » . وسمع عند ذاك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه الى النقطة ، ثم رأى الجثة تحمل ورأى القوم يمضون بها الى الجهة الأخرى من الطريق فأتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم . وفى أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيدا يكتنفه حفيف الأشجار التى تكاد تطبق أغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها . وتراجع فى تراخ وترنح حتى أسند ظهره الى جذع شجرة وراح فيما يشبه السبات وكأنه يتردى فى هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل . « قضى على . كنا جميعا فريسة للشقاء فما كان ينبغى لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه . ماذا فعلت ؟ ، انه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . أى حق اتخذت لنفسى ! . أحق أنى الثائر لشرف أسرتنا ؟ ! انى شر الأسرة جميعا . حقيقة يعرفها الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى يوما الا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف أبحت لنفسى أن أكون قاضيا وأنا رأس المجرمين ! . لقد قضى على . » وألقى نظرة على ما حوله فى حيرة وخوف « أين أذهب ؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل ؟ . . لشد ما تهزأ بى الأمانى . لا تبال ، حسن . . ولكن هل يسعك هذا ؟ . احمل نفسك بشرها وانشد النسيان ثم السعادة ، هاها . انى أعبث بنفسى بلا رحمة . طالما أحببت أن أمحو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف الا نفسى . لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا أستطيع . كان ينبغى أن أحب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه . لقد قضى عليه . . . » .

واستوى واقفا اما لأنه ضاق بمسنده واما لأنه وجد حافزا جديدا ، وابتعد عن الشجرة وهو يلقى نظرة الوداع على نقطة البوليس ، ثم اتجه صوب الجسر . سار فى خطو ثقيل خافض الرأس ما فى شعوره الا السأم والنزوع الى الهرب . « لا أريد أن

يمسك سوء بسببى . أمر ربنا . أمر الشيطان . النيل . ليكن .
واذا ساورك خوف . كلا ، ان ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت .
أأنت مستعدة ؟ لماذا تغيب الملازم حسنين ، ألم يرسل خطاب
اعتذار ؟ . رأيت صاحب هذا الوجه عقب انتشال الجثة وسألته
هل شاهد الحادثة وكان مذهولا . » وبلغ الموضع نفسه من الجسر
فارتفق السور وألقى ببصره الى الماء تتدافع أمواجه فى هياج
واصطخاب . وأخلى رأسه من الفكر . « اذا أردت هلم . لن
أصرخ . فلأكن شجاعا ولو مرة واحدة . ليرحمنا الله .. » .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	» »	١٩٦٣
رادوبيس	» »	١٩٤٣	» الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	» »	١٩٦٤
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» »	١٩٦٢
خان الخليلي		١٩٤٦	» السادسه	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» السادسة	١٩٦٥
السراب		١٩٤٨	» الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	» السادسة	١٩٦٥
بين القصرين	رواية من ثلاثة اجزاء	١٩٥٦	» الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	» »	١٩٦٢
السكرية		١٩٥٧	» »	١٩٦٤
اللص والكلاب		١٩٦١	» الثالثة	١٩٦٤
السمان والخريف		١٩٦٢	» »	١٩٦٥
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣		
الطريق	رواية	١٩٦٤	» الثانية	١٩٦٥
بيت سيىء السمعة	قصص قصيره	١٩٦٥		
الشحاذ	رواية	١٩٦٥		

تحت الطبع :

اولاد حارتنا	رواية
ثرثرة فوق النيل	»

مطبوعات
مكتبة مصر

تطلب مطبوعاتنا فى الخارج من :

مكتبة المثنى ببغداد

المكتب التجارى ومكتبة المعارف ببيروت

دار الكتب الشرقية بتونس

مكتبة الثقافة بمكة

دار مصر للطباعة

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY